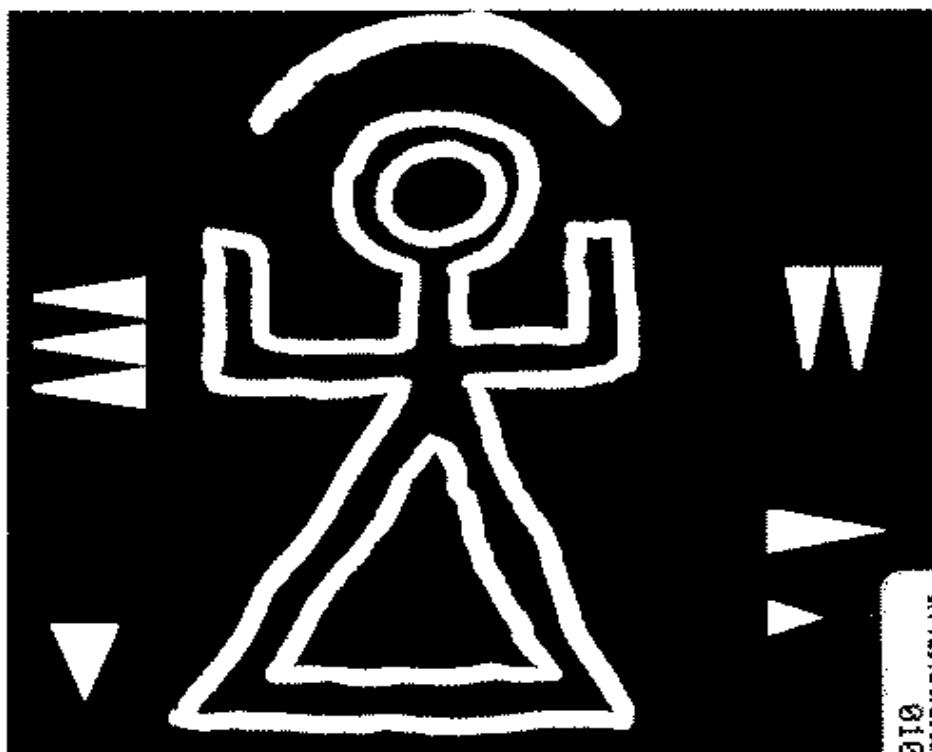


دار الكتب العلمية

# تاريخ الحضارة الفينيقية

## الكنعانية



دار الكتب العلمية

6165374



Bibliotheca Alexandrina



**تاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية)**

- \* تاريخ الحضارة الفينيقية (الكتمانية)
- \* تأليف: جان مازيل
- \* ترجمة: ريا الخشن
- \* جميع الحقوق محفوظة للناشر
- \* الطبعة الأولى 1998
- \* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع  
سوريا - اللاذقية - ص. ب 1018 - هاتف 422339

العنوان الأصلي للكتاب بالفرنسية:

**Avec Les Phéniciens  
à la poursuite du soleil  
sur les routes  
de l'or et de l'étain**

جان مازيل

تاريخ الحضارة الفينيقية  
(الكنعانية)

ترجمة: ربيا الخشن  
تقديم ومراجعة عبد الله الحلو

دار الحوار



## الفهرس

د. عبد الله الحلو .....	11 .....	تقديم:
المؤلف .....	17 .....	غهيد:
ملاحظة خاصة بالعمل الجديد .....	18 .....	-
مشكلة المصادر .....	19 .....	مدخل:
المكتبات الحجرية - الكتاب الإغريق واللاتين - الكتاب المقدس - الأساقفة المعاصرون.	-	-
تسلسل زمني عام .....	23 .....	-
الجزء الأول: فينيقيو الشرق .....	29 .....	الفصل الأول:
أصول فينيقيي الشرق - الرجال الحمر .....	31 .....	الفصل الثاني:
الحياة الدينية عند الفينيقيين .....	33 .....	الفصل الثالث:
الآلهة - العبادة - القرابين أو الأضاحي - معتقدات الموت - سعيًا وراء الشمس.	-	الفصل الرابع:
فينيقيا ومدنها.. أشجار الأرز .....	39 .....	الفصل الخامس:
جبيل... حاضرة الكتابة .....	43 .....	-
صور .....	47 .....	-
موارد صور - حيرام ملك صور وسليمان - حملة الإبحار الأولى - عربات وخيول - سليمان والنسماء وعبادة عشتروت - الإسكندر الكبير وغزو فينيقيا - حصار صور.	-	الفصل السادس:
صيدون... حاضرة الفكر .....	57 .....	- النظرية الذرية -

الفصل السابع:	59 ..... بيروت.. دوام الأزدهار
اللبيرالية - نزعة التوسع - الأساليب التجارية الحالية - الأساليب التجارية القديمة - والإيماءا..	
الفصل الثامن:	63 ..... التأثيرات الفنية وفن التركيب
أهم التأثيرات - ثابوت أحيرام الحجري - التواصيت الحجرية الصيدونية - تماثيل جبيل الصغيرة - بعلبك.	
الفصل التاسع:	69 ..... المبتكرات المنسوبة إلى الفينيقيين
الملاحة - الفلك - فن تشييد المعابد والمدن - المواد الشمنية.. الخلي وفن الصياغة - النسيج - البرونز والحديد - الصياغ الأرجواني - هل اخترع الفينيقيون الرجاج؟..	
	استخراج المياه العذبة من البحر.
الجزء الثاني: مع فينيقي الشرق على طريق القصدoir .....	75 .....
الفصل العاشر:	77 ..... أساطير وخرافات وحقائق عن الامتداد الفينيقي
أسطورة أوريا وقدموس - أسطورة الشور - أعمدة هرقل - الفينيقيون والأطاسلة -	
الفصل الحادي عشر:	81 ..... قبرص.. أو حب أفروديت النسي
أسطورة أفروديت - باخوس والبغاء المقدس - النحاس	
الفصل الثاني عشر:	85 ..... رودس أو التمثال الضخم المفقود ..
جزيرة الزهور - أبناء الشمس العملاقة - التمثال العملاق - فرسان رودوس	
الفصل الثالث عشر:	91 ..... جزيرة كريت ..
من ثيران ميتوس إلى عتب فايستوس	
الفصل الرابع عشر:	95 ..... من إيدوس.. المدينة المندثرة إلى دورونيك ...
قدموس.. أب لليوغسلاف أيضا؟	
الفصل الخامس عشر:	99 ..... من «Charybde» إلى «Scylla» وأجمل كيلومتر في
	العالم

مقبرة كبيرة من العصر البرونزي - دلائل على الوجود الفينيقي في شرق صقلية - سيراكوز - القديس بولص في معبد أثينا - ريجيو - من Scylla إلى Charybde - في الجزء الإيونية ..... 105	الفصل السادس عشر:
خفاف ورياح وسیع - عند منابع السبع - الفينيقيون في ليباري - من المحبب الحضارية القدمة - حجارة الخفاف - سترومولي - الفينيقيون في بوزولي - إيشيا - كابري ..... 113	الفصل السابع عشر:
بوزولي منشأة قديمة العهد - هل هناك شبه بين بيت المال؟ .. حياة مشرقة - إيشيا - كابري - قادس ..... 119	الفصل الثامن عشر:
منشأة فينيقية مقابل مملكة ترشيش الأسطورية - تأسيس قادس - ترشيش... تسلسل الأحداث/ العام مملكة ترشيش - بريطانيا ..... 129	الفصل التاسع عشر:
القصدير والفينيقيون أماكن الحج - بخارية بواسل - القصدير - حجارة الـ «Callais» - وماذا عن السفينة «فينيسيا»؟ .. الفينيقيون وإنكلترا ..... 137	الفصل العشرون:
التصوّص - الفينيقيون في مدينة لوندر - منجم حديث لقصدير - عند منابع القصدير القدمة - جزر سيلي - (Scilly)	
الفصل الحادي والعشرون: الفينيقيون وأميركا ..... 145	
الجزء الثالث: فينيقى الغرب/ قرطاجة/ نيويورك العصر القديم ..... 149	
الخطوط الكبرى في تاريخ قرطاجة ..... 151	
الفصل الثاني والعشرون: المراحل الأولى في حياة قرطاجة ..... 153	

تأسيس قرطاجة - أصول الليبيين - تطور قرطاجة - أصل تسمية أفريقيا -	
الفصل الثالث والعشرون: ديانة فينيقيي الغرب .....	159
الفصل الرابع والعشرون: الفنون والصناعة والزراعة في قرطاجة .....	163
الفنون - الصناعة - المرافع - الزراعة.	
الفصل الخامس والعشرون: المجتمع القرطاجي .....	167
الطبقة الأرستقراطية - المرتزقة - رجال المال - اللغة - الأزياء.	
الفصل السادس والعشرون: معبد الحب الكبير في صقلية ..	171
الفصل السابع والعشرون: جربة ..	173
الفصل الثامن والعشرون: مالطة ..... وسر معابد الكهنة..	175
الفصل التاسع والعشرون: سرديبيا ..... المواجهة مع رجال النوراج	179
الفصل الثلاثون: الجزائر القرطاجية (إيكوزيم) .....	185
الفصل الحادي والثلاثون: التوسيع والرحلات الكبرى .....	187
ملكون والبحث عن العنبر - رحلة نixo البحريه ورأس الرجاء الصالح - رحلة حنون البحريه -	
الفصل الثاني والثلاثون: الحروب البوئية .....	189
الفصل الثالث والثلاثون: البقاء أو بعد زوال قرطاجة .....	193
وفي القرن العشرين	
الجزء الرابع: مع فينيقيي الغرب على طريق الذهب .....	195
الفصل الرابع والثلاثون: عبر الصحاري - طريق الذهب البري .....	197
الجرميون - طرابلس - صبراتا - طرابلس - ليبيس ماجنا - تراجع الطريق البري للذهب -	
الفصل الخامس والثلاثون: رحلة حنون البحريه .....	203

الفصل السادس والثلاثون: إيبيرا... قاعدة عسكرية قرطاجية ..... 209	
الفصل السابع والثلاثون: أندلوسيا (الأندلس) ..... 213	
وجود في كل مكان كرتيا (Carteya)	
الفصل الثامن والثلاثون: المغرب وأرجوان (Getulie) ..... 217	
تطوان - طنجة - ليكوس Lixus - موغادر - الأرجوان - الصورة -	
الفصل التاسع والثلاثون: جزر الكناري ..... 227	
الفصل الأربعون: موريتانيا ..... 231	
نهاية طريق العربات	
الفصل الحادي والأربعون: ذهب وأينوس السنغال ..... 235	
239 ..... خاتمة	
275 ..... مراجع البحث	



## تقديم

ماذا يجب أن نفهم تحت عنوان:

«مع الفينيقيين سعياً وراء الشمس على دروب الذهب والقصدير»؟.. ربما أوحى البعض، وللهلة الأولى، أن الأمر كله يتعلق بنشاط الفينيقيين في تجارة الذهب والقصدير فحسب. ولكن هذا العنوان بالواقع أعمق من حرفيته.. إنه اختصار لحقبة حضارية عالمية مديدة بكل ما فيها من نشاطات ملاحية واسعة وتأسيس مدن ومرافئ تجارية استمرت قرونًا كثيرة على المدى الجغرافي لخوض البحر المتوسط وماجاوره و蔓延ها إلى نواحٍ وبحارٍ ومحippاتٍ أخرى.

وهذا الاختصار الذي تطلب خمسة وخمسين ألفاً من الكيلومترات في جولات بحرية وبرية قام بها «جان مازيل» الباحث في التاريخ الفينيقي، شجع عنه الكتاب الذي بين أيدينا، التوسيع في حجمه، الضخم في محتواه، العريق إلى مالا نهاية في رؤياه.

الحقيقة أن محاولة الغوص إلى حقبة تفصلنا عنها قرابة الأربعة آلاف سنة، بحيث لا تظهر منها إلا تفاصيلية من المعلومات، هي حتى الآن بالنسبة للتاريخ الفينيقي (الكتيعاني) وبشكل عام تاريخ غربي سوريا من الحالات المجهدة. فهو تاريخ واسع موغل في القدم مليء بالأحداث. ومع ذلك فالمعلومات التي تظهر في كثير من الكتب عن هذا التاريخ لانعكس إلا ومضات قصيرة متقطعة منه.

من المعروف أن هذا التاريخ الطويل لم يعثر عليه مكتوبًا في نصوص تعادل هذه الآلاف من السنين، بل أن معظمها يتم تجميعه منذ عقود كثيرة من الزمن استناداً لما قدمته وتقدمه الأرض بين الحين والآخر من رموز ونقوش وفنون وبقايا حياة حضارية. بعضه مثل للبيان، وبعضه محفوظ أو مخزون، وبعضه الآخر مجهول أو انذر تماماً وصار في ذمة الماضي، وهذا البعض المختلف والمتشتت هنا وهناك هو ما حاول الباحث «مازيل» تتبعه وتلمسه وتفحصه عن قرب على مدى هذه الآلاف الكثيرة من الكيلومترات.

ورغم أن التاريخ الفينيقي (الكتعاني) يبدو واضحاً للوهلة الأولى، فإن هذا الوضوح بالواقع يتبعه على الأكثر خلال الألف الأول قبل الميلاد، أما الألف الثاني وما بعده فلم تتحقق مخلفاته إلا بالقليل البسيط إذا قارناه مع ماقدمته مراكز حضارية أخرى في بلاد الشام والواقفين. فهناك سيل من المعلومات المكتوبة في أكdas ضخمة من الألواح الطينية، التي مكنت الباحثين من تكوين نظرية عامة واضحة لحقب عديدة قديمة من تاريخ تلك المراكز. أما التاريخ الفينيقي فلم يقدم في مراحله القديمة حتى الآن ما يمكن معه تكوين هيكل تاريخي واضح متكملاً التفاصيل.

ولكن التاريخ الفينيقي مع ذلك، ضمن إطاره العام، يمثل في نظر العالم اليوم (كما كان قدماً) وميضاً تلك الحضارة التي شملت حيوتها الجارفة كل العالم المعروف في حينه وتجاوزته حتى «أميركا»، الأمر الذي صار اليوم مسلماً به سواء وجدت نصوصاً صريحة واضحة أو لم توجد بعد.

وعندما يصف بعض الباحثين «بابل» بأنها كانت في عصر ازدهارها وقوتها «دماغ العالم القديم»، فسوف يجد القاريء في هذا الكتاب أن المراكز الفينيقية كانت بالنسبة لخوض البحر المتوسط أيضاً بمثابة القلب الذي ينشر الدم ويبعث الحياة.

إن المسألة الأكثر إرباكاً في كل بحث يتناول التاريخ القديم لأحدى مناطق الهلال الخصيب هي محاولة التوصل لمعرفة أصل الجماعات السكانية ما قبل العربية التي أقامت دولـاً حضارية هنا وهناك، وخاصة بالنسبة لحقب زمنية موغلة في القدم.

فمسألة: من أين جاء الفينيقيون (الكتعانيون)؟.. هي تماماً كمسألة: من أين جاء الأكاديون والآشوريون والسموريون والأموريون والفلسطينيون؟... إلى غير ذلك... هذه المسألة التي رافقت دائماً الدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأدنى القديم منذ قرابة الفرين من الزمن، وانتهت إلى التفسير الذي اصطلح عليه المستشرقون وصار من ثم نظرية متعارفاً عليها ومسلماً بها شكلياً وتم اعتمادها في المؤلفات العربية المعاصرة، إلا وهي قدوم هذه الجماعات من شبه الجزيرة العربية بشكل موجات هجرة كبيرة في فترات متباينة، الأمر الذي استندوا فيه إلى ظاهرتين: أولاهما أوجه الشبه القوية بين اللغات أو اللهجات التي انتشرت في

الهلال الخصيب وبين اللغة العربية. والثانية هي كون صحاري الجزيرة العربية في الأزمنة القديمة مفتوحة على بادية الهلال الخصيب ومنطقة تنقل حر واسع للقبائل البدوية، هذا التنقل الذي مازلنا نلحظه حتى اليوم، وكون أراضي الهلال الخصيب تبعت منذ أقدم الأزمنة بذلك الجاذبية للقبائل المشتقة وكانت عاملاً أساسياً في استقرارها.

ولكن على الرغم من أن تنقلات الجماعات البشرية هنا وهناك وهجراتها البعيدة أو القرية أمر معروف منذ أقدم الأزمنة، فإن نظرية مسمى بـ «موجات الهجرة السامية» من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب وبالشكل الذي تم تصوره لدى بعض المؤرخين، بقيت تفتقر إلى الأدلة المادية القاطعة.

وفي سياق هذه النظرية يرى الباحث «مازيل» في الفصل الأول من هذا الكتاب (وفترة من الفصل الثامن والثلاثين) أن الفينيقيين جاؤوا من قلب الجزيرة العربية، وعلى التحديد من قبائل «الحميريين». فيرى بذلك أن هذه التسمية أصل تلك وأن تسمية فينيقيين تعني تبعاً لذلك «الرجال الحمر».

ولكني أرى بهذا الصدد أنه لابد من تسجيل ملاحظات عديدة تضعف من شأن هذا الرأي أكتفي بأهمها:

○ المعروف حتى الآن عن جنوب الجزيرة العربية أنه حوالي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد فقدت مملكة السبعين أهميتها لتحول محلها مملكة الحميريين التي استمرت سيطرتها حوالي القرنين من الزمن، أي حتى أواخر القرن الأول الميلادي عندما انهار احتكارها للتجارة وهاجر الكثير من التجار الحميريين إلى الشمال حتى مناطق سيطرة الأنباط وساحل أفريقيا الشرقية. ولكن خلال القرن العشرين قبل الميلاد، الذي يجعله «مازيل» بداية للاستقرار الفينيقي (الحميري) على الساحل لم يكن أي شيء معروفاً عن قبائل الحميريين أو غيرهم في جنوب الجزيرة العربية.

○ ما هو معروف أن الجماعات السكانية عندما تهاجر إلى ناحية أخرى تحمل معها تسميتها ولا تأخذ تسمية أخرى. ومن الأمثلة القرية على ذلك قرية من قرية دمشق في العصر القديم كانت تسمى «الحميريون» نسبة لجماعة من الحميريان قدّمت واستوطنت هناك (و جاء ذكرها عند كل من ابن عساكر وباقوت الحموي. وقد خربت فيما بعد).

○ هناك أدلة كبيرة على أن الفينيقيين أنفسهم، سكان المدن الساحلية، كانوا في كل أدوار تاريخهم يعتبرون أنفسهم «كتعانيين» ولم يوجد ما يشير إلى أنهم وصفوا أنفسهم ولو مرة واحدة بالمحمرين في أي وقت كان، كما لم يقولوا عن أنفسهم «فينيقيين» لأن هذه التسمية لم تكن محلية ولم تستخدمنا محلياً بل كان الإغريق هم الذين أوجدوها واستخدموها وبعدهم الرومان. وحتى بعد زوال فرطاجة كان من بقى في أفريقيا من سكانها يدعون أنفسهم «كتعانيين».

○ إن لفظة «محمرين» أو «محمرين» رغم وجود المطر الثالثي (ح م ر) فيها ليس مؤكداً أنها تحمل مدلول «الشعب الأحمر» أو «الرجال الحمر» وبالتالي فإن إطلاق اليونان تسمية *Phoenikoi* يمعنى «الرجال الحمر» لا يعني بالضرورة أنهم أخذوها عن اسم «محمرين».

○ هناك مثال جدير بالذكر عن الاتباسات التي تحصل في التسميات ومدلولاتها: «قدمر» مدينة الباذية السورية سميت باليونانية ثم باللاتينية «بالميرا» Palmyra. وهذه التسمية هي اشتراق من الكلمة «*Palma*» التي تعني شجرة التخليل. أي أن «بالميرا» لها باليونانية مدلول «مدينة التمر أو التخليل». ولكن بالمقابل رغم أن الكلمة «قدمر» الآرامية تحتوي شكلياً على المزدوج (ت م ر) وتؤدي من حيث ظاهرها أن للتسمية علاقة بالتمر، فإن الحقيقة غير ذلك، والتسمية اليونانية «بالميرا» Palmyra ثبتت على التباس في المدلول ربما نتج عن كون التمر من جملة المواد التي كانت بين الصادرات الشدميرية إلى اليونان.

وعليه فمن المنطقي أن يكون إنجاز الكتعانيين بصياغ الأرجوان (الأحمر) واحتكارهم لسر إنتاجه قد دفع باليونان لإطلاق تسمية «فوئيكي» عليهم، الأمر الذي ذكره «مازيل» أيضاً بصورة ثانية رغم ميل أغلب المؤرخين للأخذ به.

○ وأخيراً إذا حاولنا أن نوافق بين ماورد في مطلع الكتاب من بداية لامتنار الفينيقيين في القرن العشرين قبل الميلاد وبين ما يطبع في الفصل الرابع (جيبل - حاضرة الكتابة) من أن أولى المنازل الحضرية في جيبل تعود لحوالي 3000 قبل الميلاد وأن فترة «العموريين» - القادمين من أقصى الصحراء السورية - ابتدأت فيها حوالي 2000 قبل الميلاد، أدركتنا حينذاك مدى الإرباك الذي يرافق مسألة البحث عن أصول الفينيقيين أو غيرهم.

إن الباحث الاختصاصي يستطيع استطاع استبعاد الأوابد الصامتة والخلفات الفنية

وغيرها، ليكون من ذلك إطاراً تاريخياً حضارياً كما كان الحال هنا مع «جان مازيل»، ولكنه مهما تعمق في عمله فلن يستطيع استطاع المجموعات البشرية التي تفصلها عنها عدة آلاف من السنين جعلها تتحدث عن أصولها. وحسينا من حديثها ما ينطبق به مخلفاتها وما حفظه عنها الآخرون.

تشرين الأول 1997

د. عبد الله الحلو

\* توضيح:

للتمييز بين حواشی المؤلف و ملاحظات الحقق أبقي على  
ترقيم حواشی المؤلف كما جاءت في الأصل. بينما  
استخدمت نجمة صغيرة للإشارة إلى ملاحظات الحقق

## تمهيد

حوالي القرن العشرين قبل الميلاد بدأ بالاستقرار في المناطق الساحلية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط شعب صغير كان له شأن عظيم: إنهم الفينيقيون، الذين يلقبون أيضاً بـ «الرجال الحمر».

منذ ذلك العصر ابتكرروا وطوروا تدريجياً شكلاً جديداً من أشكال الحضارة قائماً على التوسع الإسلامي والمبادلات التجارية والصناعة والإبحار. إنهم الذين ابتكرروا أيجديتنا الحديثة المؤلفة من الاثنين وعشرين حرفاً. وبعد هذا الاكتشاف أكثر أهمية بالنسبة لذلك العصر من اكتشافنا اليوم للعقل الإلكتروني.

وينسب إليهم أيضاً اختراع الزجاج واللون الأرجواني والنظريات الذرية. وهم الذين أسسوا مدنًا رائعة وبنوا معابد. وهم أيضاً من قدس الشمس والأوثلة الكونية المشتملة بالرثى عشرنوت. والمعتقد أن يكونوا قد عرفوا آخر المطلعين على سرّ عالم تصعب علينا الإحاطة به تماماً. وقد سُتّي مؤسسو فينيقا القديمة الذين استقروا على سواحل لبنان الحالي فينيقى الشرق، وذلك لتمييزهم عن فينيقى الغرب الذين سكروا في شمالي أفريقيا وأسسوا قرطاجة منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

لقد سعيت خلال ست سنوات كاملة وراء هؤلاء الغزاة الأوائل للبحر متبعاً أثراً هم على مدى القرن العشرين فوق البر والبحر على دروب القصدير والذهب حيث حيث عثر شيئاً فشيئاً على مواثيقهما.

خلال ست سنوات لم أكتفي بالتنقيب تحت التربة وحسب وإنما تابعت عملي هنا بشكل تحريرات واسعة في ستة عشر بلداً من العالم، تعرفت على جزرها وأشباه جزرها، شعرت تحت قدمي برمائ شواطئها واهتدت إلى جدران معابدها. سعيت خلف الشمس حتى بلغت قصدير البحار الباردة وذهب البحار الساخنة. وعندما فقط توضحت الصورة الحقيقة المتعلقة بموقع أو أداة أو نص أو بالغموض العجيب للأساطير.

باريس 25 تشرين الثاني 1967  
المؤلف

### **ملاحظة خاصة تتعلق بهذا العمل الجديد:**

قبل نشر هذا الكتاب حظيיתי بأحسن تكرييم عندما تلقيت على هذا العمل وساماً لم أكن أعتقد بأنني أستحقه، إنها جائزة سعيد عقل التي كانت تمنح دوريأً في لبنان كمكافأة على العمل أو البحث الذي يسهم في تقدم المعرفة المتعلقة بحضارة الفينيقيين. وفي الواقع كانت مكافأتي الأجمل هي مقابلة سعيد عقل، ذلك العالم بالأداب القدية، وذلك الشاعر الذي يحيي أكثر الكنائس تحمساً لعلم الفينيقيين.

باريس 25 حزيران 1968

المؤلف

## مدخل مشكلة المصادر

منذ بداية هذا العمل واجهت مشكلة المصادر، إذ أنه لا شيء أخطر من أن نعتمد نظريات الكتاب الذين سأسوهم «من العصر الرومانسي».

لقد مرّ زمان في منتصف القرن الأخير، حيث كانت التصورات الرومانسية تضع الفينيقيين في كل مكان، فقد اعتبر النوراج *«Les Nouraghes»* في سardinia فينيقيين، والبربر في أفريقيا الشمالية كانوا فينيقيين، وجزيرة مالطا فينيقية، والأمازون كان بلد ال «بونت Point» وجزر الأنتيل كانت كلها أسماء فينيقية، ومدينة *«تور Tours»* كانت مرتبطة بروابط خاصة مع مدينة صور، كما أن ال «بيغودين Les Bigoudens» كان يمكّن أن يكونوا شرقين، والبعض يرى أن البنادقة كانت لهم روابط قرّبى مع الفينيقيين.

كما وجدت في ذلك الوقت نزعة إلى إعطاء عمر أكبر للفينيقيين. فكان الكتاب يُرجعون تاريخهم إلى زمن يبدأ في بعض الأحيان بالألف الرابع قبل الميلاد. أما بالنسبة للديانة فقد كانت عيونهم تبرق وخيالهم يتّهج ب مجرد استحضار عبادات الخصب التي كانت تمارس في معابد عشتروت وألاف الهياكل التي كانت تقدم إلى كاهنات معبد بعل. زد على ذلك، عند ذكر رجل أو امرأة استسلما للبغاء، ألم يكن يقال: عكف على عبادة بعل؟... من الواضح إذاً أن البغاء المقدس كان يمارس في المعابد الفينيقية ومن المحتمل أيضاً أن طقوساً جماعية بهذه الصدد كانت تمارس حسب تغيرات الفصول لاستقرار النعم السماوية والخصوصية للأرض.

إن الفكرة الخاطئة التي كانت مأخوذه عن الشرق في القرن الماضي لم يكن يفهم من خلالها إلا أن مسألة الجنس ومسألة الروح مشتركتان بشكل طبيعي تماماً ودون مواربة.

والرواية الغنائية الأثرية الكبيرة *«سalambo Salammbo»* التي وضعها *«فلوبير Flaubert»* في سنة 1862 تمثل نقطة الأوج في هذه التصورات الرومانسية عن العصر القديم، وقد اعتبرت تجويجاً لذلك العصر.

ولم يبدأ علم الآثار بالقاء بعض الأضواء الأكثر دقة على موضوع الفينيقيين إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وبين حين والأخر كانت تخرج من القبور المكتشفة حديثاً وبقايا المعابد بعض التحف الفنية وأبرز المصادر عن الفينيقيين هي:

### ● المكتبات الحجرية:

لقد وجدت نصب عديدة، نذرية أو تذكارية، وكتابات محفورة على التوابيت الحجرية صنعتها أيدي ماهرة خبيرة، وهذا كله يندو وكأنه مكتبات حقيقة من المخزن تعوضنا عن غياب الأدب الفينيقي الحقيقي. وتعتبر مصادر ثمينة من أجل دراسة الأبجدية الشهيرة المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً، وهي أصل لكل أبجديات حوض البحر الأبيض المتوسط.

وتلك النقوش لها الفضل في تسليط الضوء وتقدم المعلومات الحقيقية عن بعض الشؤون الدينية أو غيرها. مثال ذلك تلك اللوحة البرونزية التي وجدت في «إيسيرا Ibiza» والتي تحمل النص التالي:

«لقد قام بصنع وترميم ونذر هذا الحافظ الحجري الكاهن عبد إشمون بن أزرو بعل من أجل سيدتنا، من أجل الربة تعنيت القدرة، ومن أجل الإله جاد. وكان هو نفسه مبدع ذلك البناء وعلى نفقته...»

### ● الكتاب الإغريق واللاتين:

تعتبر آثار المؤرخين والمخلفات والشعراء الإغريق والروماني مصدر آخر في معلوماتنا عن الفينيقيين، إلا أن هذا المصدر في بعض الحالات يجب استخدامه بتحفظ. وبهذا الصدد يجب ألا ننسى أن الإغريق غالباً ما كانوا على خلاف مع فينيقيي الشرق. أما فينيقيو الغرب فقد ظلت روما في صراع معهم حتى سقوط قرطاجنة نهائياً. إن كثيراً من الكتب التاريخية المرجوحة بين أيدينا، لا بل أغلبها يؤيد رأي الكتاب الذين ينتهيون إلى هذه المتتصرين.

لم يكتب «بلوتارك» في حديثه عن القرطاجيين:

«إنه شعب متسلط، ذليل بلاشك أمام المتتصرين، وطاغ مع المهزومين، ونذل في الموقف الخبيث»..؟

ولكن «بلوتارك» الذي لم يستطع تكوين حصيلة واسعة كان على كل حال شديد

الاهتمام بعملق الرومان الذين نال حظوة عندهم. وقد ارتكب خطأً تاريخياً إذ أصدر حكماً شاملًا على شعب بكماله منطلقًا من مراقبة مجموعة محدودة أرغمت بشكل مأساوي على الصراع ضد إرادتها.

### ● الكتاب المقدس:

يعتبر العهد القديم من الكتاب المقدس مصدراً آخر ذو قيمة أرفع من أجل الإحاطة بموضوع الفينيقيين. ويتجلّى ذلك بشكل خاص في سفر الملوك ثم سفر حزقيال. ترجع نبوءات حزقيال الأولى إلى سنة 593 قبل الميلاد. بعد ذلك مباشرة نشعر من خلال نصوصه بأن احتلال أورشليم من قبل نبوخذنصر سنة 587 ومراة النبي إلى بابل لهما علاقة ظاهرة بهيجان نبوءاته ضد مدينة صور وحقده عليها.

### ● الأساتذة المعاصرون:

وأخيراً هناك أهمية كبيرة لأعمال الأساتذة المعاصرين الذين نذروا حياتهم بكمالها للدراسة الواقعية الدقيقة لهذه الملحقة أو تلك من الحضارة الفينيقية. وبهذا الصدد لابد من الإشادة بذلك بعضهم مثل: الأمير موريس شهاب (Donald Harden) و«Maurice Dunand» و«Santa Olalla» و«Bernabo Brea» وغيرهم. كما يجب أن نخص بالتقدير ذلك الفريق الشاب الامم من علماء الآثار التونسيين الذي قام بتشكيله «Gilbert Charles Picard». والكل عازمون على تحديد شباب الفينيقيين ووضعهم في موضع أقرب ما يكون منا، كما كان يقول في عام 1964 الأستاذ النابغة «ساباتينو موسكاني (Sabatino Moscati) في مؤتمر باليرمو Palerme:

إن فترة الأوج في الحضارة الفينيقية يمكن تحديدها مع بدايات عصر الحديد حوالي 1000 قبل الميلاد، أما انحطاطها فيبدأ في زمن غزوة الاسكندر الكبير بعد 700 سنة...».

إلى جانب الأساتذة الكبار الذين كانوا دائمًا متعلّقين في كتاباتهم، ولكن في بعض الأحيان أكثر تحرّراً في تصريحاتهم، يجب الإشارة بذلك عدد من المثقفين الهواة الذين يتصفون بالحماس في هذا المجال. فلقد أخذوا بيدي إلى بعض الواقع وأطلعواني على ملفات سرية وحققت بحماسهم هذا فائدة لا يستهان بها.



## تسلسل زمني عام

### المراحل الزمنية الكبرى - السيطرة الشرقية على البحار

قبل الميلاد -

5000	الجماعات البشرية الأولى في جبيل.
2900 - 3000	في جبيل، أولى المنازل الحضرية.
2900	أرسل الملك المصري سنفرو (آخر ملوك الأسرة الثالثة) حملة بحرية لجلب خشب الأرز من لبنان.
2750	تأسيس صور ومعيد ملقارب (كما يقول فيكتور بيرارد).
2100 - 2000	غزو جبيل من قبل العموريين الذين قدموا من تخوم الصحراء السورية.
2000	تأسيس مملكة مينوس في جزيرة كريت وبناء قصور كل من كنوسوس وفاليستوس.
1750	في كريت، دمار قصور مينوس إثر هزة أرضية عنيفة.
1580 - 1725	إعادة البناء في كريت وانطلاقه عصر التوسع الكريتي الكبير.
1400	نهاية السيطرة الكريتية في الخوض الشرقي للبحر المتوسط، الدمار الثاني لقصور كносوس وفاليستوس.
1250	في جبيل وفي عهد الملك أحيرام تطورت وترسخت الأبجدية البسيطة المؤلفة من 22 حرفاً.
1200	تأسيس الصوريين لمدينة «عثينا Otika» بالقرب من خليج تونس.
1200	التأسيس المفترض لمملكة ترشيش (حسب رأي - Schulten -).
	غزو مايسى بشعوب البحر للساحل الفينيقي والصوريون يستكشفون سواحل البحر المتوسط.
1100	الصوريون يؤسسون مدينة «غadir Gadir» التي سميت قادس في المصر الروماني و «Cadiz» من قبل الأسبان في هذا العصر. ابتداء

الرحلات المبحطية (الأوقيانوسية) للصوريين.	
حسب رواية التوارية، تبادل الصوريون التجارة مع مملكة ترشيش	970
وحملت سفنهم الذهب إلى الملك سليمان صهر حيرام ملك صور.	
عهد حيرام ملك صور العظيم.	936 - 970
أسس الصيدونيون المركز المسي (كمبه Kambe) في خليج تونس.	821
تأسيس قرطاجة بجوار «كمبه» و «عنيقا» من قبل المهاجرين	814
الصوريين.	

## الأحداث الرئيسية في بقية العالم

### قبل الميلاد -

تقريباً: ابتكر علماء الفلك المصريون تقويم السنة الشمسية.	4200
بناء الأهرامات المصرية الكبيرة. اكتشاف معدن البرونز.	2750
الغرب الأفرو - أوروبي: بناء الآثار المغليثية الكبيرة.	2500
تقريباً: هجرة إبراهام إلى فلسطين - بدء تاريخ الآباء المؤسسين في التوراة.	2100
تأسيس مملكة بابل.	2057
حمورابي ملك بابل.	1955
إخراج الهكسوس من مصر.	1580
نفرتيتي.	1370
السيكوليون (قبيلة من إيطاليا القارية) يستقرُون في صقلية ويشكلُون أول استيطان فيها، وخاصة في جهتها الشرقية.	1300
رمسيس الثاني.	1270
بدء عصر الحديد.	1250
حرب طروادة.	1215
موت داود ملك العبرانيين. خلفه ابنه سليمان.	1020
عصر الحديد يبدأ في أوروبا الوسطى والشمالية.	1000
تشييد معبد أورشليم.	960
آشور بانيبال، الملك الآشوري - الكلداني.	882
ظهور الإغريق على السواحل الشرقية للبحر المتوسط. الكلتيون يدخلون الأدوات والأسلحة الحديدية إلى إسبانيا حيث ابتدأ عصرهم الذهبي.	800
سيطرة الإغريق على مضيق مسينا وتراجع الفينيقيين إلى غرب صقلية حيث وجدوا هناك الإيليميين واندمجوا معهم.	720

الملاحة الفينيقية تشمل كل حوض البحر المتوسط.	700
وقوع صور وصيدا تحت السيادة الآشورية.	681
تأسیس القرطاجيين لمدينة إبيزا.	654
حسب افتراض «أفيتوس Aviarius» وصل بحارة ترشيش في عهد الملك «أرجنتونيوس» (543 - 654) إلى بريطانيا للبحث عن القصباء.	600
بداية حصار صور من قبل نبوخذ نصر الملك البابلي الذي هدم المدينة سنة 573. بعدها استلمت صيدون مقايد التفود الفينيقي.	586
بدأت قرطاجة الحصار البحري لملكة ترشيش مغلقة مضيق جبل طارق بوجه سفنها ومانعة نقل المعادن عبر حوض المتوسط الشرقي والأوسط - رحلة الأميرال القرطاجي هملكون نحو الشمال باختصار عن طريق المعادن الذي تكسّم عليه الترشيشيون بغيرة شديدة.	550
استيلاء قوروش الملك الفارسي على بابل. بدء عصر الإزدهار الكبير بالنسبة للموانئ الفينيقية في عهد السيطرة الفارسية.	539
معركة «علاليا» البحرية عند الشواطئ الكورسيكية. انتصار كبير للقرطاجيين الذين تحالفوا مع الإتروسيين ضد الفوكيين الذي فقدوا نفوذهم على جزيرتي كورسيكا وسردينيا.	535
نجاح قرطاجة في السيطرة على مملكة ترشيش. أول معاهدة رومانية - قرطاجية حصل البوتيون بوجبها على اعتراف الرومان بحقهم في الملاحة في غرب البحر المتوسط انطلاقاً من رأس «فارينا».	509
معركة «هيمير Himere» أو «ترميني Termini» في صقلية وملاحة «هيرون Heron» و «جيلون Geion» لجيش هاملقار الذي حاول احتلال الجزيرة مستفيداً من صراع الفرس في اليونان.	480
تقريباً: رحلة حنون القرطاجي البحرية.	450
المعاهدة الرومانية - القرطاجية الثانية. زادت روما من قوتها البحرية وأصبح لسفتها الحق في الإبحار حتى ترشيش.	348
حصار وتدمير صور من قبل الإسكندر الكبير ونهب المدن الفينيقية إلى مدن هلنستية (يونانية).	331 - 332
أول ألعاب أولمبية.	776

الزمن المتفق عليه لتأسيس روما.	754
تصريح يوشيا ملك اليهود.	639
سقوط نينوى عاصمة الآشوريين في يد البابليين.	612
تأسيس مرسيليا من قبل الفوكيين (حسب زعم حرققال).	600
تأسيس <b>(Mainake)</b> من قبلهم أيضاً (بين قادس ومضيق جبل طارق).	
أقوال حرققال عن نبوته الأولى.	593
استيلاء نبوخذ نصر على أورشليم ونفي اليهود إلى بابل.	587
مرسوم <b>(إكباتانا)</b> الذي سمح قوروش بمجده بعودة اليهود المتنفرين في بابل منذ 49 عاماً. ويعتبر البعض هذا التاريخ بمثابة تاريخ لتأسيس الوطن اليهودي.	538
بداية الفترة التي سميت: عصر <b>(بريكليس)</b> .	500
معركة سلاميس.	480
تأسيس مدينة <b>(بيري Piree)</b> في اليونان.	440
هيرودوت (480 - 435).	
بناء قنال رودس العظيم كذكرى لانتصار الروذسيين على <b>(ديمتريوس)</b> ابن <b>(أنطيجونوس)</b> ملك سوريا، الذي حاصر المدينة سنة كاملة.	304
تأسيس قرطاجنة على يد هسلرو بعل.	300
بداية الحرب البونية الأولى.	264
أغلقت قرطاجنة مضيق أعمدة هرقل كلياً.	260
نهاية الحرب البونية الأولى - تخلت قرطاجنة للروماني عن صقلية وسردينيا - نهاية السيطرة القرطاجية في الحوض الأوسط للبحر المتوسط.	241
معاهدة الإيبر بين قرطاجنة وروما التي حدّدت توسيع النفوذ الروماني جنوباً حتى النهر المذكور <b>(الإيبر)</b> .	225
استيلاء هانيا بعل على <b>(سانغونت)</b> المستعمرة الفوكية الهامة التي تحالفت مع الرومان - تحركت روما من جديد معلنة الحرب البونية الثانية.	219

الحرب البوانية الثانية - اجتياز هانيبيل لجبال البرينيه والألب.	218
هانيبيل يتتصر في معركة «كان Cannes» في شبه جزيرة إيطاليا - ويتتصر في معارك «تيسين Tessin» ولاتريبيا La Trebie و«تراسيمين Trasimene».	216
أشار «ناكيتوس Tacitus» إلى Hibera كمدينة مخلصة لقرطاجة.	217
خزو قادس من قبل الرومان.	206
معركة زاما - خسر فيها هانيبيل المعركة مع سبيون الأفريقي أمام قرطاجة.	207
استسلام قرطاجة للرومان دون شرط - نهاية الحرب البوانية الثانية.	201
نهضة جديدة في قرطاجة.	150
الحرب البوانية الثالثة التي أثارتها روما.	149
سبيون يغزو قرطاجة ويدمرها. السكان الباقون على قيد الحياة يرحلون عن أرضهم. هانيبيل يرحل عن قرطاجة باتجاه سوريا.	147
نهاية السيطرة الشرقية (الفييقية) على غربى حوض البحر المتوسط.	
تأسيس قرطاجة الرومانية من «كايوس سمبرونيوس غراكوس Caius Sempronius Gracehus».	125
دمرت روما «لياري Lipari» بوحشية، وذلك انتقاماً من سكانها الذين تصالفوا مع القرطاجيين في الحرب البوانية الأولى.	251
انتصر يوليوس قيصر في موقعه «موربيهان Morbihan» وأخضع الفينيسيين.	56

## الجزء الأول

### **فينيقيتو الشرق**

- مخترعون عظام
- يتأذوا معابد
- وأول من قهر البحر



## الفصل الأول

### ● أصول فينيقي الشرق:

إن البحث عن أصول فينيقي الشرق يتعلّق بعلم الآثار بمقدار ما يتعلّق بالاسطورة. هذا الشعب المقدام الذي استقر على سواحل لبنان الحالي لم يثبت أن أثبتت مزایاه المتفوقة خلال الألف الثاني قبل الميلاد وشرع بالغزو السلمي لبحار العالم بين القرنين الثالث عشر والتاسع قبل الميلاد. لكن من كان بالفعل أولئك الرجال الذين كانوا يزعمون بأنهم «الرجال الحمر»؟...

كان الإغريق يشكل خاص هم الذين أطلقوا عليهم تسمية «Phoenikis» التي كان لها عندهم مدلول «الرجال الحمر».

وبما أن الفينيقيين كانوا خلال ذلك الزمن قد ابتكرروا الصباغ الأرجواني فقد اعتقد بعض الباحثين بأن هذا الاسم قد أعطى لهم لتخليد صناعة قومية افترنت بهم.

### ● الرجال الحمر:

في الواقع كان لهذه التسمية أصل أقدم من ذلك بكثير. إذ كانت الأسطورة تقول بأنه في الألف الثاني قبل الميلاد جاء ليستقر فوق رقعة الأرض الضيق بين البحر الأبيض المتوسط وجبال لبنان شعب قادم من شبه الجزيرة العربية. وهذا الشعب كان يدعى بـ«الشعب الأحمر» أو الحميريون. إننا نجد بالواقع في لفظتي «جثثير وجمثثيرين» الجذر الثلاثي (ح م ر) الذي مازال في أيامنا هذه يعني في العربية الإحرمار.

وليس مستبعداً أن يكون هؤلاء الحميريون قد أعطوا اسمهم أيضاً للبحر الأحمر الذي كانوا يقصدونه والذي لا بد أنهم قد عبروه أثناء رحلتهم الطويلة إلى الغرب.

وقد كان الحميريون يشكلون في العصر القديم من القرن العشرين قبل الميلاد وحتى القرن الخامس الميلادي أشهر تكتل عرقي وسياسي في جنوب شبه الجزيرة العربية. وكانوا يحتلون حضرة مملكة الحالية. وكانت أراضيهم تمتد قديماً من عدن حتى مسقط. هذا ويدو أن مملكة حمير كانت لها علاقات قرابة وثيقة مع مملكة سبا. ومن المهم أن هاتين المملكتين قد شكلتا خلال عصوب طويلة مملكة واحدة. وإن عدد الهدايا التي

تذكر تصوص التوارة أن ملكة سباً قدمتها إلى سليمان كافية لإعطاء فكرة عن ثراء هذه المملكة. فكان من ذلك: مئة وعشرون وزنة من الذهب وأطياط كثيرة جداً وحجارة كريمة<sup>(١)</sup>. ولابد أن هذه الهدايا من الطيبوب قد اشتغلت أيضاً على البخور الضروري للمعابد ولخدمة البيوت الملكية. ومن الجدير بالذكر دائماً أن سواحل حضرموت حملت في تلك الأزمنة اسم «سواحل البخور».

إن لغة الحميريين، التي تدعى أيضاً «العربية الجنوبية القديمة» تبدو وكأنها اللغة الأم للفينيقيين. والكتابات التذكارية التي وجدت في النقوش الحميرية لها بعض الصلات مع الكتابات الفينيقية والعربية.

كان المصريون القدماء يطلقون على مملكة حمير اسم «بلاد البون». وإذا رجعنا إلى قصة «ماسيرو Maspero»<sup>(٢)</sup> وجدنا أن هناك ألفاظاً مثل «بون» أو «بوانتي» أو «بوني» وكل هذه الكلمات تعني أيضاً الفينيقيين، كما تعني وبالتالي البوئيين أي سكان قرطاجة. زد على ذلك أن الحميريين قد سبقوا الفينيقيين في إقامة علاقات تجارية، قبل استقرارهم على الساحل اللبناني، مع الهند وشبه الجزيرة العربية وأفريقيا. كما سبقوهم في اكتشافهم لمنطقة «أوفير» العاصفة، والتي لم ينجح أحد حتى الآن بالتحقق من هويتها أو موقعها. وأخيراً ببناء منازل عالية مؤلفة من عدة طوابق كالتي سرناها فيما بعد في صور.

إن المنطقة التي استقروا فيها، هذه الرقعة الساحلية، أو هذا المربع بين البحر وجبل لبنان، كانت فيما قبل ذلك قد استوطنتها قبائل كنعانية متحضرية. وقد امتازت هذه القبائل بفنونها الزراعية. وقد تجعلنا تصوص التوارة تحلق في الخيال أحياناً من خلال وصفها لبلاد كنعان، تلك البلاد التي تشتمل على أعلى سهل السهول الخصبة المرتفعة والمنخفضة للبنان اليوم.

وهكذا نشأت سلالة جديدة شيئاً فشيئاً وأقامت في بقاع مختلفة من الساحل مراكز حضارية نشيطة جداً، هي علام حقيقة للإتحاد بين التجارة الساحلية والاستثمار الزراعي. شعب جديد ذو خصائص متميزة ورث عقلية الحميريين المغامرة وصلابة المزارعين المحننين، واشتهر باسم الشعب الفينيقي<sup>(٣)</sup>.

(١): سفر الملوك الأول: الإصلاح العاشر.

(٢): قصة قديمة عن شعوب الشرق.

(٣): سبق أن أشرت بالتفصيل في تقديم الكتاب إلى التباس الصعوبة وال نقاط البارزة في هذه المشكلة - الحق -

## الفصل الثاني الحياة الدينية عند الفينيقيين

من المؤسف أنه لم يبق من المدن الفينيقية القديمة آثار مرئية جديرة بالذكر، حيث أضاعت معالمها في كل مكان تقريرياً الطبقات الأثرية الهلنستية والبيزنطية وبقايا قصور الصليبيين والأسوار العربية، باستثناء أوغاريت على ساحل سوريا الشمالي، حيث عثر البروفسور شيفر Schaeffer على أشياء مدهشة وبالخصوص تماثيل صغيرة لبعض الآلهة، أجمل ما فيها ذلك التمثال الذي يرمز إلى الإله «إيل» وعلى رأسه تاج مزين بأوراق من ذهب.

### ● الآلهة:

انتشر من أوغاريت على طول الساحل الفينيقي شكل من أشكال الديانات قائم على فكرة الخصوبة والتعلق الروحي بالشمس وعبادة الطواهر الطبيعية المخارة عن سيطرة الإنسان.

لقد ساعدت عمليات التنقيب في أوغاريت في الكشف عن ألواحها الفخارية المكتوبة بالرموز الأوغاريتية التي هي مرحلة انتقالية بين المسماوية القديمة والأبجدية الفينيقية المبسطة التي استخدمت اعتباراً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

وهذه ألواح الفخارية التي تعود لأواسط الألف الثاني قبل الميلاد قدمت معلومات عن الديانة الكنعانية التي عرفت آلهة عديدة أبرزها «إيل»، كبير الآلهة ثم «شمش» إله الشمس و«عليان بعل» إله الحياة و«موت» إله الموت و«رشف» إله الجنود، والأصح إله البرق، والإلهة العظيمة «عشتروت».

انتقلت ديانة وكتابة أوغاريت حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى بقية المدن الساحلية الفينيقية التي اعتمدتتها بعد أن بسطتها قليلاً، فقد اختصرت رموز الكتابة من ستة وثلاثين إلى двانين وعشرين رمزاً.

كما حلَّ تدريجياً محل تلك الآلهة الكثيرة ثالوث أعظم يضم كلاً من «إيل» الإله الأكبر و«بعل» الذي هو السيد و«بسلة» التي هي عشتروت، بالإضافة إلى إله شاب هو مبدأ الحياة والعمل يدعى في أوغاريت «عليان» وكانت له تسميات أخرى، إذ دعي

«ملقارب» في صور و «أشمون» في صيدا و «أدونيس» في جبيل. وكان «ملقارب» و «إشمون» ترمز إليهما بشخص محارب متصرّ أو بخار عظيم. وإننا لنجد في كلمة «ملقارب» الجنر (م ل ك) الذي نجده في الكلمة ملك والذي يعني الرئيس الأعلى<sup>(\*)</sup>. ألم يعبر ملقارب هو الرئيس الأعلى المسير لرحلات الفينيقيين البحريّة الكبيرة والرئيس الروحي لتلك الشركات التي كانت تتّوسع بتجارتها من صور عبر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي؟... أما أدونيس الذي هو تمجيد آخر من هذا الثالوث، فنقول الأسطورة أنه ولد يوم مسيرة في الجبال المتّصبة فوق جبيل في أفقا بالقرب من الينابيع المتفجرة من ذلك الشلال الكبير الذي مازال يحمل اسمه. ويقال أنه ذهب إلى الصيد بالرغم من تحذيرات عشيقته الإلهية «أفروديت» وأصيب بجرح قاتل عندما هاجمه خنزير بري مرق له فخذه وظل دمه ينزف وهو ممدّ على بساط من العشب الطري، ثم تسرب دمه في الأزهار - كما تعبّر الأسطورة - وهكذا نبت شفائق النعمان التي تفتح بكثرة خلال الربيع في الريف اللبناني.

أما بالنسبة لنهر أدونيس الذي يصب في البحر إلى الجنوب قليلاً من جبيل ففي كل سنة في ذلك الوقت تسيل مياهه حمراء، «إن دم أدونيس»... هكذا يقول الفلاحون المستّون.

وقد وجد «موريس دونان Maurice Dunand» العبارات المناسبة لتعريف قوة هذا الإعتقاد إذ كتب:

«.. كان القدر يتحكم بحياة الإله الشاب كما يتحكم بحياة الناس بالرغم من قوانين السماء وجهنم. إن دم أدونيس لم يكن سوى اليابس المتّدفق للسعادة التي تتخلل كل الأشياء، حياة معززة ومتّجدة للطبيعة..»

أقام الفينيقيون إذا في كل من صور وصيدون وجبيل عبادة بعل وعشتروت بالإضافة إلى ألوهية ثلاثة تتفق وطموحاتهم في كل مدينة وهذه الآلهة كانت تمثل ثلاثة قوى: الشمس والقمر والعقيدة أو المبدأ الإلهي في عمل الناس. فهي إذا تشكل الثالوث الأعظم. ومن الجدير باللحظة أن قبرص القريبة من هذه المراكز التجارية الفينيقية حلّ فيها عبادة أفروديت محل عبادة عشتروت. وربما كانت أفروديت في الواقع ترجمة يونانية لاسم «أشتوري أو أفتوري» الذي يعني أيضاً

(\*) الأصح هو أن «ملقارب» لفظة ناتجة عن دمج الكلمتين «ملك» و«قرت» أي: مدينة، بحيث أن المقصود بالتركيب هو: ملك أو سيد المدينة - المحقق -

عشتروت. وقد انتقلت عشتروت / أفرو狄ت، هذه الإلهة القمرية وربة الخصب، بما لا يقبل الجدل إلى العالم الإغريقي بواسطة الفينيقيين. وكانت أشهر معابدها في قبرص وفي جزيرة Kythera (إريخ) وعلى جبل Eryx وكانت هذه المعابد مقصودة بكثرة وعرفت بمارسة البغاء المقدس حيث كانت أكثر كاهناتها تستقبل لهذه الغاية البحارة والمسافرين الذين يتبرعون بمبالغ كبيرة لشئون العبادة. وقد كانت لعبادة أفرو狄ت شهرة واسعة في المدن الواقعة على سواحل البحر المتوسط وبالخصوص في «كورنث Corinthe» حيث يروى أن ما يقارب ألف سجينًا كان ينتظرون الحجاج.

ومن ثم تطورت العبادة في العصر الروماني حيث عبد الرومان عشتروت أو بالأحرى أفرو狄ت تحت إسم «فينوس Venus» واعتبرت بفضل ولدتها «إيتاس Enee» بثانية أم للشعب الروماني.

بالرغم من سيادة إله الشمس الأكبر «بعل» فإننا سنكتشف الأهمية التي أغارها الفينيقيون دائمًا للإلهة العظيمة التي انتشرت عبادتها في كل أنحاء البحر المتوسط مُدخلة فيما بعد إلى قرطاجنة الرببة البوئية (تعنيت) الشهيره ومهدية السبيل فيما بعد لظهور الديانة المسيحية، ديانة مريم. وفيما عدا الثالوث الأعظم كانت في فينيقيا آلة صغرى أو عبادات محلية لأنعرف عنها إلا القليل. ومنذ ذكرها في سياق البحث عندما نصبح على طرق الذهب والقصدير بحثاً عن المنشآت الفينيقية القدية.

### ● العبادة:

بالنسبة للديانة الفينيقية، أو الكنعانية عموماً، كان جوهر العبادات يعكس اهتماماتهم الزراعية. إذ كانوا يتولون إلى الآلهة كي تخدمهم دائمًا بالخiz والماء والصوف والكتان والزيت واللحم واللحم وال酥. فكان إذاً لابد من وجود أعياد عندهم تتفق مع تغيرات الفصول والحياة الزراعية كمواسم الزرع والربيع والخصاد والبيع وقطف الشمار.

وكانت عبادة الآلهة تقام في الهواء الطلق أو في المعابد. وقد وجدت عندهم مذابح بسيطة أقيمت في الأماكن المرتفعة وبعض الواقع المختارة لجمالها الطبيعي أو تميزها بجاذبية روحية قوية، مكرسة خصيصاً لتقديم القرابين للإله بعل أو غيره من الآلهة.

وقد عثر في أوغاريت على دعائم معبد كان للإله بعل يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. كما عثر في جبيل على بقايا معبد يدعى «معبد المسلاط». أما بالنسبة لمعبد صور الشهير، الذي لم يبق منه شيء، فمن السهل أن نتصور مخططه استناداً لما هو معروف من أن مهندسين معماريين ومقاولين وبنائين من صور هم الذين قاموا بإنشاء معبد أورشليم الغني عن التعريف.

وكان يقوم على خدمة المعابد كهنة كرسوا حياتهم للألهة تحت إمرة كاهن أكبر، ويقال لهم بشكل عام «قديشيم» - أي قديسون - وكانوا يرتدون سترات بيضاء طويلاً دون حزام، وما زلنا في هذا العصر نشاهد شيئاً لها يدعى «الجبة».

### ● القرابين أو الأضاحي:

استمر تقديم القرابين عند الفينيقيين زمناً طويلاً. وُعرفت عندهم بشكل خاص التضحية بالأطفال. وكانت تقام شعائرها غالباً خارج المعابد. وبحسب الرسم، وخاصة خلال القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، أخذ الفينيقيون تدريجياً يستعيضون عن التضحية بالأطفال بتقديم قرابين من الحيوانات كأكباش الغنم والطيور وغيرها.

وكان المضحي يتبع تقليداً معيناً، إذ يتقدم مع الحيوان المضحي به واضعاً يديه فوق الرأس كتعبير عن طلب البركة.

لقد كانت هناك علاقة بين أشكال الاعتقادات ومبدأ تقديم القرابين، فالمضحي يشعر بأنه قد تخلص من ذنبه ونقائه التي ذهبت في دم ولحم الضحية، ويعتقد أن الدم يصله مع القداسة وبذلك يضاعف الكثير من ثمرات هذه الصلة. هذا وإن مفهوم التقدمات من الأغذية أحياناً للألهة يتطابق إلى حد ما مع الاعتقادات الصوفية بشكل واضح.

وإن كانت الأضاحي من الحيوانات لاتصلح فعلياً لتعبد الألهة، فهي تسهم إسهاماً كبيراً في تأمين الحاجات الغذائية لأولئك الكهنة في المعابد.

أما الظروف التي كانت تقدم فيها الضحايا فلم تكن تختلف عند الفينيقيين إلا نادراً عن تلك الشروط التي جاءت عند العبريين محددة في سفر اللاويين كما يلي:

- ذبائح أو تضحيات العبادة.

- ذيائع أو تصحيات المغفرة أو العفو عن الذنب.
- ثم تصحيات الشكر للآلهة.

### ● معتقدات الموت:

كان الموت محاطاً بطقوس خاصة. ويبيّن من كل المقابر الكبيرة الفينيقية أو المتأثرة بالفينيقيين أن الأموات كانوا يعاملون بكثير من التقدير.

وكان الفينيقيون (وشكل عام الكنعانيون) يعتقدون بأن الجسد لا تسكته روح فحسب، وإنما يرون أن هناك «نفس» أي نفس (مادية أو نباتية) وهناك «روح»<sup>(٥)</sup> وأن المتوفى لا يفقد لدى موته سوي الروح ويحافظ في قبره بالقرب من جسده بنفسه (المادية أو النباتية) التي تحتاج لأن تأكل وتشرب، وحتى لأن تتنفس أو تعامل الطبيعة ولذا كانت المقابر الفينيقية عموماً في أماكن عظيمة توحي بالمهابة وغالباً على الشواطئ الصخرية المطلة على البحر. وكانتوا يعملون على تأمين نقل الماء للمتوفى. وما يسترعي الانتباه الخلاف غمازج القبور، إذ أن المقابر الكبيرة في جبيل وقرطاج وأوتيكا وسردينيا وأسيزا وطنجة كانت قد صممت بطريقة مختلفة تماماً.

كيف تفسر ياتري ذلك التجويف الموجود في النهايين السفليتين داخل سراديب الدفن الحجرية في مقبرة أوتيكا؟... إن مثل هذا التجويف لم يلاحظ في أي مقبرة أخرى أو تابوت حجري في مكان آخر.

والفينيقيون، أولئك الناس الواقعيون الذين يعلقون أهمية كبيرة على التراث المادي، كانوا نادراً ما يدفنون مع موتهم في القبور أشياء ذات قيمة كبيرة. والاستثناء الوحيد من ذلك هو تلك الأشياء الجنائزية التي وجدت في التوابيت الحجرية لبعض ملوك جبيل والتي دفنت مع شعاراتهم الملكية، ومن بينها حلبي أو أمتعة ثمينة وهبات جنائزية وهدايا من أحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة في مصر.

### ● سعياً وراء الشمس:

الواضح في مجموعة الاعتقادات والطقوس والعبادات التي كانت قوم الديانة الفينيقية أن الفكرة المسيطرة هي سلطة الشمس الواقعية وفكرة المُحسب. ومكذا

(٥) لم يكن هذا تقليداً كنعانياً أو فينيقياً صرفاً بل كان معروفاً في كل المناطق السورية. والواقع أن الكلمة نفس وروح مشتركتان في كل ما يدعى «اللهجات السامية» وليس بهما من حيث المدلول إلا اختلافات سطحية حسب الاستخدام. والكلستان لهما علاقة بالحياة والموت في أن واحد - الحقى -

كان التعلق الروحي بالشمس يشكل المحافر للتوسيع في البحار نحو الغرب<sup>(٤)</sup>. لكن معابد عشوروت المكرسة للحب، والتي ترقق البحار على طول طريق الشمس، تذكرنا بأن الديانة الفينيقية كانت أيضاً ديانة الأنوثة الكونية.

وأخيراً يبدو أن إهمال الآلهة المتعددة والأهمية التي خصوا بها الإله الكبير «إيل»، يبدو أنه قد هياً - كما كان بالنسبة للديانة اليهودية - السبيل الثاني نحو الوحدانية (الإيمان بالله واحد).

أليس أمراً مثيراً أن ندرك أن المسيح في استغاثته الأخيرة قد طلب لتجده الإله الفينيقي الكبير «إيل»؟...<sup>(٥)</sup>

(٤) لا أود مجازة المؤلف في هذه الفكرة بحرفيتها، لأنها لما كانت التجارة البحرية هي المحرر الأساسي الذي قالت عليه الحياة الاقتصادية للمراكز الساحلية الكنعانية فمن المتعافي أن يكون حافر التوسيع في البحار ثم إقامة المستوطنات اقتصادياً أكثر منه روحياً، خاصة أنه من المعروف عن الكنعانيين أنهم احتلوا المرتبة الأولى في التجارة البحرية للعالم القديم. ومن الطبيعي أن وصولهم إلى جهات مختلفة من البحار كان يتبعه إنشاء مراكز عبادة، بحيث أن ذلك يعتبر نتيجة وليس هدفاً أو غاية - الحق.

(٥) يجعلنا أن نفهم هذه العبارة بضمونها الحقيقي وليس بحرفيه الكلمة من حيث ظاهرها. فكلمة «إيل» بعد أن كانت عند الكنعانيين (والبابليين أيضاً) إسماً لإله معين صار فيما بعد كبير الآلهة، تطورت في آرامية العهود اللاحقة، اللغة التي تكلمتها المسيح، وأصبح لها مدلول الشمولية بحيث صار يقصد بها الإله بشكل مطلق. فعندما صرخ المسيح بالأرامية: «إيلي.. إيلي.. لما شفقتني؟...» وتعني بالضبط: «إلهي.. إلهي.. لماذا تخليت عنِّي؟..» لم يكن المقصود بذلك الإله الفينيقي «إيل» بالتحديد بل الإله بشموليته الكونية - الحق -

## الفصل الثالث

### فينيقيا ومدنها

عندما يهبط القارئ إلى بيروت في مطارها الدولي يلاحظ وقوعه في تلك البقعة المخصوصة بين ساحل البحر المتوسط وسلسلة جبل لبنان الغريبة ويرى ترتيبات لمرفأ جوي حديث.

في تلك المنطقة المخصوصة بين سوريا الحالية وفلسطين تكون لبنان الحالي من هذا السهل الساحلي الضيق والسلسلة الجبلية ومنخفض البقاع الغني الممتد فيما وراءها، لكن الفينيقيين أنفسهم لم يسيطرروا على أراضٍ يمثل هذا الإتساع، إذ كانت منشآتهم تقتصر على مدن تجارية ومرافئ<sup>(\*)</sup>. وكان رواد الملاحة هؤلاء قد أسسوا مدنًا مثل صور وصيدون وبيروت وغيرها فوق رؤوس ساحلية اشبه بالجزر وبروزات صخرية ضيقة. ومن منشآتهم أيضًا أوغاريت القديمة وأررواد وهما تبعان سوريا الحالية. ونخص بالذكر جبيل التي يقول البعض أنها أقدم مدينة في العالم. وقد شكت، كما قال «موريس دونان»، في الألف السادس قبل الميلاد أي قبل الفينيقيين بزمن طوبل، وقد وجدت في جبيل بقايا أول نوع من المنازل بني بالأحجار المرصعة.

#### ● أشجار الأرز:

كان تاريخ الفينيقيين أول ما انطلق من شهرة أشجار الأرز التي غطت في العصور القديمة أكبر مساحة من جبال لبنان. ونصوص العهد القديم تعود مراراً إلى ذكر الأرز في لبنان. من ذلك مثلاً ما جاء في سفر حزقيال، الإصلاح الحادي والثلاثين: «... هو ذا أعلى الأرز في لبنان جميل الأغصان وأضيق الظل وقامته طويلة وكان فرعه بين الغيوم...».

إن هيكل القصور القديمة، المصرية والأشورية، في ذلك العصر، وحتى معبد أورشليم، قد بنيت كلها من خشب أشجار الأرز اللبناني. كما كانت أحواض السفن

(\*) من المعروف أن الكتالانيين انتشروا في كل سوريا العميقa التي تحيط بالقاع شمالاً والبحر الميت جنوباً إضافة إلى المناطق الساحلية. إلا أن تسمية فينيقين وحصرهم بالشريط الساحلي أصبحت بمثابة اتجاه تاريخي عند أغلب الكتاب. وقد ورد في تقديم البحث التعليل على ذلك - الحق -

في صيدون وصور تستهلك منه كميات هائلة. وهذا هو سبب الاجتثاث شبه الكلي لغابات جبال لبنان، حيث نرى اليوم منحدرات شاسعة جرداً تظهر متلاطحة عند هطول الثلوج شتاءً، وترى فيها وسماً لطيفة من الزهور التي تبت في الريع والصيف. وهكذا لم يبق من غابات الأرز سوى حوالى ثلاثة أو أربع مئة شجرة تتصلب فوق هضبة عالية غير بعيد عن بلدة بشري. في ذلك الموقع تصمد أشجار الأرز هادئة في الغابة القديمة، غابة حقيقة مقدسة تقع تحت رعاية كاهن ماروني. والمعروف أن لبنان الحديث اختار شجرة الأرز كشعار وطني له.

في بيروت أطلعني مدير دائرة الخدمات الزراعية على شجرة أرز متتحجرة محفوظة في مستودع المدينة، كان قد عثر عليها مطمورة في الأرض على عمق بضعة أميال، وذلك خلال عملية شق طريق جيلي. وقد صرخ «جورج بورجي» من المعهد الفرنسي لعلم الآثار، الذي كان يراقبني، صرخ بأنه كان يجب بناء صرح قومي لحماية هذا الكائن. وحدثني قائلاً:

« علينا أن تكون واضحين، فشجرة الأرز المتتحجرة هذه قد عرفت الفينيقيين. ويعتقد الخبراء أن عمرها كان يبلغ من سبع إلى ثمان مئة سنة عندما تركت في مكانها منذ أكثر من 2000 سنة...».

كانت أشجار الأرز تقطع في الجبل وتنتقل حتى الساحل حيث تحول إلى أواح مربعة، وتحتل فوق سفن أو تسحب بطريقة التعويم على الماء. ثم تنزل في أمكنة من السواحل أقرب ما يمكن إلى الورشات التي تزود منها.

وعلى المسافات البرية باتجاه مدن الرافدين كانت التواfol تنقل هذه الأخشاب. وقد خلدت عمليات النقل البحرية والبرية على لوحات فنية كبيرة كانت في معبد سرجون بمدينة «خور ساپاد» يمكن مشاهدتها الآن في متحف اللوفر. وهي رسمة حقيقة منذ ذلك العصر.

بين جبل لبنان والبحر كانت تمتد رقعة من الأرض طولية خصبة، هي التي نعرفها اليوم. وفيها توجد ثمار الحنة التي ورد وصفها في نصوص العهد القديم على لسان حزقيال كما يلي:

«... عناقيد من العنب ذات حبات مليئة بالسكر والشمس... ذخائر من الحليب ومن العسل...»

وعلى مر القرون استمر رحاء العيش على هذه البقعة من الأرض. وإذا كان ثراء

المدن الفينيقية وغنى بساتينها مما سبب الأطماع عند الآخرين فقد اجتذبت بشكل خاص تيارات إنسانية وثقافية ذات فائدة أتت من الشمال (المحبين) ومن الشرق (بلاد الرافدين: بابل وأشور) ومن الجنوب (مصر).

وفي هذا الوضع غير المستقر للمدن الساحلية «النشيطة جداً» نشأت شيئاً فشيئاً سلالة سكانية جديدة تحت تأثير الفعالية والوعي وتطور التقنيات والفنون. إنها حضارة حقيقة مركبة ذات شهرة عالمية.

لأول مرة في تاريخ العالم القديم أقامت جماعة صغيرة من الناس نظاماً جديداً لتبادل البضائع وتبادل الترواث والفكر الذي انتشر في كل أنحاء البحر المتوسط انطلاقاً من هذه المراكز:

جيجل - صور - صيدون - بيروت.



## الفصل الرابع

### جبيل «بيبلوس».. حاضرة المكتابة

تعتبر جبيل المدينة الفينيقية الوحيدة التي تظهر فيها بوضوح طبقة الركام الأثري الفينيقي. وتتراءى هذه المدينة للناظر وكأنها حديثة العهد قد نشأت بالأمس رغم عمرها الذي يقارب الشهantineآلاف من السنين.

فهنا تراكم وتشابك مدن حقب حضارية مختلفة تبتدئ بـ جبيل العصر الحجري الحديث (النيوليتيك)، ثم جبيل ذات المنازل الخضرية الأولى (حوالي 3000 قبل الميلاد)، وجبيل العموريين الذين قدموا من أقصاصي الپادية السورية حوالي 2000 قبل الميلاد، وجبيل القرن الثامن عشر قبل الميلاد حيث كانت موجة المكسوس الذين جلبوا معهم فن ترويض الحصان وصنع العربة.

هذا وتكشف لنا عمليات التنقيب الأثري عن عهد طويل من النفوذ المصري يمتد مائين القرنين الخامس عشر والثالث عشر قبل الميلاد. ثم خلال العصر الذهبي لفينيقى الشرق حتى القرن السابع قبل الميلاد. ثم تبين بعدها ملامح السيادة الآشورية والبابلية حتى سنة 539 قبل الميلاد، وأثار النفوذ الفارسي قرابة القرنين من الزمن.

يبدو أن فترة النفوذ اليوناني كان لها تأثير على جبيل أكثر من بقية المدن الفينيقية. ففي هذه الفترة بطل استخدام الاسم الكعناعي القديم «ج ب ل» حيث أطلق عليها اليونان اسم «بيبلوس».

لماذا «بيبلوس Byblos»؟؟

هذه الكلمة اليونانية تعنى أساساً: الورق، وصار يقصد بها: الورق المكتوب، وبالتالي: الكتاب، حيث اعتبرت بذلك المدينة الأم للكتابة ومنها أيضاً يقيس تسمية: «Bible» - الكتاب المقدس - في اللغات العالمية حتى اليوم. وهي مدينة الأبجدية الحديثة الأولى.

أجمل المعالم الأثرية الفينيقية في جبيل هو ما يدعى معبد المثلثات (أو النصب). وقد تبين لدى القيام بعمليات التنقيب الأولى في ركام الفترة البابلية أنه كان يوجد في

القسم السفلي منها معبد آخر أكثر قدماً وسابق لزمن الأئمرين الذين أعادوا بناءه. وللتمكن من تحرى بقايا هذا المعبد القديم دون خسارة الإكتشاف الأول عمد الباحث الأخرى الفرنسي موريس دوتان، وهو الذي اقترح اسمه باسم مدينة بيلوس منذ سنوات طويلة، عمد إلى نقل بقايا المعبد الفينيقي من مكانه بضع عشرات من الأمتار باتجاه الشرق، معيناً بناء هذه البقايا بدقة وبنفس الاتجاه.

وقد دعي معبد المسلطات (أو التصب) لوجود عدد كبير منها في فنائه تراوح ارتفاعاتها بين 25 سنتمراً وثلاثة أمتار، انتشرت للغرابة دون أي تناسق أو ترتيب. وهذه الأحجار التي أقامها الحجاج أو كهنة المعبد بناء على رغبة المؤمنين، تتخل إما صور الآلهة نفسها وإما شاهداً عن مجموعة من المؤمنين أمام الآلهة. والمدهش في الأمر هو أن هذه النصب قاومت عوامل الزمن وأحتفظت بوضع جيد، رغم أنها وهي الخاطرة بهالة خرافية دينية، كانت ملعونة ومحكوم عليها بالدمار، سواء من قبل أنبياء اليهود أو من قبل مبشرى المسيحية، أو فيما بعد من قبل النبي محمد. ألم يذكر القرآن المسلمين بقوله: «إِنَّمَا الْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ رُجُسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعْلَكُمْ تَفْلِحُونَ...»؟... وفي موضع آخر خذر المؤمنون من رجس الحيوانات المذبوحة أمام الأنصاب. لقد دامت إذاً الاعتقادات المتعلقة بهذه الحجارة المتحدرة من العالم الفينيقي والمصري قروناً عديدة. وكانت هذه النصب تسمى «بيت إيل» أي بيت الإله.

في ذلك المعبد في بيلوس كانت هذه النصب ذات أشكال مختلفة جداً فتارة هي مستلات نحتت باتقان، وتارة أخرى أكواة بسيطة من الحجارة الضخمة المربيعة. كما أن ما يشير الإعجاب في هذا المعبد مراساة بدائية من الحجر ذات شكل هندسي، في جزئها الأعلى توجد فتحة لمرور الجبل الذي كان يساعد على تحريكها.

ما هو الهدف ياترى من وجود هذه المراساة هنا؟...

أهو تكريم بعد عملية إبحار شاقة؟... أو ربما دليل ثوري إثر معركة بحرية رابحة، حيث أن المعبد قد اعتبر معبد الإله «رشف» الذي تُنسب إليه أمور الحرب، وقد دون اسمه فوق أعلى نصب عشر عليه في الجهة الشمالية من الفناء.

اكتشفت في جبيل مجموعة من الكنوز الأثرية الثمينة التي ترجع إلى ما قبل القرن العاشر قبل الميلاد، من ذلك قيثارة ملوكية وسيف له غمد ذهبي وعلب من السبج

(الحجر الرجاجي الأسود) المحاط بالذهب ودروع وغير ذلك... كما عشر أيضاً على السائيل الشهيرة التي يمكن أن تعيّر عن فن محلي صرف. أما في المقبرة الملكية الكبيرة فقد اكتشف ناوس (تابوت) الملك أحيرام والتوايت الأخرى الحجرية لأفراد عائلته. وقد نحتت على شكل صندوق له غطاء سميك. ولم تلاحظ نقوش إلا على تابوت الملك أحيرام حيث تبدو التوايت الأخرى طبيعية.

وقد وجدت في هذه المقبرة الملكية الكبيرة نقوش مختلفة استخدمت فيها الأبجدية الفينيقية الأولى أو أبجدية أحيرام المولفة من اثنين وعشرين حرفاً. وهي التي صارت للمرة الأولى تأخذ بعين الاعتبار الأهمية اللفظية للأحرف بدلاً من الرموز المتعددة. وقد كان هذا بالنسبة لذلك العصر ابتكاراً عجيباً. هذا وقد اشتقت من أحرف هذه الأبجدية اللفظية، بعد أن طرأ علىها تطورات متعاقبة، عائلة الأبجديات البوئية من جهة، والأبجديات الإغريقية اللاتينية في شمال البحر المتوسط من جهة أخرى. كما أثرت أيضاً على الأحرف العربية والعبرية وبعض رموز اللغة القديمة البربرية في الشمال الأفريقي، التي أصبحت اليوم متسبة.

لكن ما الذي تقوله لنا هذه النقوش المكتشفة في المقبرة الملكية الكبيرة؟... هناك نقش على جدار البئر هو عبارة عن تحذير للمتطفلين كما يلي:

«ما هو هلاكك في الأسفل!...».

وهناك النعش الموجود على غطاء تابوت أحيرام والذي جاء فيه:

«التابوت الذي صنعه ليتوابل ابن أحيرام ملك جبيل لأبيه أحيرام كمسكن أبيدي. وإن هاجم جبيل ملك أو حاكم أو قائد واعتدى على حرمة هذا التابوت فليكسر صوongan حكمه وليسقط عرشه الملكي وليهجر السلام جبيل. وأما هو فلتشيخ كتابته...».

ولكن رغم ذلك فإن المقبرة الملكية قد اعتدى على حرمتها، إذ وجدت توايت العائلة الملكية فارغة تماماً وبذلك لايمكنا أن نعرف إطلاقاً ما هي الكنز التي دفنت إلى جانب الملك وحاشيته، كما أنها لا نعرف إطلاقاً من كان الذين قاما بذلك.

بالرغم من ذلك عرفت المدينة زمناً طويلاً من الرخاء في الفترة الهلنستية، وبعد إصلاحات وتحسينات من قبل الرومان أصبحت مقلداً منها فيما بعد للمغاربة الصليبيين الذين فرسوا الاسم الفينيقي القدم ولقظوه: «Giblet».

احتلت جبيل عنوة من قبل صلاح الدين في عام 1181 ثم استردها الصليبيون الذين تراجعوا فيما بعد بشكل نهائي إلى قبرص عام 1266. أما القلعة (معقل الصليبيين) فقد رمها الأتراك فيما بعد، وهي تحافظ على الميناء الصغير الذي يلفه هدوء ساحر والذي كانت تشغلة قبل 3000 سنة السفن وطواطم الملائحة والبحارة وهم في حركة دائمة.

## الفصل الخامس

### صور

.. يا صور أنت قلت أنا كامة الجمال...  
تاخوك في قلب البحور..  
بناؤوك تموا جمالك..  
عملوا كل الواحك من سرو سنر..<sup>(\*)</sup>  
أخذوا أرزاً من لبنان ليصنموه لك سواري....

### سفر حزقيال، الإصحاح السابع والعشرون : 3 - 5

تقع مدينة صور اليوم على طرف شبه جزيرة فوق بروز صخري يصل بالساحل اللبناني بواسطة بقعة رملية. وقد تشكلت هذه البقعة حول الحاجز الذي بناه الاسكندر الكبير لاحتلال جزيرة صور الصغيرة، التي استبس سكانها حتى الموت. لكن موقع صور لم يكن دائمًا فوق هذه الجزيرة الصغيرة. فمدينة صور الأولى - القديمة - كانت تقع في الجهة المقابلة تمامًا، فوق البر. وقد تركت المدينة القديمة وبنىت الجديدة فوق الجزيرة لواجهة ضغط الآشوريين المستمر وهجومهم التكرر. والمعتقد أن نقل المدينة لم يحصل دفعة واحدة (بشكل هجرة) بل كان تدريجيًا في أزمنة مختلفة. ولا بد أنه قد تم في أوائل القرن السابع قبل الميلاد - عندما ذكرها حزقيال في نبوته الأولى وأنشد مجد جزيرة صور التي كانت بأرجائها الحجرية العالية ومنازلها المتعددة الطوابق تعد أحدث مدينة في عالم ذلك العصر ..

### ● موارد صور:

#### نقرأ في سفر حزقيال، الإصحاح السابع والعشرين: 9 - 25

«... جميع سفن البحر وملحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك. فارس ولود وفوط كانوا في جيشك رجال حربك. علقوا فيك ترساً وخوذة. هم صيروا بهاءك. بنو أرورد

(\*) سنر تسمية أمورية تجلب حرمون (الشيخ). وقد اختلف المتأول المغرافي لهذه التسمية في المقرب اللاحقة إذ أطلقها المغارفيون العرب على كل سلسلة لبنان الشرقي وأحياناً على جزء منها - المحقق -

مع جيشك على الأسوار من حولك. والأبطال كانوا في بروجك. علقوا أثراً سهم على أسوارك من حولك. هم تمموا جمالك. ترسيش تاجرتك بكثرة كل غنى بالقصبة والخديد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقك. ياوان وتوبيال وماشك هم تجارك. بنغوس الناس وبانية النحاس أقاموا تجارتك. ومن بيت توجرمة بالخليل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك. بنو ددان تجارك. جزائر كثيرة تجار يدك. أذوا هديثك قرونًا من العاج والأبنوس. آرام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا في أسواقك بالبهمن والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت. يهودا وأرض إسرائيل هم تجارك. تاجروا في سوقك بحظة متى وحلوا في عسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غنى يخمر حليون والصوف الأبيض. ودان ويأوان قدمو غزلًا في أسواقك. حديد مشغول وسليخة وقبض الذريرة كانت في سوقك. ددان تاجرتك بطناقيس للركوب. العرب وكل رؤساء قياد هم تجار يدك بالخرفان والكباس والأعنة. في هذه كانوا تجارك. تجارت شبا ورعة هم تجارك. بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك. حران وكنته وعدن تجارت شبا وأشور وكل مد تجارت. هؤلاء تجارت ينفاثس بأردية اسمانيجوية ومطرزة واصونة ميرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرز بين بضمائك. سفن ترسيش فراقلك لتجارت فامتلأت وتمجدت جدافي قلب البحار...»

لم يُعثر عمليًا خلال التحريات على أي شيء يذكر من هذه العظيمة الموصوفة آنفاً، ويُعجب القول أن صور القدية التي غالباً ما هوجمت وتُهْبَطت قد هدمت بشكل كامل في عام 574 قبل الميلاد عندما حاصرها نبوخذ نصر وكانت المدينة الجديدة المتأفقة، فوق الجزيرة الصخرية الصغيرة، وقد احتلت هي أيضًا، وبعد تدميرها الكامل في سنة 331 قبل الميلاد لم يترك فيها جنود الاسكندر الكبير غير أكواخ من الأنقاض.

### ● حيرام ملك صور.. وسليمان:

نکمن قصة حيرام عند ملتقى غريب ما بين الميثولوجيا والتوارية. كان هذا الملك الأسطوري صديقاً لداود. وبعد موت داود دعا صديق وشريك الملك سليمان حتى أنه زوجه بابته، ويقال أنها كانت زوجته المفضلة. وحيرام من جهة كان، كما تقول الأسطورة، يتحدر من «أجينور» مؤسس صور. وتروي نصوص سفر الملوك الأولى قصة زواج آخر بين العبرانيين والفينيقيين عندما أخذ الملك آخاً إسرائيل ابنة ليشعيل ملك صيدون.

عندما كنت طالباً في المرحلة الثانوية، ولدى قراءتي لأيات **«Athalie»** الشهيرة جداً:  
.. كان ذلك في رهبة ليل دامس  
بدت أمامي أمي إيزابيل  
كما في يوم موتها.. مريضة بأيتها...»

عندما لم أكن أتصور أني كنت أترم بدراساتي الفينيقية من دون أن أعلم ذلك،  
وبقصد العلاقة الوثيقة بين الملك سليمان وحiram الكبير نرى لابد من نقل هذه  
الرسالة الغريبة من سفر الملوك. الإصحاح الخامس:

«.. فأرسل سليمان إلى حiram يقول: أنت تعلم أني أنه لم يستطع أن يبني  
بيتاً لاسم الرب إليه بسبب المروب التي أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت  
بطن قديمه. والآن فقد أراحتي الرب إلهي من كل الجهات فلا يوجد خصم  
ولا حادثة شر. وهأنذا قائل على بناء بيت لاسم الرب إلهي كما كلام الرب  
داود أني قاللاً أن ابنك الذي أجعله مكانك على كرسيك هو يبني البيت  
لاسمي. والآن فامر أن يقطعوا لي أرزاً من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك.  
وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول لأنك تعلم أنه ليس يتنا أحد  
يعرف قطع الخشب مثل الصيدلانيين...»

.....

وأرسل حiram إلى سليمان قائلاً: قد سمعت ما أرسلت به إلي. أنا أفعل كل  
مسرتك في خشب الأرض وخشب السرو. عبيدي ينزلون ذلك من لبنان إلى  
البحر وأنا أجعله أرماناً في البحر إلى الموضع الذي تعرفي عنه وأنقضه هناك  
وأنت تحمله. وأنت تعمل مرضاتي بإعطائك طعاماً ليتي...».

وهكذا...

«... فكان حiram يعطي سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل  
مسرته... وأعطى سليمان حiram عشرين ألف مدحنة طعاماً لبيته وعشرين  
مكيالاً من الزيت.. وهكذا كان سليمان يعطي حiram سنة قستة.. وكان صلح  
بين حiram وسليمان وقطعوا كلاماً عهداً...».

حiram آخر من صور، بارع في صنع البرونز، ارتبط اسمه بمعبد أورشليم، إذ أنه  
سكن وصنع في هذا المعبد أعمدة وتيجان أعمدة ومزهريات للرماد وأقداحاً لرش الماء  
المقدس، بالإضافة إلى روابع فنية أخرى كلها من البرونز المصقول.

استمرت أعمال بناء المعبد عشرين سنة، وقد شيد في نفس الفترة القصر الملكي وعدد من المدن والأماكن المخصصة.

ونقرأ بعد ذلك في سفر الملوك الأول، الإصحاح التاسع، 11 - 13 :

«وكان حiram ملك صور قد ساعف سليمان بخشب أرز ونحش سرو وذهب حسب كل مسنته... أعطى حيرام الملك سليمان إلى حiram عشرين مدينة في أرض الجليل... فخرج حiram من صور ليرى المدن التي أعطاها سليمان فلم تحسن في عينيه. فقال ما هذه المدن التي أعطيتني يا أخي؟...».

### ● حملة الإبحار الأولى:

لكن حiram لم يفعل شيئاً أكثر من تأمين بناء معبد أورشليم. كما كان أيضاً رجل أعماله وله شراكات مع سليمان.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى سفر الملوك وجدنا شيئاً من ثروات سليمان ورحلات سفنه، حيث يفهم أنه جهز أسطولاً في «عصيون جبر»، التي يعتقد أنها وقعت قريباً من إيلات على الساحل الشمالي للبحر الأحمر. وأرسل حiram على سفنه خدمة وبحارته الذين كانوا يعرفون البحر مع خدم سليمان، وذهبوا كلهم إلى «أوفير» وجلبوا من هناك أربع مائة وعشرين وزنة من الذهب.

ويختل ذلك وصف زيارة ملكة سباً للملك سليمان ثم نقرأ: «وكان سفن حiram التي حملت ذهباً من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيراً جداً وبحجارة كريمة. فعمل سليمان خشب الصندل درابزيناً لبيت الرب وبيت الملك وأعاداً ورباها للمغنين...» (الملوك الأول، الإصحاح العاشر: 11 - 12).

ويذكر نفس النص بعد ذلك (22 - 25) أن سليمان كانت له في البحر سفن تبحر إلى «ترشيش» مع أسطول حiram. وكان أسطول «ترشيش» يعود مرة كل ثلاث سنوات محملًا بالذهب والفضة واللؤلؤ والقردة والطواويس. ويصف النص أن سليمان فاق كل ملوك الأرض في الثراء والحكمة، وأن الناس كانوا يقصدونه للاستفادة من حكمته التي وضعها ربه في صدره، وكانتوا يحضرون له معهم الهدايا الشمينة من ذهبية وفضية وألبسة وأسلحة وطيبات وأحصنة وبغال، وهكذا... السنة تلو الأخرى.

لقد فسرت هذه النصوص تفسيرات مختلفة، وبالخصوص في مسألة تحديد موقع تلك البلاد الغامضة «أوفير». وهناك من يحاول الربط بين تلك الرحلات الأسطورية التي استغرقت ثلاث سنوات وبين مناطق أعلى الأمازون في القارة الأميركيّة.

## ● عربات وخيول:

لابد أن الفينيقيين وبالأخص الصوريين كانوا يوجهون اهتماماً لتجارة ونقل الحيوان والعربات. فإذا رجعنا إلى النص الآنف الذكر من سفر الملك الأول (الإصحاح العاشر: 26 - 29) رأينا الحديث عن أولئك السماسرة الذين كانت مهمتهم ترکر في شراء خيول من كيليكيا وعربات من مصر للملك سليمان. وإذا فكرنا بصورة منطقية وجدنا أن هؤلاء السماسرة لا يمكن أن يكونوا سوى فينيقين من صور.

«وَجَمِيعُ سَلِيمَانَ مَرَاكِبٍ وَفَرَسَانًا فَكَانَ لَهُ أَلْفٌ وَأَرْبَعُ مِائَةٍ مِنْ رَكْبَةٍ وَاثْنَا عَشَرُ أَلْفٌ فَلَارسٌ... وَكَانَتِ الرَّكْبَةُ تَصْدُعُ وَتَخْرُجُ مِنْ مَصْرَ بَسْتَ مِائَةٍ شَاقِلٍ مِنْ الْفَضْلَةِ وَالْفَرَسِ بَيْثَةٍ وَحَمْسِينٌ...».

## ● سليمان والنساء وعبادة عشتروت:

هناك جانب آخر للعلاقات بين الفينيقيين واليهود، هذا الجانب ليست له علاقة بالتجارة، وإنما بالتأثير القوي للديانة الفينيقية على الملك سليمان نفسه.

إنه نص غريب من سفر الملوك، ذلك الذي جاء في الإصحاح الحادي عشر (1 - 5):

«وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سَلِيمَانَ نِسَاءَ غَرِيبَةَ كَثِيرَةٍ مَعَ بَنْتِ فَرَعَوْنَ مَوَاهِيَاتِ وَعَمُونِيَاتِ وَأَدُومِيَاتِ وَصِيدُونِيَاتِ وَحَشِيشَاتِ مِنَ الْأَمْمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبْنِ إِسْرَائِيلَ لَا تَدْخُلُوهُنَّ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ لَأَنَّهُمْ يَمْلُؤُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آهَاتِهِمْ فَالْمُصْنَقُ سَلِيمَانَ بِهُؤُلَاءِ بِالْحَبَّةِ وَكَانَتْ لَهُ سِبْعُ مِائَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيَّدَاتِ وَثَلَاثُ مِائَةٍ مِنَ السَّرَّارِيَّاتِ فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قُلُوبَهُ وَكَانَ فِي زَمَانٍ شِيخُوخَةُ سَلِيمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمْلَأْنَ قُلُوبَهُ وَرَاءَ آهَةِ أُخْرَى وَلَمْ يَكُنْ قُلُوبُهُ كَامِلًا مَعَ الرَّبِّ إِلَيْهِ كَقُلْبُ دَاؤِهِ فَذَهَبَ سَلِيمَانَ وَرَاءَ عَشْتَرُوتَ إِلَهَةِ الصِّدِّيْقِينَ وَمَلَكُومَ رَجُسِ الْعُمُونِيَّينَ...».

هذه العلاقات الودية والتآثيرات الواسعة من مملكة صور على سليمان لم تدم زمناً طويلاً. فقد انحطت في زمن لاحق عندما قام نبوخذنصر من بابل في سنة 587 قبل الميلاد باحتلال أورشليم ونبي اليهود إلى بابل. لم يغفر اليهود للفينيقيين عدم مجدهم للجدتهم. وسترى كيف استشعروا في حملة نبوخذنصر على الفينيقيين انتقاماً حقيقياً سيتهي بمحصار ودمار صور في عام 574 قبل الميلاد.

ويوجه حزقيال عندئذ اللعنات إلى ملك صور، فترد عباراته في الإصحاح الثامن والعشرين مليئة بالنقد:

«فلذلك هكذا قال السيد رب. من أجل أنك جعلت قلبك كقلب الآلهة، لذلك هأنذا أجلب عليك غرباء عنة الأم فيجردون سيفهم على بهجة حكمتك ويدرسون جمالك. ينزلونك إلى الحفرة فتموت موت القتل في قلب البحار. هل تقول قولاً أمام قاتلك أنا إله. وأنت إنسان لا إله في يد طاغيتك. موت الغلف تموت بيد الغباء لأنني أنا تكلمت يقول السيد رب...». (6 - 10).

وبعد ذلك:

«... قد ارتفع قلبك لبهجتك. أفسدت حكمتك لأجل بهائك، سأطرك حلك إلى الأرض وأجعلك أمام الملك لينظروا إليك. قد نجست مقادرك بكثرة آلامك بظلم تجارتكم فأخرجوا ناراً من وسطكم فتاكلاه وأصيرونكم رماداً على الأرض أيام عيني كل من يراك. فيتحير منك جميع الذين يعرفونك بين الشعوب وتكون أهواً ولا توجد بعد إلى الأيد...» (17 - 19).

بعد هدم صور على يد نبوخذ نصر بنيت المدينة كلها من جديد فوق الجزيرة. ومن المحتمل أن تجديدها كان في الفترة نفسها. وبضرب صور أصبحت تصياداً مكانتها فترة قصيرة من الزمن. واعتباراً من سنة 539 قبل الميلاد ساد عهد من الرخاء سواء بالنسبة لصور أو لبقية المراكز الفينيقية.

ويشير الاستيلاء على بابل من قبل الملك الفارسي قوروش إلى بداية عهد من الصداقة مع الفرس. كما يشير إلى الامتداد الكبير للمدن الفينيقية. وكانت في ذلك أيضاً نهاية فترة نفي اليهود في بابل، ففي عام 538 قبل قوروش ما يدعى «مرسوم إكباتانا» الذي ينص على السماح بعودة اليهود إلى فلسطين.

وفيما بعد عرفت صور أيضاً حقبة من الإزدهار في الوقت الذي كان فيه النفوذ الإغريقي يثبت أقدامه في حوض البحر المتوسط. فلقد حاول الفينيقيون دائماً تجنب التزاح المسلح مع الإغريق على طرقهم الساحلية. وكانوا يكتفون بالدفاع عن مواقعهم، وعندما لا يستطيعون الاستقرار في المناطق التي كانت تعتبر خاضعة للإغريق لم يكونوا ليفعلوا شيئاً سوى التوقف في المرافئ خلال إنماز أعمالهم التجارية.

### ● الاسكندر الكبير وخزو فينيقيا:

لم يكن الاسكندر الكبير بعد دحره للغرس في الشمال السوري ليتحمل فكرة بقاء النفوذ أو التفوق الفينيقي، وكان يعرف بأن السيطرة الإغريقية لا يمكن أن تكون شاملة طالما أن هؤلاء التجار الآثرياء وسفتهم يحتفظون باستقلالهم

وامتيازاتهم التجارية. ولذلك رأى قبل توغله في الشرق الآسيوي أنه لابد من السيطرة على المدن الفينيقية المتقدمة وإضافة إله الشمس إلى آلهته وإعطاء عشتروت وجهه أفروديت.

### ● حصار صور:

كان تقدم الاسكندر سهلاً وسريعاً في تلك الرقعة الساحلية الممتدة عند سفوح جبل لبنان، فقد فتحت كل من جبيل وبيروت وصيدا أبوابها للملك المقدوني، لكن صور قررت مقاومته، فكان صراعاً عنيفاً حتى الموت.

حاول الاسكندر بكل الوسائل الاستيلاء على صور. وبعد فشل محاولاته عن طريق البحر شرع في إنشاء حاجز يصل الحزيرية بالشاطئ يبلغ عرضه حوالي 60 متراً ليتمكن بواسطته من احتلال المدينة عن طريق البر.

نظم الصوريون دفاعهم، وقاتلوا ببسالة، فكانتوا يقطلون المهاجمين مواجهةً أو خدراً أثناء عملهم فوق الحاجز الضيق، وفي نفس الوقت يرخلون ليلاً إلى قرطاجة سفنهم محملة بالنساء والأطفال والمعجزة. ارتفع الحاجز بالرغم من أن عاصفة كانت قد دمرت منه ذات يوم جزءاً كبيراً. وتتابع الإغريق عملهم مستخددين الألواح الخشبية وأشجاراً كاملة وحجارة صور القدية وكل المواد الضرورية، وفي نهاية الحاجز وضع الاسكندر الأبراج وعتاد الحرب.

أعدّ الصوريون من جهتهم وسائل جديدة للدفاع. فكانت لديهم دروع صنعوها من قشرة بعض النباتات البحرية. وعجلات ذات دوائر متعددة تدور بمساعدة آلة تحطم السهام عليها.

بعد الانتهاء من بناء ذلك الحاجز حاول الإغريق ابتداءً من أبراجهم إلقاء جسر على أسوار المدينة. واندفع بعض المقدونيين في الثغرة الأولى لكن الصوريين سرعان ما قتلواهم ورجموا تلك الثغرة أثناء الليل.

دافع سكان صور عن مدعيتهم باستخدام اختناعات مدهشة. فبواسطة شوكة (مذراة) ثلاثة ضخمة من الفولاذ على شكل صنارات كانوا يتزرعون السروع من الجنود المقدونيين القابعين فوق الأبراج. وكانتا يلقون فوق الأبراج المتحركة بشباك يوقعون فيها المهاجمين، وقدروا بكتل حديدية محمرة في النار وبالرمل المحتوى لدرجة البياض الذي كان يدخل عبر الدروع والملابس فيحدث حروقاً مؤلمة.

كما تمكن الصوريون، وقد ضاحفوا جهودهم، من أسر قائد مكدوني وقطعوا رأسه بشكل عمودي بضريمة فأس.

حيثند فكر الاسكندر برفع الحصار، لكن كبرياته منعوه من ذلك، فقام عندها بعمل بطولي جريء إلى حد غير معقول. وبهذا الصدد ترك لنا المؤرخ ديدور الصقلي الوصف التالي:

«... أخفض فوق سور المدينة الجسر المتحرك لأحد الأيراج الخشبية ثم اجتازه بمفرده متهدلاً القدر ومتصدراً لقنوط الصوريين، ثم أمر المكدونيين أن يلحقوا به، فقادهم ثم اشتبك مع سكان الجزيرة المحاصرين وقتل البعض بضربات رمح وبعضاً آخر بسيفه ودفع بعضاً بذرעה فكسر بذلك عنفوان الشجاعة عند أعدائه. في غضون ذلك هدم المنجنيق في مكان آخر من السور ثغرة كبيرة تسلل المكدونيون من خلالها إلى المدينة. وفي نفس الوقت اجتازت جماعات الاسكندر الأسوار على الجسور المتحركة. واستطاع الاسكندر بذلك الاستيلاء على المدينة. رغم ذلك، كان الصوريون قد جمعوا قواتهم من جديد في الشوارع وألقوا أنفسهم في التهلكة في قتال اتحاري. وكان عددهم يناهز السبعة آلاف. باع الاسكندر النساء والأطفال بالزاد وأخذ كل الشباب وكان يبلغ عددهم على الأقل ألفين. أما بالنسبة للأسرى فكانتوا كثيري العدد ومع أن غالبية السكان سبق ترحيلهم إلى قرطاجة فلم يكن هناك أقل من ثلاثة عشر ألفاً من الأسرى. هنا ما كان من مصير الصوريين الذين تحملوا بالشجاعة أكثر من الحكمة حصاراً عنيفاً دام سبعة أشهر...»

#### Bibliotheque historique XVII, 46

فيما عدا ذلك، ماذا نعرف أيضاً عن صور الفينيقية؟

إن الإدارة العامة للآثار في لبنان قد ركزت تحريراتها في نقطتين: الأولى في جنوب جزيرة صور القديمة ليس بعيداً عن الميناء الجنوبي أو الميناء المصري، والثانية انطلاقاً من حقل واسع من الحفريات على امتداد حاجز الاسكندر. فالواقع أن هذا الحاجز الذي يقطع مجرى التيارات الطبيعية قد احتفظ من جانبيه بكميات من الرمال التي شكلت كهباناً عملت شيئاً فشيئاً وعلى مر القرون على تقطيع الحاجز الشهير الذي أقامه الاسكندر.

وأخيراً هناك حملة جديدة من التنقيبات قام بها الأمير موريس شهاب المدير العام للآثار في لبنان، حيث باشر بعمليات السير لأول مرة في وسط الجزيرة القديمة.

ويفترض أن هذه الأبحاث الجديدة قد مكنت على الأقل من العثور على طبقتين أثريتين بالغتي الأهمية وعلى العناصر الكربونية التي تكونت بعد الحريقين المدمرتين: الأول بنهاية حصار سنة 574 (نيو خند نص) والثاني بنهاية حصار سنة 331 (الاسكتندر).

إن تراكم الرمال والوحول قد حال دون سير عميق في البحر حاوله القيام به في المكان المعتقد أنه الميناء الجنوبي.

كما توجد بقايا هدمتها عوامل الزمن من جسر كان فوق صخور كبيرة على الشاطئ. لكنني أعتقد أن بين هذه الصخور وساحل شبه الجزيرة جروفاً يمكن أن تكون محتفظة بمفاجآت هامة.



## الفصل السادس

### صيادون... حاضرة الفكر

خلافاً لصور لم تبدل صيدا (صيادون) موقعها على مر العصور بل بقيت دوماً فوق ذلك البروز الصخري الداخل في البحر حيث توجد المدينة الحالية والتي تمتاز أحياها القديمة بطابع غير للمدن الشرقية الصغيرة، هذه الأحياء التي طرأة عليها تحولات متعاقبة منذ زمن الإغريق فالروماني ثم العرب والصلبيين.

هناك اعتقاد بأن صيادون كانت قد أُسست قبل صور. ولكن تاريخها الساطع رغم كل شيء ينفيه اعترافان: اعتراف مرويات التوراة واعتراف المؤرخين الاغريق الذين لم يشيدوا بصمودها أمام الاسكندر مثل صور. وقد نستطيع تصور نفوذ صيادون إذا علمنا أن كثيراً من الكتاب قديماً كانوا عند الحديث عن الفينيقيين يشيرون إليهم باسم الصيادون. وكان الصيادون رؤاد قرطاجة، حيث أسسوا في عام 821 قبل الميلاد في خليج تونس مركز «كامب» التجاري.

والفنانون الصيادون هم من نحت تلك التواثيت المتجزئة العجيبة، المصرية الشكل، والإغريقية القديمة برسومها المتقوشة، والتي كانت تطلبها العائلات الفينيقية الكبيرة والعريقة على سواحل البحر المتوسط. عندما قام الاسكندر بحملته فتحت صيدا أبوابها وأرسلت له الهدايا حتى أنها جهزت (وربما على مضض) سفناً لمساعدة أسطوله في محاصرة صور عن طريق البحر. وربما كان السبب في ذلك هو اعتقاد الصيادون أن البطولة لا تجدهي نفعاً أمام خصم متوفّق وأنه من الأفضل الخضوع سلماً للمصير.

وبالواقع عندما اجتاح الفرس الساحل الفينيقي أواخر القرن السادس ق.م كانت صيادون قد قاومت حتى الانهيار، بينما اختارت صور في ذلك العصر الاستسلام. وبهذا الصدد يذكر ديودور الصقلي أن الصيادون من رجال ونساء وأطفال ومسنين عندما ثبت لهم أنه ليس بإمكانهم رد الفرس عن مدinetهم أضرموا بأنفسهم النيران في منازلهم وفي أسطولهم في الميناء وهكذا هلكوا في الحريق تحت أنقاض مدinetهم. وكان لدى الصيادون حماس متقد لفينيقيا بشكل عام، تجلّى عند بخارتهم الذين يقال أنهم ساهموا في ترحيل عدد كبير من سكان

صور المهاجرين على سفنهم للتخفييف من مذبحة الاسكندر.

هناك على مسافة قصيرة من الرأس الصخري الذي تقوم عليه المدينة ما زالت توجد أنقاض معبد إشمون. وكان الثالث الإلهي في صيدا يتألف من بعل وعشتروت وإشمون الذي كانت له منزلة ومهام الإله ملقارب في صور. وهناك فوق هضبة مطلة على معبد إشمون وعلى البحر توجد مقبرة كبيرة، تم تحريرها قبل عدة عقود من الزمن من قبل باحث الآثار الفرنسي «رينان» Renan.

والملاحظ أن القبور في هذه المقبرة الكبيرة قد تم نهبها. وهي وإن كانت فينيقية حقاً، أو من العصر الفينيقي، فلم تكن متماثلة تماماً. وأما ما يشير إلى الإعجاب فيها فهو تابوت حجري كبير اعتبر لفترة طويلة من الزمن قبر الملك حيرام، ولكن ليس هناك دليل على ذلك. إلا أنه في نفس الوقت من غير المستبعد أن حيرام ملك صور الكبير في القرن العاشر قبل الميلاد كان ملكاً لصيدون أيضاً. وهو الذي ذكرنا فيما سبق أنه كان صديقاً لسليمان والذي مخرط أساطيله البحار بحثاً عن الشروات البعيدة. ورغم التراجع الكبير على مدى عدة آلاف من السنين يبدو لنا أن صيدون قد تعمقت برفاية في العيش أكبر بكثير مما كانت عليه صور.

#### ● النظرية الذرية:

كان مأمير صيدون عن باقي المدن الفينيقية هو درجة الاهتمام بالبحث عن المعرفة. إذ يقال بأن النظرية الذرية كانت قد اكتشفت منذ 3000 سنة من قبل عالم صيدوني يدعى «موشيوس».

ومن المعتقد أيضاً أن جدول الضرب قد اشتهر في صيدون، وكذلك نظرية وتر المثلث. ويقال أن فيثاغورث كان قد أسس فيها مدرسته الشهيرة التي تقوم على الرياضيات بقدر ما تقوم على «السحر الخفي للأعداد». كما اشتهر الفيلسوف «بويتوس Boethos» الصيدوني ببحثه الذي يدور حول طبيعة الروح.

ولم تزل صيدا في القرن الحالي تلك المدينة الحديثة التي تشمخ بكل عظمة على طول الطرق المؤدية إلى المدينة القديمة.

وإن أكثر ما يلفت الانتباه حالياً هو بعض آثار الصليبيين ومنها ما يدعى حصن البحر الذي يربض على صخرة يقال أن معبداً فينيقياً كان يقوم عليها فيما مضى. ويشرف حصن البحر على مدخل المدينة ويحصل باليابسة بواسطة جسر حجري له دعائم قوية. ويعتبر هذا الحصن مع الجسر نموذجاً رائعاً عن فن العمارة الأوروبي في الشرق الأدنى.

## الفصل السابع

### بيروت أو دوام الإزدهار

تقوم بيروت الحالية في نفس الموقع الذي كانت فيه المدينة الفينيقية القديمة «بيريتوس» التي كانت بلا ريب أقل شهرة من مدن الساحل الأخرى. ولكن هذا لا يعني أن تأسيسها لم يكن قدّيماً جداً، فمن المعروف أن «سنخونيات» المؤرخ الأول في العالم كان قد ولد فيها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ومن المفترض تبعاً لذلك أن علم التاريخ والجغرافيا كان قد ظهر على يد الفينيقيين.

ومع أنه لم يبق شيء من «بيريتوس» الفينيقية فإن لبنان اليوم يستطيع أن يعلمنا الكثير عن ماضيها، لبنان الذي يحده اليوم جيران لا يكفّ حقدهم وغليانهم عن إثارة مشاكل مستمرة كما كان الحال مع فينيقيا سالفاً.

#### ● البيرالية:

يأخذ لبنان اليوم، كما كان أيام الفينيقيين، بالتقاليد البيرالية الاقتصادية التي وجدت قبل ثلاثة آلاف سنة. وعاصمته الحالية بيروت تحوي على شركات كبيرة مالية وتجارية. وكما كان في صور قدّيماً تشدّ فيها أبنية ترتفع فوق منحدرات صخرية لساحل شديد التقطّع وفي ميناء بيروت توجد منطقة حرة تبلغ مساحتها 125 ألف متراً مربعاً تسمح للسفن من مختلف أنحاء العالم بتحميل أو تفريغ بضائعها. وليس بعيداً عن سفن الشركات الكبيرة ترسو في الميناء القديم آخر المراكب الشراعية الموروثة عن التراث الفينيقي. ومن وقت إلى آخر تقوم هذه المراكب، بكل تأنٍ بنقل حمولات من الحبوب من نقطة إلى أخرى على الساحل.

#### ● نزعة التوسيع:

في كل مكان نجد هذه الرغبة في التوسيع الاقتصادي وهذا الشاطط في الأعمال الذي تستدل عليه من خلال الأعداد اللامحدودة من تلك الصفائح التحاسية (الليافطات) ومن خلال أبواب المنازل، حيث يمكننا أن نرى، سواء بالفرنسية أو الانكليزية أو بالعربية عناوين شركات الرأسماليين ذوي الشهرة الكبيرة والممتلكات

الخفية، وتقدم هذه الشركات خدماتها للرأسماليين الدوليين أو أثرياء الإمارات العربية الذين يوظفون الفاصل من مدخلاتهم البترولية.

وتشتمر رؤوس أموال هذه الشركات على نطاق واسع كما كان في أيام الصينيين في مشاريع كبيرة من أبرزها مجال الملاحة الجوية التي تحمل شيئاً فشيئاً مكانة الملاحة البحرية.

قدماً كان حيرام يقول رحلات السفن التي كانت تبحر إلى أقصى العالم المعروف حينذاك، والتي كانت تستغرق ثلاث سنوات (كما مر فيما سبق) واليوم يقول لبنان برنامج امتلاك الطائرات الحديثة التي تجوب سماء آسيا وأوروبا وأفريقيا وأصله إليها خلال بضع ساعات مع الموانئ الساحلية الصينية القديمة.

والمحير بالذكر أن لبنان يقدر ما هو أرض الاستقبال والترحيب، كان ولم يزل بالدرجة الأولى أرض الهجرة.

### ● الأساليب التجارية الحالية:

ماذا يفعل اللبنانيون في مغاراتهم؟... لقد توزعوا إلى مجموعات صغيرة من التجار الأحرار. ومن يتجلو في مدينة «ريو Rio» أو مدينة «داكار Dakar» سرعان ما يرى مخازن الأقمشة والبقاليات التي يمتلكونها وهي تغضّ دوماً بالناس وبالبضائع. ويمكن للإنسان أن يشتري من محلاتهم ماشاء بأحسب الأسعار أو أعلى بقليل لمن أراد الاستدانة. وباتباعهم أسلوب البيع بالدين، الذي عروفة في أرض الوطن، يحافظ التجار اللبنانيون اليوم في مدن كثيرة من العالم على وضعهم كتاجر صغار أو متوسطين أمام السيطرة المتفاقمة للمتاجر الكبيرة والمجمعات العملاقة.

### ● الأساليب التجارية القديمة:

إن ما ذكرناه آنفاً من البيع بالدين طريقة ترجع إلى أزمنة قديمة وليست وليدة هذا العصر، ويبدو أن الصينيين لم يكونوا يترددون في ائتمان شركائهم على ديون في مختلف أماكن وجودهم. وكانت طريقة التعامل التجاري مع سكان السواحل الغربية أو الجديدة تمّ كما يلي: ينزل التجار الصينيون من سفنهم ماحملوه من بضائع ويضعونها على رمال الشاطئ مباشرة في حين يرقب سكان الساحل ذلك من بعيد. ثم يعود التجار إلى سفنهم مبتعدين بها قليلاً في البحر. وحين يطمئن السكان لذلك يقتربون من البضاعة ويتأملونها ثم يضعون إلى جانبها قيمة لها ربما تكون مقداراً من الذهب أو مادة أخرى وينسحبون بعيداً. يعود بعدها الصينيون

(ربما في الصباح التالي) لينظروا ما وضع زبائنه من قيمة. فإن اقتنعوا بها كانوا يأخذونها وينصرفون. وإن لم تعجبهم تركوا كل شيء في مكانه وابتعدوا في البحر مرة أخرى، فيعود عندها الشركاء (أو الزبائن) لزيادة شيء على القيمة وينسحبون مجدداً. وربما يتكرر ذلك عدة مرات حتى إذا اقتنع الفينيقيون بهذا المقابل أخذوه والصرفوا عائدین.

هذه التجارة الصامنة كانت تستغرق في الغالب عدة أيام. وكما نرى كان الفينيقيون يقومون فيها بالجاذفة الأولى عندما يتركون بضائعهم ويتبعون<sup>(\*)</sup>.

هذه الأساليب القديمة قد حلّت محلّها اليوم دراسات للأسوق برع فيها اللبنانيون، ولكنها أيضاً تتطلب بعض المجازفات التمهيدية. بيروت، هذه الصورة المصغرة للبنان الحديث وللتقاليد الفينيقية عرفت كيف تبقى مكاناً مرموقاً للقاءات الإنسانية ومختلف المذاهب الدينية وللآراء الحرة.

وقد حافظت بعض العائلات الكبيرة على فنون الاستقبالات اللبقة أمثل عائلة فرعون وحلو وشهاب والصلح.

ولاشك أن ما يذوقونه على موائدهم من الأطعمة التي يأتي بعضها من مختلف أنحاء العالم كان قد استمتع بهمّه قديماً أصحاب السفن الأخرىاء في صور وصيدا وغيرهما. كما أن الطريقة في التعبير وتبادل الآراء تشير إلىوعي وخبرة بمشاكل العالم لا يستهان بهما.

### ● والإيماء أيضاً...

إضافة لما ذكرنا آنفاً عرفت عن اللبنانيين ممارسة أسلوب الإيماء. فيما أن النساء كانت منذ الصغر تطبع على أسرارهم كان لا بد للفينيقين أن يعرفوا - مثل لبناني اليوم - فن التفاصيم بين بعضهم البعض دونما كلام. على سبيل المثال: حركة حاجب غير محسوسة، هزة رأس مميزة، حركة معينة باليدين، أو شكل مامن أشكال الصمت، وغير ذلك... هذه الحركات أو الرموز تبقى مواد القانون الذي كان سهل المنال بالنسبة

(\*) هذه التجارة الصامنة التي كانت متاحة خاصة مع سكان السواحل الإفريقية أول ماورد وصفها عند هيرودوت الذي عاصر المرايا الفينيقية في القرن الخامس قبل الميلاد.

انظر كتاب: الفينيقيون وأميركا، فصول شغلت العالم. د. عبد الله الحلبي. طبعة أولى. بيروت 1991. ص. 159. - الحق -

للشريقيين فقط. فإذا وجدت جماعة بين أنس يقتيدون بالتعبير المنطقي شعر أفرادها بشيء من الرقة أو التمثيل<sup>(\*)</sup>.

ربما تعتبر هذه الأمور التي ذكرناها أحد مفاتيح النجاح في مشاريع الفيتنيين وواحداً من أسباب نجاح الهجرة اللبنانية الكبيرة في عصرنا هذا.

---

(\*) لاشك أن هذه الحركات والرموز المعبر عنها هنا أمر معروف لدى سكان البلاد السورية عامة .. كما يعرف القارئ المطلع .. ولم يقتصر على الفيتنيين أو ليبانيي اليوم - المحقق -

## الفصل الثامن التأثيرات الفنية وفن التركيب

كان موقع المدن الفينيقية عند عقدة طرق عالمية قد أفسح المجال لدى فنيقيي الشرق لاستقبال تأثيرات من الحضارات المجاورة. حيث أخذوا بهذه التأثيرات وجعلوا منها نوعاً من التركيب الحضاري.

### ● أهم التأثيرات:

من جهة الغرب كانت هناك تأثيرات تأثير كريتية وميكانيّة وقبرصية ثم من الشمال كانت تأثيرات سبئية. ولكن أهم وأعمق منها كانت تأثيرات بلاد الرافدين. كما أن بعض الكتوز الفنية تشير إلى تأثر بالحضارة المصرية. ولكن بدءاً من القرن الخامس قبل الميلاد بدأ التأثير الإغريقي بالظهور تدريجياً ريشما كانت حملة الاسكندر الكبير سنة 332 التي فتحت الباب واسعاً أمام تيار الهلنستية الذي كان له أعمق الأثر.

### ● تابوت أحيرام الحجري:

من أبرز الأمثلة على التأثيرات المشتركة في الفن الفينيقي كان ما وقع اختياري عليه وهو: التابوت الحجري الضخم لملك صور أحيرام من القرن الثاني عشر ق.م. ثم تلك التوابيت الحجرية التي تُنسب إلى صيدون في القرن الخامس ق.م.

عثر على تابوت أحيرام في المقبرة الملكية الكبيرة في جبيل (بيبلوس) وقد وضع في إحدى القاعات التحتية بمصحف بيروت، وقد وجدت أربعة أسود منحوتة باتفاقان، ربما كانت تحمل التابوت، وهي من التأثير الحثي والرافدي يمثل المشهد الرئيسي المنحوت على الجانب الأكبر من التابوت الحجري الملك أحيرام فوق عرشه. والواقع أن هذا العرش المحمول على أسود مجتاحة والملابس التي كان يرتديها أحيرام وغطاء رأسه وخصيلات لحيته كلها تحمل ميزات الفن بلاد الرافدين.

يحمل أحيرام في يده زهرة لوتس منكسة، وهي إشارة الموت. والمعروف أن هذه الزهرة وكل زهورات اللوتس الأخرى ذات الإفريز العلوي المنتمي هي من التأثير المصري. وكذلك وضع أمام الملك ما يشبه الطاولة وعليها فاكهة. وظاهر حوله أفراد

حاشيته من ندماء ووزراء وخدم، ويظهر التأثير المصري في ألسنتهم. وللاحظ بشكل خاص ارتداءهم ذلك القفطان الشرقي الكبير الذي أصبح فيما بعد الدلالة المميزة للتبلاء والكهنة الفينيقيين.

أما على الجانب الصغير من التابوت فترى ناتجات يشددون شعورهن ويختذلن صدورهن وقد ارتدن ذلك اللباس المسمى «سق» الذي استخدم كلباس للحزن عند العبرانيين والفينيقيين. وفي الأعلى إطار يحيط بالتابوت من جهاته يوحى للناظر بمجموعه من السلال الحبلية، وعلى الأرجح يسلسلة من الأمواج المتالية كرمز للمغامرات البحرية. ويحمل غطاء التابوت تلك الكتابة التي ورد نصها فيما سبق.

الواقع أنه بالرغم من هذه التأثيرات الفنية المختلفة برب في العناصر المكونة لنقوش هذا التابوت بجماعتها تناسق وأصالحة إلى درجة كبيرة. ويدو أن الفنان الذي أنجزه قد أخذ الأجمل من كل المصادر التي استوحى منها عمله.

### ● التوايا الحجرية الصيدونية:

إذا انتقلنا من جبيل (بيلوس) القرن الثاني عشر إلى صيدون القرن الخامس قبل الميلاد فإن أكثر ما يشير الإعجاب هو تلك التوايا الحجرية التي تنساب إلى الطراز الصيدوني.

خلال تنقلاتي على الطرق الساحلية التي ارتادها الفينيقيون شاهدت اثنين من هذه التوايا كان قد تم اكتشافهما في شرقى صقلية وهماليوم في متحف باليرمو، وتابوتاً آخر كان قد عثر عليه في قادس. كما يوجد بعض منها في متحف اللوفر وتعتبر من ممتلكات مديرية الآثار الشرقية القديمة. وكل هذه التوايا تم تحتها بنفس الأسلوب، والتأثير المصري ظاهر بالنسبة لشكل القاعدة. ولكن بدلاً من رأس التوايا المصرية المتمنم والمحاط بعصابات تهدى هنا وجوهاً حقيقة صارمة، تُعزى إما إلى فنانين إغريق من العصر السابق أو إلى فنانين فينيقيين تأثروا بهذه المدرسة.

هذه التوايا يتوقف ظهورها في الزمن الذي سعى فيه اليونان لتجميل الهيكل والوجه البشري نتيجة سرقة هرقل على الجمال الفائق اللدن مسيئين بذلك إلى الواقعية والروح وصدق التعبير.

ومن الممكن بالنسبة للعالم التقىاني أو صاحب الفراسة أن يحدد هوية كل من هذه الوجوه.

وإن أكثر ما أثار دهشتني من بينها وجه رجل بدین ذي خدين متتفخين وذقن

شائكة وعيين واسعتين كأنهما تریدان التهام العالم. ويبدو له أنف شريف روماني وفم شهوانى. كما تبدو على وجهه الجرأة، وهذا الوجه يبيح لنا أن نتصور صاحب سفن فينيقى كبير تمخر أساطيله البحار وكان يعد أحد الرجال الكبار في ذلك العصر. ثم هناك وجه آخر، وجه رجل شاب خشن متميز، لابد أنه لم يكن رجل الإداره الذي يقع في المكاتب، وإنما ذلك الذي يبقى على رأس العمل كقائد في الجيش أو كأحد ربابطة السفن.

أما تلك المرأة الشابة التي تبدو على وجهها الرزانة والوقار فهي الإلهه الأم في الوسط العائلي.

### ● تماثيل جبيل (بيلوس) الصغيرة:

إن استقبال الفينيقيين لبعض التأثيرات الفنية من حيرائهم لم يؤثر على إمكانياتهم الإبداعية. إذ اتجروا روابع فنية في غاية الجمال يشفافيها وتحريدها وحداثتها الحقيقة. وأهم ما يجدر ذكره هو تلك التماثيل الصغيرة التي عثر عليها في جبيل بعد الأنصاب (الرسلات) الذي ذكر فيما سبق. وهي محفوظة في متحف بيروت. وهي إبداع فينيقى صرف. ولا يمكن لأى خبير أن يلاحظ أية علاقة قريبة كانت أم بعيدة بين هذه التماثيل وبين فنون الحميران الكبار الذين سبق الحديث عن تأثيرهم.

صُنعت هذه التماثيل من خلاصط معدنية لابد أنها كانت تحوي على البرونز والخدييد، حيث أن الأكسدة التي تكونت بمرور الزمن أعطتها ألواناً متدرجة، فيها أحضر شاحب وألوان برقاية جميلة للغاية.

وقد عثر على عدد كبير من هذه التماثيل التي تختلف ارتفاعاتها ما بين 10 و 20 سنتيمتراً. وكانت بالأصل مفطاة بأوراق من الذهب لم تزل تحفظ بأجزاء بسيطة منها. يبقى غير معروف إن كانت هذه التماثيل نذرية أو صوراً رمزية إلهية وإن كان لها نوع من السلطة الدينية الوهمية أو لا...

وهي عدا عن جمالها الفني تتميز بصفتين آخرتين:

الأولى أنها تبرز لنا لباساً خاصاً هو ذلك القفطان بدون حزام وفي شكل مبتور. والجدير بالذكر أن مختلف طبقات الكهنة في المعابد كانوا يرتدون القفطان الطويل، الأمر الذي نستنتج منه أن هذه التماثيل ربما ترمز إلى آلهة أو كهنة. رغم أنني أميل إلى الاعتقاد بأنها تمثل جنوداً أو قواد حرب.

والصفة الثانية هي تلك القلسسة العالية. ويبدو أن الفينيقيين هم أول من نشر هذا التموج من لباس الرأس. وهي تشبه الطريوش المرتفع الذي كان يشكله الصارم، مع أو بدون زينة إضافية، رمزاً للسلطة. وقد استمر هذا التقليد عبر العصور مع اختلاف في الشكل حيث يمثله في زماننا الحالي التابع الأسقفي والقلسسة البابوية.

لقد ظل البحارة في العالم حتى القرن الماضي يعتمرون تلك القلسسة الفينيقية الكبيرة الحنية إلى الأمام بشكلها الطري والتي أصبحت بمرور الزمن رمزاً العمل. كما أصبحت رمزاً الحكم الديمocrاطي منذ أن اتخذها القضاة الأوائل في جمهورية البندقية. كما نجدها على رؤوس الذين يرأسون كل المختارات الفرنسية.

وبالنتيجة يمكن القول أن الفينيقيين لم يتركوا لنا سوى القليل من الروائع الفنية التي تعبر عن شكل من الوحدة الوطنية. وهذا بالواقع غير مستغرب لأنه في الحقيقة لم يكن يوجد وطن فني يليق بالمعنى الدقيق للكلمة، بل كانت هناك مدن مستقلة عن بعضها البعض شكلت كل منها شبه دولة لنفسها وتحضى بشكل أساسى عند إقامة علاقاتها الخارجية لرغباتها المحلية ومصالحها الخاصة دون أن تجد نفسها مضطورة لاستشارة المدن المجاورة.

و بما أن الفينيقيين كانوا تجاراً كباراً فقد كان من جملة ما نقلوه بالدرجة الأولى التحف الفنية وتبادلوا مع الآخرين القيم الثقافية. فكانوا مثلاً يحصلون على التحف الفنية المصرية مقابل مواد خام مثل خشب الصنوبر. وكانت بلا شك يقتلون عمليات ترتيب التحف الفنية سواء في المستودعات أو في السفن التي تنقلها إلى الطرف الآخر من البحر المتوسط. وهذا يعني أنهم كانوا منذ 3000 سنة قد طوروا صناعة تعتبر اليوم على درجة من الأهمية، ألا وهي صناعة النقل الشاق للتحف الفنية. وفيما بعد تابعت قرطاجة في هذه الطريق مصيرة الذهب وبعض النعام وبعض الأشياء الأخرى المحلية مقابل المزهريات اليونانية أو الأسلحة المرضعة في سيراكوز.

كانت المخازن في موانئ الفينيقيين بمثابة المعارض العالمية الكبيرة في أيامنا هذه، والأثار الفنية التي تجتمع فيها كان يقبل على شرائها جماعو التحف ومتذوقر الأشياء القديمة بحيث يمكن القول بأن الفينيقيين كانوا من أوائل الرواد في صناعة وتجارة الكماليات والتقائس.

ومازال لبنان في أيامنا هذه يعتبر سوقاً حرة للآثار الفنية، ويعتبر أمراً عادياً أن نجد عند تجارة العاديّات نقوداً أثرية وأختاماً من الحجر الزجاجي الأسود وقوارير من الزجاج القديم، دون أن تكون كلها نسخاً حديثة مصنوعة في دمشق.

## ● بعلبك:

ووجدت أنه من المستحسن الدخول إلى هذه المخازن بانتظار الساعة التي تذهب فيها بيروت كلها إلى بعلبك فلا يسمع إلا صرير عجلات السيارات. في معابد بعلبك يقام كل صيف المهرجان الفني الشهير الذي يجذب إلى لبنان فنانين ومؤلفين بالموسيقى وجامعي الآثار الدوليين.

وهكذا حُلِّدت تلك المواهب التي نبت في أرض فنيقيا - - - سُتْ تلاقت الفنون - بفضل دأب ومثابرة أنصار التراث الأدبي الذين يقومون كل سنة بهذا الإنجاز الجبار، إلا وهو المهرجان الفتى في بعلبك.

إن جمهور المهرجان ليتساءل عن ذلك الشعور السحري الذي يستولي عليه فجأة لدى مشاهدة لوحة «Bejart» التي تمثل «بروميروس Prometheus» المكبل - إله النار الذي يرمي إلى الحضارة البشرية الأولى - أو لدى استماعه إلى أوركسترا برلين في أعظم الأنماض الكلاسيكية في العالم. في صفاء ذلك الليل المرصع بالنجوم يتضمن تيار من الانفعال المجهول إلى مواهب أولئك الفنانين المتفوقين.

ربما كان هذا هبة من الإله بعل الذي كان فيما مضى سيد هذه الأماكن. وما زالت القاعدة الأسطورية لمعبد الشمس القديم تحت هذه الأعمدة الرومانية بسرها العجيب وأحجارها العملاقة ذات الهندسة المتقنة. ويبلغ طول بعض هذه الأحجار 20 متراً. ويزن أكثر من 700000 كيلوغراماً. أي أنه كان يلزم لنقلها جهد أربعين ألفاً من الرجال مجتمعين، والواقع أن هذه الأحجار طرحت بالنسبة لماهيتنا تساؤلات أكبر بكثير من التساؤلات حول تمثيل جزيرة «Paques». ورغم هذه التساؤلات فهي تبرهن لنا أن فنيقياً كانت قد شهدت كمالاً في الفن مصحوباً بتقنية عالية في عصر كان لم ينزل فيه الكلتيون في أوروبا البدائية يدخلون بدايات عصر الحديد ويدفون موتأهم في قبور تحت أكوام من الحجارة أو التراب.



## **الفصل التاسع**

### **المبتكرات المنسوبة إلى الفينيقيين**

عدا عن الأجدية الصوتية تُعزى إلى الفينيقيين ابتكارات كثيرة وإسهامات عديدة في تطور الحضارة البشرية.

#### **● الملاحة:**

حققت الملاحة بفضل الفينيقيين انطلاقة جديدة. فقد كانت حتى الألف الثاني قبل الميلاد مقتصرة على الملاحة النهرية التي كان المصريون يقومون بها في نهر النيل خلال الزمن الذي وجدت فيه حضارة الميكانيين وشعوب أخرى في المعرض الشرقي للبحر المتوسط<sup>(\*)</sup>.

يُعد الفينيقيون البحارة الأوائل في العصر القديم، الذين جازفوا بأنفسهم في عرض البحر المتوسط الغربي وتوغلوا في الخط الأطلسي.

#### **● الفلك:**

يبدو أن علم الفلك كان مألوفاً بالنسبة إليهم. ومن أبرز الشواهد على ذلك أن نجمة القطب بقى زماناً طويلاً تدعى «النجمة الفينيقية».

#### **● فن تشييد المعابد والمدن:**

كما يُعزى إلى الفينيقيين فن قطع الحجر وتحته من أجل البناء، كما رأينا في بعلبك. ومنذ إقامة البيوت الحضرية الأولى في جبيل حافظوا على تقدمهم على مر القرون. وأبرز الشواهد على مهارتهم هو اعتماد سليمان على مهندسين وبنائين صوريين لإقامة معبد أورشليم، أجمل معابد عصره.

#### **● المواد الثمينة... الخلبي وفن الصياغة:**

مارس الفينيقيون صناعة وتجارة المواد الثمينة ويرعوا فيها. ولم تغفل النصوص

(\*) من الثابت أن ملاحة السومريين في مياه الخليج الفارسي تعود لأقدم من ذلك الزمن. حيث وجدت منذ أواسط الألف الثالث علاقات تجارية مع مناطق تقع خارج الخليج - المحقق -

التوراتية ذكر ذلك. فكانوا يشترون المواد الخام، وخاصة الذهب، وينتجون منها مختلف التحف التجارية، وكانت لديهم بصورة خاصة مهارة في صنع الخل المفرغة التي قد تكون من أوراق الذهب أو من فتائل معدنية. وهذا النوع من الخل وجد في مختلف الأماكن الساحلية التي عرفها الفينيقيون والقرطاجيون.

### ● السبيح:

تعمت منسوجات الفينيقيين القطبية والصوفية بالجلودة وصارت لها شهرة، حتى أن رجال ونساء طبقة الأشراف الرومان كانوا يتهاقون على منسوجات صور الراقصة.

### ● البرونز وال الحديد:

يقي الاعتقاد سائداً زمناً طويلاً بأن الفينيقيين هم الذين ابتكرروا معدن البرونز. ولكن الواقع هو أن عصر البرونز كان قد سبقهم ببضعة قرون. ولكنهم على الأقل ضمّنوا لأنفسهم استقلاليتهم في تحضير العناصر اللازمة ل الخليطة البرونز. فالتحاس كانوا يستوردونه إما من جزيرة قبرص أو من «تارتيشوس Tartessos = ترشيش في شبه جزيرة إليريا». والقصدير كان يرد بشكل رئيسي من جزر البحار الباردة (Cassiterides). وعند دخول عصر الحديد سعى الفينيقيون لتأمين موقع لأنفسهم في المناطق المنتجة لخامات الحديد مثل جنوب إسبانيا وجنوب غرب سردينيا حيث اشتهرت مناجم تلك المنطقة (Monte Sirai) بنشاطها المستمر.

### ● الصياغ الأرجواني:

كانت للصياغ الأرجواني أهمية كبيرة لزمن طويل في العالم اليوناني الروماني بصورة رئيسية. وكان لهذا اللون ارتباط وثيق بذكريات السلطة والثراء. ولم يُغفل هوميروس ذكره في الإلياذة (XXII) وهو يصف شخصية «أندروماك Andromache» بقوله: «تسجع على التول داخل منزلها العالي معطفاً مبطناً أرجواني اللون وتتر على رسمًا مختلفاً...».

وقد اعتبر اليونان أن الفينيقيين هم الذين أوجدوا الصياغ الأرجواني. وربما كان إيجاده مرتبطاً بأسطورة تقول أن الإله ملقارات نفسه قد اكتشفه بالصدفة عند رؤيه أنف كلبه وقد اكتسب لوناً أرجوانياً من الأصداف حيث كان يتنزه على الشاطئ. وقد دعي هذا النوع من الأصداف «المرينق» أو «أصداف الأرجوان». وقد

ذكرها ياسهاب العالم الروماني «بلينيوس الأكبر = بليني» في مؤلفه: «التاريخ الطبيعي». وقد عثر في أطراف الموانئ الفينيقية على أكوام هائلة من الأصداف، وهي دليل الترف والمدة الطويلة التي عاشتها صناعة الصباغ الأرجواني في المدن الفينيقية.

والأصداف التي كان البحارة الفينيقيون يجمعونها لم تكن كلها تنقل إلى صور أو جاراتها فحسب، بل أن هناك مراكز لهذه الصناعة أقامها الفينيقيون في مناطق أخرى من سواحل المتوسط. ويبدو أنهم استطاعوا لمدة طويلة كتمان سرّ هذه الصناعة وبالتالي احتكار الإنتاج. إلا أن هناك معلومات عامة دونها بعض الكتاب من ذلك العصر يفهم منها أنه لم يكن يستخرج من كل صدفة سوى بعض قطرات من العصارة الملونة الموجودة في غدة خاصة. وكان الفينيقيون يعرفون تماماً موقع هذه الغدة في القوقة. ومن الجدير ذكره في الواقع أن الأصداف التي عثر عليها وُجدت مشقوية من جانبها. ولابد أن هذا الثقب كانت تستخرج منه الغدة التümينة مباشرة. وللحصول على الصباغ الأرجواني الجميل كانوا يتركون الخلاصنة الغذائية تعفن في الشمس. ولذلك يرى أن الهواء الحيط بالمدن الفينيقية - وخاصة صور - كانت تشوّيه رائحة كريهة.

### ● هل اخترع الفينيقيون الزجاج؟...

كان «بلينيوس الأكبر = بليني» في مؤلفه الأنف الذكر هو الذي نسب إلى الفينيقين اختراع الزجاج. وروى في ذلك أن بعض التجار من الساحل الفينيقي نزلوا مرة على الشاطئ ليطبخوا وجبة طعام لهم. ولما لم يجدوا أحجاراً يصنعون منها موقداً - كما هو معروف في أيامنا هذه - يقال أنهم استخدموه بعض كتل من كربونات الصوديوم التي كانت في حمولتهم. وعند احتلاطها مع رمال الشاطئ وتعرضها لحرارة النار تحولت إلى مادة مائعة. وبعدها بردت هذه المادة يقال أن ماتتج منها كان هو الزجاج.

لقد كان لهذه الأسطورة تأثير ظاهر في حينه، ورسمت في أذهان بعض الكتاب القدماء. إذ يقول سترايون أيضاً مايدعم هذه الفكرة بأن الساحل الشهير الذي يحتوي على رمال صالحة تماماً للزجاج هو تلك المنطقة بين عكا وبين صور. كما ثهد روايات مشابهة عند كل من (تاكيتوس Tacitus) - في القرن الثاني الميلادي - وإيسيدوروس Isidorus - في القرن السابع الميلادي.

أما علم الآثار فلا يقدم لنا سوى القليل من الأشياء التي تؤيد هذا الرعم. إذ توجد في متحف بيروت مطرة زجاجية ذات مقابض، وتعود لحوالي الد 1000 قبل الميلاد. كما توجد في متاحف أخرى في العالم، وخاصة في الوفر، مطرات أخرى مسطحة ذات طابع فني، بعضها يمقابض والبعض من دونها، وتعتبر شواهد واضحة على تحسين الشفافية في صنع الزجاج. ولكن قلما نجد زجاجاً شفافاً بالفعل قبل العصر الروماني.

الواقع أن هناك أدوات زجاجية صنعت في مصر القديمة. وكانت العجينة الزجاجية كثيفة استقىده منها في صنع آثار فنية حقيقة كانت تكتسب درجات مختلفة من الألوان بفضل بعض الأملاح المعدنية ومن المؤكد أن صناعة الزجاج كانت سائدة خلال الألف الثاني في بلاد الرافدين<sup>(\*)</sup>. وفي المتحف البريطاني يمكننا مشاهدة العديد من الألواح الفخارية التي كانت في مكتبة آشور بانيبال الشهيرة في نينوى، والتي تحمل نصوصاً مسمارية تتعلق بتعليمات عن طريقة صنع الزجاج.

وإذا فتشنا في النصوص التوراتية وجدنا أن الزجاج لم يذكر سوى مرة واحدة في سفر أيوب (17: 28) عندما يشبه حكمة الرجل الوقور بالذهب والـ «زكوكيت» أي الزجاج، مما يدل على أنه كان في ذلك الزمن مادة نادرة وثمينة وضاعت جنباً إلى جنب مع الذهب.

يمكن الاعتقاد أن الزجاج بشكله القديم كان في البدء نوعاً من الخزف تشكّل بالصدفة من امتزاج رماد القلوبيات من موقد الحزافين مع الرمل الصوّان. وكان في البدء عديم الشفافية، واقتصرت الفائدة منه زمناً طويلاً على صنع بعض الحلبي والأدوات المنزلية والتحف والقوارير. وهذه القوارير التي كانت غالباً أشبه بالجرار الصغيرة، يعتقد أنها كانت تصنع على هيكل من الرمل المتكلّل ثم تحرق وبعد أن تصبح صلبة يخرج الرمل من داخلها بتفتيته عن طريق العنق.

أما الحلبي واللاتي والتوط المصنوعة من الزجاج فقد برع فيها فينيقيو الغرب وأصبحت اختصاصاً عندهم. فمن قرطاجة غمرها أفريقيا وحوض البحر المتوسط

(\*) أغلب الأبحاث تجمع على أن اكتشاف صناعة الزجاج كان أصلاً في بلاد الرافدين خلال الألف الثالث. واستناداً للدراسات الحديثة يرجح أن أهل الرافدين أعطوا سر هذه الصناعة إلى المصريين الذين نقلوها بدورهم إلى الفينيقيين فيما بعد. قارن لذلك: Maria Luisa Uberti في كتاب:

Die Phoenizier, Hamburg 1988, p 474

الغربي بوسائل الرينة الزجاجية الرخيصة التي سبقت فكرة المختلي المزيفة. إن الشيء الذي لا بد من ذكره هو أن صناعة الزجاج، التي يفخر الشرق الأدنى بإيجادها، قد عمل الفينيقيون على تطويرها. وإليهم يعود الفضل في ابتكار طريقة النفع في صنع الأواني الزجاجية، التي اعتبرت ثورة في هذه الصناعة. وكان ذلك في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد ويمكننا أن نسلم بأن ورشات الزجاج الفينيقية أو السورية عموماً كانت عند بداية العصر الروماني في مقدمة الورشات الأخرى في العالم كافة.

استطاع الفينيقيون في البداية عن طريق النفع بواسطة قصبة صنع أسطوانات زجاجية مفرغة تمكناً أن يصنعوا منها الزجاجات والقوارير والمطرات وغيرها، وكانت تزخرف أحياناً خلال تعريضها للحرارة بحال زجاجية صغيرة تسمح بترتيب الألوان والرسوم التزيينية. هذا وإن أرباب الصناعة الزجاجية المعاصرين لم يقوموا بشيء آخر خلافاً لذلك.

### ● استخراج المياه العذبة من البحر:

إنها صناعة حديثة للغاية، ألا وهي صناعة التقليب في البحار بالقرب من السواحل، والتي كان الفينيقيون روادها قبل ثلاثين قرناً تقريباً.

في أيامنا هذه يتم البحث عن البترول، لكن الماء العذب له أيضاً أهمية كبيرة، بل هو عنصر حيوي لا يستغني عنه. تلك كانت حالة المدن الفينيقية التي شيدت على جزر أو أشيه جزر تحتاج إلى مقدرات كبيرة من الماء العذب.

وكان أن سكان إحدى هذه الجزر وهي أرواد لاحظوا هنا وهناك فوراً غريباً على وجه ماء البحر ثم تبين لهم أن منابع مياه عذبة تخرج من قاع البحر على أعماق قليلة. وتوصلوا إلى استغلال هذه المياه بتشييد قمع برونزى كبير مقلوب فوق النبع ووصل القمع بأنبوب طري من الجلد مدهون بالزفت من أجل الكتمانة ومرفوع حتى سطح الماء بحيث يعبأ منه الماء العذب في أوعية للنقل. ولم يقتصر ذلك على جزيرة أرواد فحسب بل وجدت هذه الينابيع على طول الساحل الفينيقي. وهكذا أحرز الفينيقيون قفزة حضارية في هذا المجال وكل المجالات الأخرى، بإيجاد تقنيات جديدة وتحسين التقنيات الموجودة. ومن ذلك مالم يزل معروفاً حتى أيامنا هذه.

وقد أثبتت الأجيال اللاحقة من الفينيقيين الذين استقروا في أفريقيا وبالتحديد قرطاجة، وجود ذهنية مبدعة وفكرة خلاق، إذ أتقنوا فنون الزراعة واعتنوا بها بحيث حفظت انطلاقه رائعة في المخوض الغربي للبحر المتوسط حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.

ويشكل عام كانت إسهامات الفينيقيين في مجالات تقدم البشرية كبيرة، لاسيما وأن وسيلة نقل الفكر والحضارة كانت بين أيديهم، ألا وهي الأبجدية المبسطة.

الجزء الثاني

مع فينيقيي الشرق  
على طريق القصدور



## الفصل العاشر

### أساطير وخرافات وحقائق

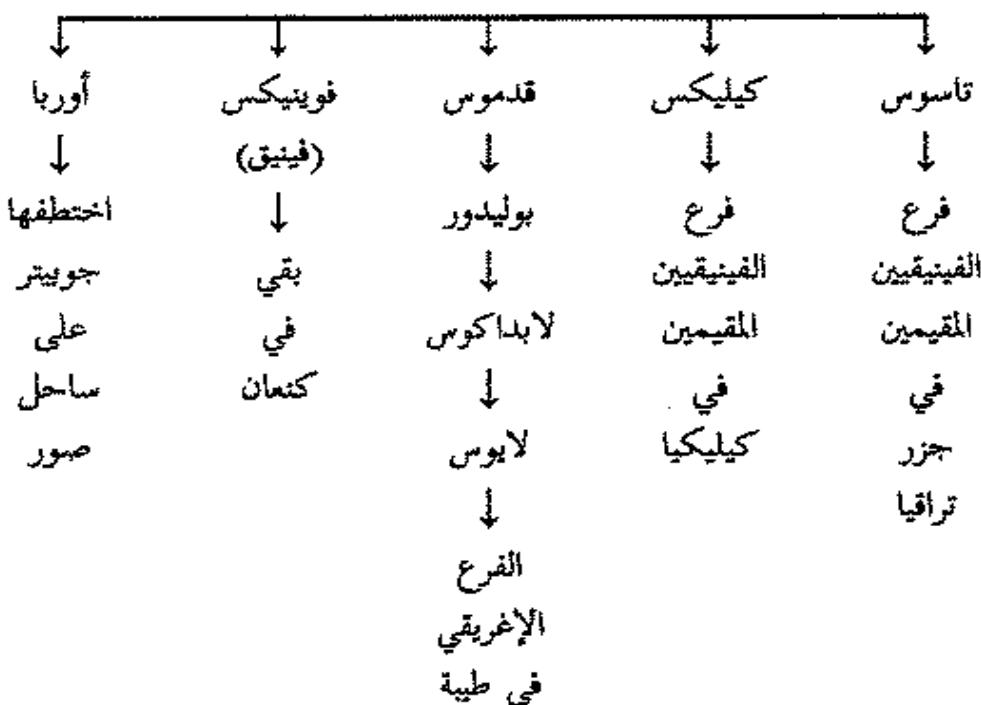
#### عن الامتداد الفينيقي

في استعراض أسباب التوسع الفينيقي تطالعنا أسطورتان خرافيتان هما: اختطاف جوبير لأوربا، ومقامات قدموس، ذلك البناء الشيطاني الذي بني مدنًا على سواحل البحر المتوسط.

وقد حاولت وضع خوذج توضيحي لسلالة قدموس شقيق أوربا وابن آجينور مؤسس صور وملوكها الأول:

**آجينور ملك صور ومؤسسها**

**وزوجته تيليفاسا**



## ● أسطورة أوربا وقدموس:

كانت أوربا الجميلة ابنة آجينور ملك صور، اختطفها ذات يوم جوبيتور بعد أن حَوَّل نفسه إلى ثور، ومضى بها عبر البحر حتى أقصى الغرب. أمر آجينور ولده قدموس أن يذهب للبحث عن أخيه محظراً عليه العودة حتى يعدها، فانطلق قدموس ويرفته كل من أمه تيليفاسا وأخويه تاسوس وكيليكس، ولم يبق عند الأب سوى فوريكس (فينيق) الذي يمثل فكرة بلاد كنعان (فينيقا). إلا أن بحث تيليفاسا وأبنائها عن أوربا كان دون جدوى، فماتت تيليفاسا وأبنائها عن أوربا (فينيق) الذي يمثل فكرة بلاد كنعان (فينيقا). إلا أن بحث تيليفاسا وأبنائها عن أوربا كان دون جدوى، فماتت تيليفاسا من الحزن. أما أولادها الثلاثة فلم يحرروا على العودة إلى صور من دون أختهم بعد تحظير والدهم والقسم الذي أذاه.

فاتجه تاسوس إلى جزر تراقيا، وأسس كيليكس في الشمال السوري مستعمرات كيليكيا. أما قدموس فقد مكث في الأرض اليونانية ليصبح مؤسساً لمعابد ومدن ومرجعاً للأبجدية التي ابتكرها الفينيقيون واتخذها اليونان. وفي ذلك يقول هيرودوت (II ص 58):

«كان الفينيقيون الذين رافقوا قدموس إلى بلاد اليونان وأقاموا فيها قد أدخلوا معهم الكثير من المعرف من بينها تلك الأحرف التي كانت برأيي مجهولة سابقاً في هذه البلاد. وقد استخدمت في البداية بنفس طريقة الفينيقيين، ولكن بمرور الزمن تطورت هذه الأحرف بما يناسب اللغة واتخذت أشكالاً أخرى، وبما أن البلاد المجاورة كانت محطة من قبل الأيونيين فقد اعتمد هؤلاء تلك الأحرف التي علمهم إياها الفينيقيون، لكنهم أدخلوا عليها بعض التغييرات البسيطة. وهم يعترفون عن طيب خاطر، وكما يقتضي الإنصاف، بأن هذه الأحرف قد سميت بالأحرف الفينيقية لأن الفينيقيين هم الذين أدخلوها إلى بلاد اليونان...»<sup>(\*)</sup>

نفهم من ذلك أن حكاية قدموس الأسطورية انطلقت من فكرة اختطاف أوربا. ونستطيع أن نستشف من خلالها بعض المبادئ الفينيقية الأساسية التي لا تزال تعيش في وجدان لبنان اليوم، ألا وهي حب التوسيع أو الانتشار على أساس فكرة خدمة الوطن، ثم مبدأ التضامن العائلي الذي ما زال حتى يومنا هذا. وسنشير إلى فكرة أساسية أخرى في هذا الصدد وهي: فكرة إخضاب الحضارة الإغريقية بالإسهام الفينيقي الذي يمثله قدموس.

(\*) والمحذر بالذكر عدا عن ذلك أنه حتى لفظة «ألف بيت» الكعنانية أي: «الألف باء» أو «الأبجدية» لم يحاول اليونان إيجاد بدائل كلية لها بل استخدموها كما هي بـ«Alphabetos» وهو الذي انتقل إلى مختلف لغات العالم بشكل «Alphabet» إلى اليوم - الحقق -

إن هيرودوت، أشهر المؤرخين الإغريق، هو الذي يُسَبِّبُ سُبًّا بهذا النوع من الأبوة الإنسانية. كما يعزى إليه تأسيس مدينة طيبة في (Teia). ويريد هيرودوت تأكيد ذلك عندما يقول بهذا الصدد (III ص 459):

«... كما رأيت بنفسي في طيبة بمنطقة بيوتيا - ٢٠١٥ - حروفاً قديمة في معبد أبولون منقوشة على ركائز، وهي شبيهة جداً بالآيونية. وعلى إحدى هذه الركائز تقرأ هذا النص:

- أهداني أمفيتريون Amphitryon كتاباً لدی ... ال Teleboens - وربما يعود هذا النص إلى زمن لايوس ابن لازاك ... كان والده بوليدور بن قدموس...».

### ● أسطورة الثور:

العنصر البارز في هذه الحكاية الأسطورية هو تقمص جوبيتر بشكل ثور ليقوم باختطاف أوريا. والظاهر أن كثيراً من الآلهة الإغريق اتخدوا شكل الثور لأنه كانت له مكانة مقدسة. وكانت عباداته مشهورة في جزيرة كريت ثم انتشرت في كل أنحاء البحر المتوسط. وقد وجدت فضلاً عن ذلك إشارة الثور على طول خط الرحلة التي قمت بها للوصول إلى الطرق الساحلية الفينيقية. كما يجب أن نشير بالذكر إلى أنه إلى جانب الثالوث الإلهي الذي عبده الفينيقيون كانت للثور مكانة هامة ربما قبل الآلة الصغرى. وما يرمز للامتداد الفينيقي أيضاً هيراكلس الذي هو الرمز الإغريقي لـ ملقارب، والذي ذهب غرباً للبحث عن حدائق (Hesperides).

### ● أعمدة هرقل:

إن أسطورة هيراكلس - ملقارب - الذي قهر المضيق بين البحر المتوسط وبين المحيط الأطلسي قد تحمل إذاً معنى خفياً بالغ الأهمية. ذلك أن إسناد تأسيس مايسمي بأعمدة هرقل وفتح الطرق الساحلية صوب المحيط الأطلسي إلى إله فينيقي إنما يعني أن هذه الطرق الساحلية كان قد اكتشفها وسيطر عليها منذ البداية الفينيقيون.

وكانت هذه السيطرة شرطاً للسيطرة، إذ كانت تحمي المنفذ إلى مصادر القصدير، هذا المعدن الذي كان خلال عصر البرونز ضرورياً كما هو حال اليورانيوم في العصر الذري.

من خلال القصص الميثولوجية ترسم لنا إذاً حقيقة أو أمر واقع وهو: طريق

القصد. هذا الطريق الذي اشتهرت عليه موانئ كان أولها باتجاه الغرب - أو غروب الشمس - قبرص وروتس وكريت.

### ● الفينيقيون والأطلسية

أخيراً، وفي منتصف الطريق بين الخرافة والحقيقة، تواجه الفينيقيون مع الأطلسية قبل 3000 سنة. إن شواهد الحضارة الأطلسية القديمة تتصل على الطريق المرجاني في غرب القارة الأفرو أوروبية. فمن الشمال إلى الجنوب نجد: معابد «Stonehenge» وجزر «شيلي Scilly» وصفوف الـ «كرنل Carnac» ومسلاة «Cavriniis» المتقوسة ونصب «Galice» الحجرية ومسلاة «الخيلة» في المغرب، و«زونزاما Zonzama» في جزر كناري و«سir - لير في كفرن Lyre de Kaffrine» في السنغال، وألاف المواقع المegalithية<sup>(\*)</sup> المعروفة. وترهن هذه الآثار على الروحانية والحضارة الخاصة بحضور شمالي الأطلسي والتي كان سبب زوالها انتشار الفينيقيين. ولكن من المهم أن الفينيقيين كانوا قد توصلوا إلى هذه الآثار العجيبة إذ كانت غايتها معروفة. وهنا يمكننا الإعتقد بأن الفينيقيين كانوا قد التقوا مع آخر جماعات بشرية تنتهي إلى عالم لا يمكننا أن ندركه اليوم.

---

(\*) من الكلمة megalith وهي الحجارة الضخمة غير المنحوتة التي استخدمت في أية ما قبل التاريخ.

## الفصل الحادي عشر

### قبرص . أو . حب أفروديت المنسنة

لم يكن التوسيع الفينيقي الكبير ليتظر قديموس، إذ بدأ في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد باتجاه قبرص حيث أنشأ تجار صور وصيدون مراكز تجارية على الساحل الجنوبي للجزيرة، ويسهل عليهم الحصول على خامات النحاس الضروري لصنع البرونز أنشأ الصوريون هناك مدينة أطلقوا لها اسم «قرنوت خدشت» الذي يعني: المدينة الجديدة<sup>(\*)</sup>.

وعندما بدأ التبادل التجاري المنظم بين قبرص وفينيقيا كان على قبرص أن تبقى زمناً طويلاً تحت النفوذ التجاري والثقافي والسياسي لصور.

ويبدو أن مناجم النحاس كان يتم استثمارها منذ حوالي 1000 قبل الميلاد. وقد أُسست مستعمرات في بعض الواقع مثل: «كتيوم Kitium» التي تدعى اليوم «الارنكا» وأماثوس Amathus» التي أصبحت تدعى «ليماسول Limassol» و«ثاماوس Thamassos» وإيداليون Idalion» ولايروس Lapithos». و شيئاً فشيئاً غدت كل هذه المستعمرات أو المدن دويلات صغيرة مستقلة يرأس كل منها في أغلب الأحيان ملك صغير مستقل.

#### ● أسطورة أفروديت:

كان استقرار الفينيقيين في قبرص قد عُرف من خلال أسطورة أفروديت التي - كما سبق أن رأينا - ليست إلا التسمية اليونانية لعشتروت التي سميت أيضاً «افنوريت» عند الفينيقيين.

إذاً كان مولد الربة أفروديت على سواحل قبرص. ويقول الشاعر الإغريقي القديم «Hesiodos» بهذا الصدد:

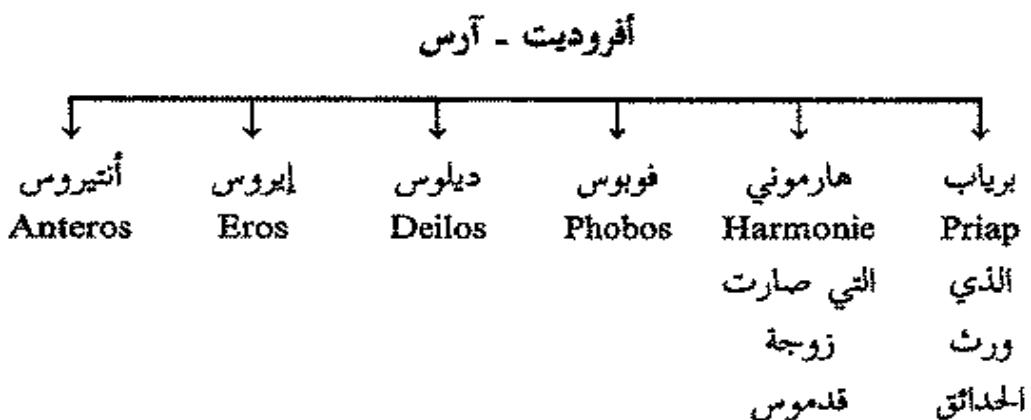
«من أجل تلقيح زيد البحر قطع كرونوس عضو التذكرة من أبيه ورماه في البحر، حيث ظهرت بذلك أفروديت...».

(\*) وهو نفس اسم «قرطاجة» الشهيرة التي برد الحديث عنها في الفصل الثاني والثلاثين - الحق -

وكتيرون هم الرسامون والنحاتون الذين مثلوا هذه الإلهة وهي تخرج من بين الأمواج التي يمكن أن ترى من خلالها أنواعاً كثيرة من الأصداف البحرية. أما هيرودوت فقد أوضح من جهته أوجه التشابه بين أفروديت القبرصية وعشتروت الفينيقية معتمداً على مصدر قبرصي.

كما أن تلك التلويمات التذكارية الكثيرة على الألواح الطينية المشوية التي وجدت في قبور تعود إلى ألف الثالث قبل الميلاد، تُظهر ما يزيد فكرة هذا النسب وثيرهن على تواجد فينيقي في قبرص خلال تلك الأزمنة القديمة.

وأفروديت، تلك الإلهة التي ولدت من الأمواج، أو بالأخرى «من نطف إله» ستعكس فيما بعد في عيني أفلاطون صورة مزدوجة: صورة أفروديت المسمة *(Curania)* أي: إلهة الحب الظاهر، وصورة أفروديت المسمة *(Pandemia)* أي: إلهة الحب المبتذر. وتُنسب الأسطورة إلى أفروديت العديد من الأزواج والعشاق سواء من ذلك من أحبتهم حباً ظاهراً أو حباً مبتذلاً، ومن بينهم «هيفايستوس Hephaestos» المعروف بالإله الأعرج و«آرس Ares» إله الحرب. وتشرد الأسطورة مواليد هذه العلاقة بين آرس وأفروديت كما يلي:



وكان من أشهر عشاق عاشق أفروديت أستناداً للأسطورة أدونيس وأنشیس، ويزايا شخصيتها المتقدمة كانت تثير الحب أو الكراهة. ويرى أنها كانت السبب في نشوب حرب طروادة. وأنباء حصار المدينة يقال أنها تحكمت من الهروب عبر المشاعل لتتجأ إلى روما. وهناك بدت فجأة بهيئة رصينة متخلدة باسم *(فينوس Venus)*

حيث غرفت منذ ذلك الوقت في العالم الروماني بهذا الاسم ولكن اشتهرت باسم **Venus Genetrix** أي: **فيروس الولود**.

### ● باخوس والبغاء المقدس:

كانت قبرص تشتهر بمعبد أفروديت في باخوس. وكان هذا المعبد مكرساً كلياً للحب. وكما هو الحال في كل معابد أفروديت بذلك العصر كانت تقوم بخدمة ذلك المعبد راهبات نذرن أنفسهن للبغاء المقدس. لقد تطورت **أ1**: أفروديت في أماكن كثيرة من حوض البحر المتوسط. ومن أشهر معابد أفروديت خارج قبرص تلك التي كانت في كل من **كورنث Korinth** و**كيثيرا Kythera**.

ويصف لنا سترايوبون معبد كورنث بأنه صغير جداً لكنه فائق الشهرة، ويقع في وسط القلعة. وكان يوجد في ذلك المعبد حوالي المائة راهبة متذكرة على ممارسة العبادة وقد نذرن أنفسهن للهوى. وكانت متطلباتهن الكثيرة قد عادت على المعبد بموارد هائلة. وما يشير إلى صحة ذلك هو تلك العبارة القديمة: «لا يسمح للكل الناس بالذهاب إلى كورنث...» إن جزيرة قبرص التي نراها اليوم تعاني من التمزق بسبب الصراعات بين اليونان والأتراك، حري بها أن تذكر بأنها كانت أرض الحب. ولكن من المؤسف ألا نرى سوى الهم والشاغب على وجوه الأربعين ألفاً وخمسة وأربعين ألف يوناني والمقدوني وخمسة آلاف تركي الذين يكتونون سكان الجزيرة حالياً. بالرغم من أن الطبيعة قد ساعدت سكان هذه الجزيرة، إذ يحيط بهم كل ما يجعلهم سعداء، من مناخ مناسب وثقافات مختلفة وكرمة تعطي نبيذاً له شهرة كبيرة.

### ● النحاس:

أما بالنسبة لثروات الأرض في قبرص، والتي استمرت منذ حوالي 6000 سنة، فهي لا تزال اليوم على درجة ممتازة. وتصل صادرات الفلزات المعدنية المتمثلة بصورة رئيسية بالنحاس حتى 8 ملايين جنيه استرليني في السنة تقريباً.

وربما يكون هذا النحاس الذي اشتهر في العصر القديم قد أعطى من جهة أخرى اسمه إلى الجزيرة. فكلمة نحاس ترد في لغات أخرى بشكل **Cuprite** وبالإنكليزية **Copper**.

لقد كان لفينيقيا تأثير كبير في الفن القبرصي. إذ نجد مزهريات وجراراً أكثر ضخامة ذات أعناق واسعة مصممة بأسلوب فينيقي. أما الزخرفة فقد استخدم فيها

اللون الأسمى المختار. وهي تشتمل على دوائر مشتركة المركز وإشارات شمسية واضحة. وتذكرنا هذه الإشارات لدى محطتنا الأولى على طريق القصدير بأن الشمس كانت دوماً بعيدة عن الأغراض المادية وكانت الهدف الأسمى والخامي الإلهي للقديسين.

## الفصل الثاني عشر رودس - أو - التمثال الضخم المفقود

### ● جزيرة الزهور:

تعتبر جزيرة رودس أجمل وأكبر جزر الدوديكانيز. ولا يتجاوز طولها الـ 80 كيلومتراً وعرضها الـ 35 كيلومتراً بصورة وسطية وأرض الجزيرة توفر فيها كل شيء. حقولها مغطاة بالورود البرية. وهناك عناقيد ضخمة من الورود التي تسمى «رودن Rhodon». كما تجد هذه الورود على شعارها الرسمي.

عندما اتجه قدموس، رائد الاتصال الثقافي، إلى رودس، كان يحمل معه بلا ريب الأبجدية الفينيقية وتصاميم المعابد التي كان يرافق له تأسيسها في كل مكان تقريباً على طريق رحلته البحريّة. وهذا ما يشير إليه نص ديدور الصقلي الذي يقول:

«في هذا العصر كان دانيوس يبتعد عن مصر برفقة بناته وقد بلغ شاطئه ليندوس. حدث هذا بعد أن رسا قدموس في رودس أثناء بحثه عن أوريما بأمر من أبيه الملك آجيونور. وهبت عليه أثناء سيره عاصفة هوجاء، فتذر أن يبني بعد انتقضائها معبداً في نيتون. وهكذا شيد هذا المعبد في جزيرة رودس وترك بعض الفينيقيين ليقوموا على خدمته. وقد احتلّت هؤلاء مع السكان المحليين وشاركتوهم في الحياة العامة ومن بينهم اختيار رجال الكهنوّت. كما قدم قدموس القرابين للإلهة مينفرا Minerva. وكان بين ما قدمه حوض جميل مصنوع بالأسلوب القديم ويحمل نقشاً كتب بحرف فينيقية يقال أنها جاءت من فينيقيا إلى اليونان...»

يتضح لنا من ذلك أن قدموس وجد في رودس سكاناً منفتحين وحضارة قديمة.

### ● أبناء الشمس العملاقة:

هناك قصص خرافية لا تذكر سوى المحليين الأوائل لجزيرة رودس والذين تطلق عليهم تسمية *Telekines* أو «عفاريت النار» حيث يقال أنهم يرعوا في السيطرة على المادة والفنون.

ومن هذه القصص المخrafية ما يذكر أن أبناء الشمس العمالقة سكناوا الجزيرة بعد الطوفان، ويقال أنهم كانوا ثلاثة أبناء صغار للشمس تقاسموا الجزيرة وأسسوا ثلاث مدن أسموها بأسمائهم وهي: «ياليسيوس Yalissios» - «كامiroس Kamiros» - «ليندوس Lindos». ومدينة «ليندوس» لا تزال موجودة. وما يستحوذ الاهتمام أن ذلك البروز الجبلي المشرف على البلدة والبحر لم تزل فوقه تلك الأنقاض الهامة لمعبد ميترافا الذي تشرف أعمدته على خليج واسع مياهه ساكنة وصافية، ومن الحتميل أنه كان مرفاً قديماً للسفن الفينيقية.

أسست مدينة رودس وميناؤها في سنة 408 قبل الميلاد بعد أن أخذت المدن القديمة الثلاث عهداً على نفسها أن تبني عاصمة واحدة في أقصى شمال الجزيرة مقابل سواحل آسيا الصغرى.

### ● التمثال العملاق:

بعد مئة سنة من المقاومة العنيفة ضد سيطرة السورين والانتصار الكبير الأول في تاريخها شيدت رودس عند مدخل ميناؤها تمثال رودس الشهير لتخليد هذه الذكرى.

انتصب ككلبه البرونزية الضخمة التي بلغ ارتفاعها 31 متراً عند مدخل الميناء، وكانت تمثل شخصاً مستندأً على رمح يحمل مشعلاً نصفه الأعلى مصباح بالمرايا، والساقان منفرجتان، وقد ارتکرت قدماه على نهاية الرصيفين اللذين يستان المرفأ المحسن تجاه البحر، وهكذا كان على السفن أن تمر من بين ساقيه لتدخل المرفأ. كان هذا التمثال مكرساً لإله الشمس، أب الجزيرة، وكان يمثل «هليوس Helios» وقد صنعته نحات ومعماري مشهور من مدينة «ليندوس» يدعى «خاريس Chares».

بعد قرن من الزمان أخللت هزة أرضية توازن التمثال الذي انهار بصورة محزنة ساداً مناقد الميناء بحطامه.

وهكذا ذهبت واحدة من عجائب الدنيا السبع<sup>(١)</sup> التي قام باحصائها فيليون البيزنطي. وقد نصح كاهن «دلفي Delphi» سكان جزيرة رودس عندما استشاروه بأن

(١) للذكرى: هذه العجائب السبع كانت: 1 - المدائق المعلقة في بابل. 2 - أمرامات مصر عند ممفيس. 3 - تمثال جوبيتر في أولينا. 4 - تمثال رودس. 5 - مذارة الاسكتلندية. 6 - معبد ديانا في إفسوس. 7 - الحكمة في Halicarnasse.











بها. ولم يكن سكانها يعبدون آلهة الإغريق أو غيرهم ولا الشمس، بل عبدوا الثور ونشروا هذه العبادة في كل شرق البحر المتوسط. كما وجدت هذه العبادة بعض الإقبال في أفريقيا وأسيا. ومن المحتمل أن يكون الفينيقيون قد ساعدوا في نشرها. وقد تركت بعض آثارها على جانبي أعمدة هرقل وفي إسبانيا والمغرب وحتى في سردينيا.

لكن الفينيقيين كانوا قد حافظوا على اتصالهم مع جزيرة كريت حتى في فترة انحطاطها. ففي متحف «هيراكليون Heraklion» تتطابق على القاعات الأخيرة الأكبر حداثة سمات عصر الاتصال مع الفينيقيين الذي سمي - عصر الاستشراق - إذ نجد على المزهريات إشارات شمسية ورسوماً ذات مواضيع عرف بها الفينيقيون، حيث يحتمل أنهم أدخلوها إلى كريت عن طريق نشاطاتهم التجارية. في مدينة «فايستوس» حالفني الحظ بزيارة القصر وحقق التحقيقات الخريط به بمرافقه الأستاذ Dovo - Levi الذي يدير الأعمال التي باشرت بها المدرسة الإيطالية للآثار في هذه الأماكن وبكثير من النجاح.

من المؤكد أنه يوجد تحت قصر الفترة المينوسية طبقات أثرية متعددة لنشأت أو قصور من فرات أقدم.

ليست لقصر «فايستوس» قياسات القصور الفرعونية ولا عظمتها، بل يمكن وصفه بأنه منزل فخم لتجر ثري دون ترف زائد، بمخازن عديدة من أجل تخزين المنتجات والمحاصيل من داخل بلاد غنية وبصائع ترد من سواحل مختلفة من البحر الأبيض المتوسط.

كان شعار ملوك السلالة المينوسية فأساً ذات حدين. وقد بتو إلى جانب قصرهم تلك المتأهة الشهيره التي لم يكن لأحد أن يستطيع الخروج منها أبداً. وذلك لاستبعاد الزائرين غير المرغوب فيهم.

في جزيرة كريت إذاً تولدت من هذا الإرتباط بين الملكية والألوهية، وبعبارة أخرى، بين مينوس والثور، تولدت فكرة تلك الكائنات الخرافية التي دعيت بالـ «مينوتور Minotauros».

وفي عهد الملوك المينوسين كان السكان في «فايستوس» و «أكتوسوس» يعيشون نعطاً عظيماً راقياً من الحياة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الأشياء الشمنة التي عثر عليها في التحقيقات الأثرية كالخلبي والمجوهرات وعدها عن ذلك تلك الرسوم الجدارية التي تمثل السيدات الأنثىات لذلك العصر. والغريب أن ما زرناه في تلك الجداريات قريب جداً

من تلك الأزياء التي انتشرت في أوروبا انتشاراً واسعاً حوالي سنة 1900: خصر مشدود جداً، توزارة طويلة حتى القدمين، فضفاضة على الأوراك، أكمام متفصّفة، والفرق الوحيد هو أن الصدر ضمن مقورة كبيرة تجعله عارياً خارج التوب. إن النساء التي رسمت على تلك اللوحات الجندرية توحّي كثيراً بشكل من أشكال الموضة سَنَة علماء الآثار «البارسي».

ومازالت نرى فلاحات كريت في أيامنا هذه ب تلك التوزارة الطويلة جداً، والقد المشوّق وتقويرة معتدلة في الصدارّة يظهر منها قليل من الصدر، هذا إن لم تكن الكنيسة الأرثوذكسيّة تجبرهن على وضع حمار قطني كبير يستبدل في أيام الأعياد بشاءلات من الحرير.

من أجمل ذكرياتي عن كريت تلك الأيام التي انقضت مع فلاسخن وفالاحات فوق منحدرات جيل «إيدا» ليس بعيداً عن «فايستوس» خلال فترة قطاف العنبر. ذلك العنبر الشهير باسم «السلطاني» والمحالي من البذور هو الذي صنع ثروة الجزيرة، ويضم قطافه بعثة كبيرة، أحياناً حبة حبة، ثم يغسل وينظف في أحواض الماء، وأخيراً يُعد للتجميف، فينشر على الأرض مباشرة على شكل شرائط طويلة تكتسب ألواناً تتدرج من الأخضر إلى اللون العنيري الغامق تبعاً لزيادة العناية. ويشاهد الناظر كيف أن بعض الهضاب قد اكتسبت تماماً بهذه الشرائط الملونة.

إن عاصمة كريت «هيراكليون Heraklion» شبيهة بكل المدن اليونانية الصغيرة. ولكن ما أدهشني هو العدد الهائل من السياح والتجار وموظفي فندق ألماني الأصل، وقد تحدثت إلى الكثير من هؤلاء. وهم بشكل عام يحملون جنسية يونانية لكن بعضهم احتفظ بالجنسية الألمانية. وعلمت أن أغلبهم كانوا قد اكتشفوا جزيرة كريت أثناء القيام بالمعارفات الحربية في الجولات الجوية للحرب العالمية الثانية.

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في تلك الفترة هو ما وقع في إحدىاليالي المظلمة، إذ قامت طائرات سلاح الجو الألماني بعملية سحب مجموعة من الطائرات الشراعية الثقيلة الحملة بالجنود والعتاد. وكان على الطائرات الشراعية بعد ذلك أن تنفصل وتنهيّط فوق الهضاب الجرداء العالية.

والواقع أن أي جيش آخر من الجيوش المشاركة في الحرب، وحتى عند الإزال في التورماندي، لم يستخدم هذه التقنية التي جربت في جزيرة كريت بهذا النجاح الكبير. ولم يعرف إطلاقاً ما هو الهدف الذي كان يرمي إليه هتلر عندما أمر بالقيام بهذه العملية المذكورة. إذ أن هذه الحملة الألمانية على كريت بشكل إزال سريع بقيت عملياً

حتى نهاية الحرب مشلولة الحركة عاطلة عن العمل في تلك الجنة التي تغنى بها هوميروس. وتلك الإقامة التي لا تنسى في جزيرة كريت لم تكن لتحرك الرغبة لديهم في رؤية أمتيا ما بعد الحرب دولة مجرورة مزقة. وقد جاء بعض الألمان من لا علاقة لهم بالعمليات العسكرية يقصد الاستقرار في كريت، لكن الخبر المثير الذي نشرته صحف تلك الفترة عن العملية الجوية الشهيرة ربما جعلهم يتراجعون عن قصدتهم. تبدو لنا جزيرة كريت أشبه بدرع كبير يحمي بلاد اليونان القارية وجزر بحر إيجة. ومع ذلك كان الفينيقيون يتطلعون للإبحار أبعد من هذه العتبة.

ويقدم «ف. ليورماند F. Lenormand» في مؤلفه المسمى: «أسطورة قدموس والنشأت الفينيقية في بلاد اليونان» الإيضاحات التالية:

«... انتلاقاً من كريت بعد ذلك للوصول إلى مناطق نفوذهم ومراكزهم التجارية كان أبناء كنعان يتوجّلون في بحر إيجة وعلى السواحل اليونانية...».

كانت الجزر الأولى التي أقاموا عليها مراكزهم التجارية ومنتزاتهم هي:

«الرودس Rhodos» - (ثيرا Thera) - «ميروس Melos» - «كيثيرا Kythera». وكان يوجد في «ثيرا» على مايلدو في القرن الرابع قبل الميلاد معبد مكرس لـ «فينيكس Phoenix» الذي يمثل الفينيقين. وفي «ميروس» كان الفينيقيون يادلون الكريت وحجر الشبّ اللذين تشتهر بهما أرض الجزيرة بالملحريات الجميلة التي عشر على بعض منها في نهاية القرن الماضي بالقرب من جزيرة الآلهة. أما جزيرة «كيثيرا» فكانت قد اشتهرت بعبد عشتروت (أفروديت). وكانت صناعة الصباغ الأرجواني قد تركت فيها من أجل سدّ حاجة الأسواق اليونانية التي لم تتم صور لوحدها تستطيع سدّها. إن ما علينا تذكره دائمًا هو أن كل هذه الأماكن المستكشفة داخل الجزر وفي البر اليوناني بقيت مرتبطة بذكرى قدموس، الذي كان يتمتع بمكانة سامية عند الإغريق، إذ كان بمنسبة إله مواطن نبيل في آن واحد. ومن هنا يتضح لنا قدموس بوجهيه: الوجه الأول، قدموس المؤسس، أبو المستعمرات الفينيقية وراعيها في بلاد اليونان، والوجه الآخر، قدموس الإله الشاب الخلاق الذي يمثل بالنسبة للديانات السورية تولد الطبيعة الدائم وتجددها.

ليس هناك ما يؤكد أن قدموس كان قد وصل إلى أبعد من بلاد اليونان. ولكن مع ذلك وجدت بالقرب من البحر الأدريatic على ساحل داماسيا منشأة قديمة يتحقق أن قيامها منسوب إلى قدموس.

## الفصل الرابع عشر

### من إبيدوروس.. المدينة المنشورة إلى دوبرونيك

في الجزء الجنوبي من ساحل دلناسيا يحتمل أن يكون قدموس قد أسس مدينة ساحلية تدعى «إبيدوروس Epidauros» وأخرى أقل أهمية وتدعى «بوتري Buteo». غير أن المعلومات المتوفرة لدينا لا تقدم تحديداً واضحاً لموقع «إبيدوروس». وكل ما كان متوقعاً بهذا الصدد أنه من الممكن العثور على آثار منها في مكان ما بين الحدود الألبانية و «دوبرونيك Dubrovnik» تحت بضعة أمتار من سطح الماء، حيث أن هناك حكاية مترافقه قديمة جداً تقول أن الساحل في تلك المنطقة قد غمره ماء البحر لفتر زلزال شديد وخفق في الأرض.

وهناك أسطورة أخرى كانت تربط بين تأسيس «raguse» وبين انهدام «إبيدوروس» القينيقية التي ابتعلها البحر. وربما تكون أشياء كثيرة قد علقت بكل ما يمكن أن يطفو على سطح الماء، كالأخشاب وغيرها وانساقت مع التيار إلى أن جنحت بعيداً فوق جزيرة صخرية صغيرة تشكلت منها بعض الأكواخ، وهكذا وجدت «raguse» التي نسميتها اليوم «دوبرونيك Dubrovnik».

إن الاهتمام الكبير الذي أيداه البيوغوسلاف للأبحاث التي أقام بها قد شجعني لأن أقترح على عدد كبير من الأشخاص المتقيين إجراء تحريات دقيقة فوق الأرض وتحت سطح الماء والبحث في الوثائق التي تكاد تكون مجهولة عن مدينة «إبيدوروس».

على بعد 18 كيلومتراً جنوب «دوبرونيك» في خليج محاط بجزر صخرية صغيرة أشبه بطاولات منحنية، وجدت على عمق يتراوح بين المترین والثمانين أمتاراً أكوااماً هائلة من الحجارة المرصعة وأنقاض سور طويل أو متراس قديم أو حافة رصيف.

استغرقت ثلاثة أسابيع متواصلة في البحث والغوص حتى تحققت من وجود «إبيدوروس». وكان يجبأخذ كل الاحتياطات واستخدام كافة الوسائل التقنية الهامة من أجل القيام بتجريفات حذرة هادئة وتنقيبات تحت الماء في هذه المنطقة. كانت عناصر البناء مرئية تماماً في مياه الساحل الشلاسي الصافية والمعلوم أن ذلك

الساحل واحد من أكثر السواحل صفاءً في العالم. ويتطابق المكان تماماً مع ما جاء في الحكايات الميثولوجية التي تصف قدموس قدموس وزوجته «هارمونيا» إلى سواحل إيليليريا Illyria وفي هذا المكان يقال أن قدموس أسس «إيدوروس Epidauros» و«بُوتوي Butoe» التي تحفظ بسهولة من أنها هي «بودفا Budva» الحالية.

وتتابع الأسطورة أن قدموس بعد بناء هاتين المدينتين الساحليتين قد حارب أهل إيليليريا وأن الإيليليريين توجوه ملكاً. كما تقول الأسطورة في مكان آخر أن إينا قدموس ولد في هذه الأماكن ويدعى إيليليريون Illyrion وقد أرضعه أفعى.

### ● قدموس.. أب للبيوغوسلاف أيضاً؟...

استناداً للأسطورة يفترض إذاً أن يكون إيليليريون ابن قدموس الفينيقي هو السلف الأول لشعب السلافيين على ساحل دلاماسيا. لكن الحكاية الأسطورية تحاول عدم إبراز الأصل الأجنبي لـ إيليليريون هذا عندما تقول إن أفعى قامت بإرضاعه، معتبرة بذلك أن الأفعى بمحابة العنصر المحلي (أو الأهلي) الذي يعطي لـ إيليليريون صفة محلية. عدا عن أن الأسطورة تقول أن قدموس وهارموني تحولاً أخيراً إلى ثعبانين وأن مأثرهما كانت قد انتهت هنا.<sup>(\*)</sup>

ولكن في المياه الصافية للساحل الديلاسي مابين سيفان Sevi Stephan و بودفا Budva بالتحديد توجد جزيرتان صغيرتان توحيان بالخط المتصوّج للشعبان، وقد يكونان، كما قيل لي الدلائل المرئية والمحسوسة لخلود قدموس «أب الكتابة» وزوجته هارموني <sup>(\*\*)</sup>.

بعد القديموسين حاولت مختلف القرى من أقاليم ساحلية كثيرة فيما سبق العصر الهلنستي، حاولت الاستقرار في إيليليريا Illyria. ويرد عند ديودور الصقلي ذكر كل من: «التالاسوكراتين» الذين كانوا يسيطرون على البحر، و«الميديين» و«التراريين» و«الروديسين» و«الفريجيين» و«القبرصيين» و«الفينيقيين» و«المصريين» و«اللاسيين» و«الفوكين» و«الناكسين» و«اللاكيديمونيين»، ويقول أنهم كلهم بعثوا برجالهم وبضائعهم عبر البحر الأدربياني.

(\*) من الجدير بالذكر أن الأفعى كانت لها صفة القدسية فيأغلب الحضارات القدية في العالم - المحقق -

(\*\*) هناك أمثلة لا تُحصى من مختلف الحضارات القدية والمحقب التاريخية تبين ميل الإنسان للربط بين أشكال طبغرافية معينة توحّي بشيء ما وبين أحداث حكايات أسطورية وجعل هذه أساساً لarkan أو العكس - المحقق -

من الممكن إذاً أن يكون قدموس، الملك الفينيقي، هو باعث الإزدهار الأول في الساحل الديماسي، ذلك الإزدهار الذي تجلّى بتطور «raguse» (راجوس) التي أصبحت شيئاً فشيئاً مدينة بيزنطية ثرية مسيطرة على مدخل البحر الأدرياتي ومحافظة على علاقات غالباً ما تكون صعبة مع الشعوب السلافية على الساحل الديماسي.

والواقع أن كلاً من الجانبيين كان بحاجة للآخر، فسكنان جزيرة (raguse) لم يكن بإمكانهم العيش من دون المياه العذبة وقمع وحضار وفاكهه الفلاحين الإيليريين. كما أن فلاحي الساحل من جهةهم لم يكونوا يستطيعون استيراد أو تصدير أي شيء من دون ميناء (raguse) الذي كان يسيطر على المدخل البحري في الأدرياتي.

وذات يوم تغلبت الحكمة على الصراعات والمنافسات عندما قرر ممثلو الجانبيين الانتهاء من هذا الوضع بتوحيد مصالح سكان الأرض الخصبة مع مصالح القاطنين على الجزيرة الصغيرة. و شيئاً فشيئاً نشأت مدينة على الساحل في الجهة المقابلة لجزيرة (راجوس) سكنها السلافيون وقرر وجهاء المدينتين ردم ذلك النرايع البحري الذي يفصل بينهما وطلبوا من كل سكان المدينتين أن يساهموا في ذلك بالقاء أي شيء من الردميات في البحر إلى أن يتم سد هذا النرايع ويجف.

وتقول الأسطورة أنه بني مكان ذراع البحر هذا شارع دوبرونيك الكبير، وهو شارع عريض ومبطن بأحجار المرمر الأبيض ومحاط بالواجهات الأنيقة لمنازله التي تعود إلى القرن الثامن عشر والتي أعيد بناؤها إثر زلزال كان قد دمر المدينة.

حتى وإن كانت هذه القصة التي وجدت في وثائق المدينة أسطورية تماماً، فهذا لا يهم كثيراً، إذ أن أساطير الشعوب غالباً ماتعكس أماناتها وفلسفاتها. وهكذا كان المكان الأول في دوبرونيك مكاناً للحكمة والسامحة وروح الوفاق. وهذه الخصال التي هي فينيقية بالأصل. من المختتم جداً أن تكون الميراث الذي حفظه أولئك الذين بقوا على قيد الحياة من مدينة (إيدوروس) التي طواها البحر. فضلاً عن ذلك، يطيب العيش في «دوبرونيك» حيث يسود في القرن العشرين جوًّا من الاخاء يتماشى مع العصر، ضمن نطاق المدينة القديمة المحصنة التي لا يستطيع الوصول إليها إلا المشاة. احتفظت «دوبرونيك» من المدينة البيزنطية (راجوس) بكنائس وأديرة وأروقة مقبرة وطرق وشوارع صغيرة مبلطة بالرخام، وفي ساحتها الواسعة يتنصب تمثال للفرنسي «رولاند Roland» كذكرى للصراع ضد الأتراك العثمانيين. وقد شرح لي أحد

السكان أن «رولاند» قد كرم بهذا التمثال كتجسيد للمقاومة ضد الغزاة الأتراك الذين انتشروا باسم الإسلام في كثير من مناطق البحر المتوسط. على الرغم من أن «دوبرونيك - راجوس» لم تصبح لها شهرة «فينيسيا» - البندقية - فقد كانت تضارعها بفوذها الفعلي، كما توجد قرابة روحية عميقة بين المدينتين رغم المناقشات التي لامفأز منها. وكان الخوارنة في دوبرونيك وقضاء البندقية يحتلون عملياً نفس الوظائف ويتمتعون بنفس الصلاحيات كقضاة أوائل..

وللتمتع بسحر دوبرونيك بشكل أفضل، يمكن الذهاب إليها في شهر تموز أو آب خلال الفترة التي يقام فيها المهرجان السنوي. فوق الأماكن القديمة والأسوار، أمام دهاليز القصور، وداخل أروقة الأديرة، تقام كل مساء الحفلات ورقصات البالية وعروض الأوبرا والمسرحيات. وهناك علمت أن مسرحية «البخيل» كان قد كتبها أديب من دوبرونيك قبل أن يستوحي منها «مولير» بثلاثين سنة، وأن مسرحية «حلاق إسبانيه» تسمى في يوغوسلافيا «Sevilski Brijaak» - أي بعنوان مترجم بنفس المعنى ...

## الفصل الخامس عشر

### من Scylla إلى Charybde<sup>(\*)</sup>

### وأجمل حكيمه متر في العالم

بعدما ذكر في الفصل السابق من موقع على ساحل الأدرنياتي كان الطريق الساحلي للفينيقين يقترب من جنوب شبه الجزيرة الإيطالية لدى الاتجاه إلى مصادر القصد़ير. ومن المُحتمل أنهم كانوا يتوجهون خليج تارنت (Tarent) ويتبعون بمحاذة الطرف الجنوبي لمدينة «كالابريا» أي تحت نعل الجزء الإيطالية وحتى رأس توزع الرياح.

وقد أوضح لي الصيادون الكالابريون أنه انطلاقاً من هذه النقطة من الساحل كان يوجد تياران يتفقان مع خطى سير بحررين مأثُورين: الأول أقرب ما يمكن من الساحل وينفذ إلى مضيق (Messina) أما الآخر فيتجه إلى الجنوب الغربي ويتجهي على الساحل الشرقي لصقلية. وصلت خلال بعض ساعات إلى خليج مزدوج كبير بين «سيرا كوز Syrakus» و «أوغسطا Augusta» تقطعه في الوسط شبه جزيرة تتصل مع الساحل برقة رملية ضيقة يمر فوقها طريق للمركبات. وكانت هناك لافتة تشير إلى اسم الإله «مغنيسي Magnisi» وقد علمت فيما بعد أن إسمه القديم كان «تابوس Thapsos».

#### ● مقبرة كبيرة من العصر البرونزي:

على شواطئ «تابوس Thapsos» الصخرية توجد مقبرة كبيرة ذات حجرات واسعة نحت في الصخر بشكل جذاب. ومن الواضح أنها تعود إلى زمن قديم جداً. ومداخل سراديب الدفن تتجه نحو الشرق. والأمر المدهش هو أن بعضَ من هذه القبور يتصل مع الشاطئ بخندق صغير، وكأنه كان القصد بذلك تسهيل هروب المتوفى إلى البحر.

وقد اعتقد البعض أن ذلك كان عبارة عن شبكة من الأقنية لها دور عملي ربما كان تصريف مياه الأمطار.

(\*) انظر الفقرة الأخيرة من هذا الفصل.

عشر في هذه المقبرة على مواد جنائزية من العصر البرونزي، وبالأخص مشابك أثواب وحلقات محفوظة في متحف سيراكوز بصفلية. وقد عبر عالم الآثار الإيطالي Luigi Bernabo Brea عن رأيه في هذه القبور ومحترفياتها وأوضح أن هذه الأشياء البرونزية المكتشفة وجدت في الشرق من صقلية، وهذه المشابك بالذات لها طراز قريب من مواد كان مصدرها الحوض الغربي للبحر المتوسط وبالتحديد ورشات جنوبي إسبانيا.

تبعد تلك القبور في «تابوس» ذات تقنية محلية خالصة، وربما تكون دليلاً على حضارة مزدهرة نسبياً قامت سابقاً في هذا الجزء من صقلية خلال عصر البرونز.

إن أولئك الناس الذين صنعوا لأمواتهم قبوراً بهذه الروعة، والذين صنعوا المعادن، لابد أنهم كانوا أسلفاً للصقليين الذين قدموا من إيطاليا القارية ولم يستوطنوا إلا بدءاً من القرن الثالث عشر قبل الميلاد المناطق الرئيسية من الجزيرة التي أعطوها اسم «صقلية Siketia» إن الدلائل الأخرى على تواجد الفينيقيين في أراضي صقلية قليلة، ولكن لابد أنهم عرفوا سواحلها ومارسوا فيها تجارةهم. وإذا صنع أن الخلي والأشياء البرونزية التي وجدت في القبور قد استوردت فعلماً من جنوب إسبانيا (كما أشير بالذكر آنفـاً) فلا نستطيع أن نتصور وجود مستوردين آخرين في ذلك الزمن سوى البخارية والتجار الفينيقيين. وإذا كان البرونز قد صُنعت في شرق صقلية فإنه لابد من وجود تجـار يؤمنون التحاـس والقصـدير، وهذا يعني بالتأليـي الفينـيقـيين لأنـهم الـوحـيدـون الذين كانوا في ذلك العـصـر مـحتـكـريـن لـتجـارـة القـصـدـير، حيث اسـتطـاعـوا لـمـدة طـويـلة كـهـمان سـرـ أماـكن وجـودـهـ، هـذا بـصـرـفـ النـظـرـ عنـ تـفـوقـهـمـ فيـ المـلاـحةـ الـبـحـرـيـةـ عـلـىـ جـيـرـانـهـمـ.

### ● دلائل على الوجود الفينيقي في شرق صقلية:

كان مادونه (توكيديدي斯 Thukydides) في القرن الخامس قبل الميلاد بهذا الصدد بمثابة الأدلة المطلوبة، إذ نقرأ عنده:

«... انتشر بعض الفينيقيين أيضاً في صقلية محظيون تلك البروزات الساحلية التي حصنوها وجزراً صغيرة مواجهة لها، وذلك ليجعلوا من أنفسهم أسياد التجارة التي كانوا يمارسونها مع صقلية. لكنهم عندما رأوا جماعات كبيرة من الإغريق قاتلوا إلى

الجزيرة تخلوا عن قسم كبير من الأماكن التي كانوا قد حلوا فيها وتجمعوا في أماكن أخرى فسكنوا في «موتي» Motye و«بانورم Panorme» و«سولويس Soloeis» إلى جوار «إليمس Elymes» وتماكلوا مع سكان هذه المواقع اعتقداً منهم أن هذه الجهة هي أقرب ما يكون بين صقلية وقرطاجة. أولئك هم الغرباء الذين سكنوا صقلية وأقاموا منشآت فيها...»

#### Thukydides VI, 2

إذاً فلا عجب في الأمر إذا علمنا أن الفينيقيين قد نزلوا في صقلية قبل الإغريق، ثم غادروا جهتها الشرقية لدى قدوم الإغريق ليجتمعوا في الجهة الغربية المقابلة لقرطاجة. هذا وقد جاء عند ديودور الصقلي أيضاً ما يؤيد هذه المعلومات التي دونها «Thukydides». كما أنه لا عجب في الأمر أن الآثار التي تشير إلى الحضور الأول للفينيقيين في هذا الجزء من الجزيرة كانت قليلة لأن أغلب السلع التجارية التي كانوا يحضرونها تعتبر سلعاً استهلاكية كالأقمشة والعطور والأصبغة أو المواد الأولية التي يتخصصها الانتاج المحلي.

ومن المؤكد أن الإغريق عاشوا في انسجام جيد وتفاهم مع الفينيقيين لمدة طويلة، وأن الفينيقيين لم يلاقوا عداء فعلياً في هذا الجزء من العالم إلا مع الرومان.

قدم المستوطنون الإغريق بأعداد كبيرة إلى صقلية، وذلك حوالي القرن الثامن قبل الميلاد وأسسوا بشكل خاص مدينة «سيراكوز Syrakus» وليس هناك في المصادر القديمة ذكر لأية مقاومة من الفينيقيين، بل الأرجح أنهم تعايشوا مع الوسط الإغريقي. ورغم تجمعهم بصورة عامة في غرب الجزيرة فلا يستبعد أن تكون بعض جماعات التجار منهم قد استطاعت الاستمرار في أعمالها في صقلية اليونانية.

#### ● سيراكوز «Syrakus»:

عند استئذاني من باحث الآثار الإيطالي Luigi Bernabo Brea، الأنف الذي  
بالإنصراف قال لي غامزاً: - عندما تجتاز عبة المتحف توقف في موقع «دومو Duomo» فهو أحد أجمل الواقع في العالم.. -

والواقع أن «دومو Duomo» مكان له شكل شبه مستطيل محاط كلباً بالأبنية  
التاريخية من نماذج وأزمنة مختلفة، لكن مجموعها يولد انطباعاً غريباً من الأصالة  
والانسجام.

هناك أولاً المتحف نفسه والذي يدعى «Bosco» ويقع في: Palazzo Benaventano. شيد هذا المتحف في القرن الثامن عشر في عهد مملكة الصقليتين، هذه المملكة التي انتهت في عام 1860 مع سقوط «باليرمو».

بالقرب من المتحف، أوـ «Bosco» يوجد فندق المدينة الذي بني في سنة 1700.

وفي الجهة المقابلة توجد الكنيسة، التي توحى للناظر بأنها بنيت فوق قاعدة (أو مصطبة) تعود لزمن أقدم. وللوصول إلى المستوى الذي تقع عليه الكنيسة علينا أن نصعد عشرين درجة. والواقع أن هذه القاعدة تحت الكنيسة ليست سوى قاعدة معبد أثينا التي أنشئت في القرن الخامس قبل الميلاد من قبل الإغريق سكان سيراكورس تكريماً لأكبر إلهة في وطنهم. وقد بقي معبد أثينا أحد عشر قرناً، وبعد انهياره رفعت أنقاضه وبنت الكنيسة فوق قواعده المتينة في عام 650 ميلادي. أما واجهتها الحالية فتعود إلى سنة 1645. وهي ذات أسلوب باروكي إسباني.

#### ● القديس بولص (Saint Paul) في معبد أثينا:

هناك اعتقاد أن القديس بولس وقف في هذا المكان فوق درجات معبد أثينا عندما كان يبشر بال المسيحية في سنة 61 إذ أنه بعد قضاء مدة في جزيرة مالطة توقف في سيراكورس أثناء عودته إلى روما. وهذا ما يرد وصفه في أعمال الرسل (الاصحاح الثامن والعشرين) كما يلي:

«... بعد ثلاثة أشهر وكينا البحر فوق سفينة كانت قد قضت الشتاء في الجزيرة..... رسونا في سيراكورس وسكننا فيها ثلاثة أيام... ومن هناك ذهبنا بمحاذة الساحل حتى ريجيوم.....».

#### ● ريجيو: Reggio

عرفت هذه المدينة باختلافات بسيطة في شكل الاسم، إذ كان قديماً «ريجيوم» Regium وقبل ذلك «ريجيون Reghion» أما اليوم فقال: «ريجيون كلبريا Kalabria». وفي هذا المكان يمتد مضيق ميتينا وكأنه نهر، كما أن ساحل صقلية وشبع (إتنا Etna) يمدون قريباً.

كان بانتظاري في «ريجيرو» بعض معارفي، فأخذوني في نوحة إلى جنوب المدينة فوق ذلك الطريق الساحلي الطويل الذي أطلق عليه «Gabriele D. Annunzio» تسمية «أجمل كيلومتر في العالم» بالنسبة لعصره.

وهناك مركب كبير حديث يعمل على نقل الناس والآليات من كل الجنسيات بين ريجيرو وستينا. ويوله صندوق «Mezzogiorno». هنا وان حركة العبور من جانب إلى آخر تقطع خليج «مضيق» ستينا في أضيق نقطة منه، حيث يتحمل أنها كانت أيضاً ممراً في القرن الثالث عشر ق.م لجماعات الـ «Sikulus» في قدومهم من إيطاليا إلى صقلية.

### ● من Scylla إلى Charybde :

كان المضيق منذ القدم مشهوراً ومخيفاً بسبب زوجة «Charybdes» التي كانت تأخذ السفن أو بالأحرى تلتف بها إلى صخر «Scylla» واستناداً لما قاله سكان تلك المنطقة كان ذلك الإعصار لم يزل معروفاً حتى منتصف القرن التاسع عشر، لكنه توقف، أو اختفى بشكل مفاجئ في صباح أحد الأيام الجميلة. وهذه ظاهرة لا غرابة فيها، إذ أن تلك الأمكانية التي تكثر فيها الانهدامات الحيوولوجية أو الصدوع المفيرة لا يزال فيها سطح الأرض وقاع البحر يتعرضان لبعض الهرات أو التحركات العنيفة. وهنا لا يستبعد أن قاع البحر في تلك المنطقة كان فيه أحد هذه العوارض الانهدامية وكان سبباً لاضطرابات عنيفة في المياه، وأنه حصل فيه تحول وأصبح مسترياً أو غمراً فجأة بفعل زلزال عميق.

وكان مما أثار دهشتي هو رؤية نماذج بطاقة بحرية حديثة نسبياً وعليها ما يرمي إلى ذلك الإعصار الشهير. وقد أكد لي أحد معارفي من أبحروا غالباً في زوارق شراعية على تلك الطريق، أنهم كانوا خلال إبحارهم هناك يشعرون دائماً بما هو ليس بالأعاصير ولا بالزوابع وإنما بما يشبه النظمات العنيفة التي تغير اتجاه الزوارق، مما يضطرون معه لضبط البوصلة بدقة.

بالقرب من تلك الناحية تتصب على ساحل كلبريا صخرة «Scylla» الكبيرة. وفوق هذه الصخرة قلعة قديمة تُستخدم في هذه الأيام «نزل للشباب» كما تستضيف أسوارها واسطحتها جماعات من الطلاب الاسكندنافيين الذين ينكبون على تلك الظاهرة الحديثة المعروفة بعبادة الشمس.

والي الأعلى قليلاً يوجد بروز صخري مرتفع فوق مضيق مسينا ينبعب فوقه برج كبير للأسلام الكهربائية وهو أكبر برج رأيته على الإطلاق. يحمل أسلاماً ذات توتر عالي، فإيطاليا القرن العشرين لم تنس سكان صقلية، بل أنها تزودهم بـ ملايين الفولطات من الطاقة الكهربائية.

## الفصل السادس عشر في الجزر الإيولية - خفان ورياح وسبح -

منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن قبل الميلاد كان مضيق مسينا هو الطريق الذي اعتاد الفينيقيون اتباعه بسهولة، حيث كانوا بعد أن يصيروا في البحر التيراني ينطلقون غرباً باتجاه منابع القصدير.

ولكن منذ سنة 720 قبل الميلاد كان الإغريق بعد غزوهم «ريجيوم Reggio» ومسينا قد أصبحت لهم السيادة المطلقة على مضيق والناحية الجنوبيّة الشرقيّة من صقلية. والأرجح أنه منذ ذلك الوقت توقفت السفن الفينيقية عن استخدام مضيق مسينا بعد أن صارت لها قواعد ارتكاز في غرب صقلية وصار تحت تصرفها ميناء قرطاجة الكبير (وكان عمر مدينة قرطاجة قد أصبح قرابة السبعين عاماً). ولكن إلى الشمال من مضيق مسينا بقيت الجزر الإيولية تعتبر محطة استراحة وتقطة استدلال.

وقد سمي هذا الأرخبيل في بعض الأحيان باسم أكبر جزيرة فيه وهي «ليباري Lipari». ويشتمل إجمالاً على عشرين جزيرة بعضها عديم الأهمية. وبعضها مأهولة بالسكان ولها أهمية مثل: «Filicudi» - «Salina» - «Panarea» - «Vulcano» - «Stromboli» - «Lipari» وفي هذه الأخيرة توجد العاصمة التي تحمل أيضاً اسم «ليباري». وهذا الأرخبيل عبارة عن مجموعة من المرتفعات ذات منشاً بركاني، وهو يقع على بعد حوالي 50 كيلومتراً إلى الشمال من ساحل صقلية وحوالي 100 كيلومتراً إلى الغرب من إيطاليا.

تشكلت هذه الجزر من براكين قديمة هدأت منذ زمن بعيد. إلا أن فوهة البركان الواقع فوق جزيرة «Vulcano» مازالت تبدو طرية حتى أن الإنسان يشعر بأنها ربما لم تهدأ تماماً. أما جزيرة «Stromboli» فمازال بركانها ثائراً منذ أقدم الأزلة حتى عصرنا هذه، ومازال يقذف بالحمم ويخطف السماء ليلاً يشهده. وجزيرة «سترومولي Stromboli» عرفت قديماً باسم «إتنا Etna» أيضاً. وكانت هي وجزيرة «إتنا» الأخرى تقيدان كمنارتين على الطرق الساحلية.

يحق أن نعرف لماذا دعى جزر هذا الأرخبيل بالجزر الإيونية؟... هذا الاسم المحمل بنسمات بحرية... .

ما كتبه ديودور الصقلي أن الإغريق عندما أبحروا في هذا الأرخبيل في عام 580 قبل الميلاد وجدوا أمامهم جزراً شبه خالية ولا تسكنها إلا بعض العائلات البائسة التي كانت ترعم بأنها تحدُّر من سلالة (Eole).

### ● عند منابع السبع:

كانت الجزر الإيونية هذه قد عرفت منذ الألف الثالث قبل الميلاد ما يدعى بالحضارة النيونية (العصر الحجري الحديث) حيث تشير إليها بعض المكتشفات الأثرية ومن ذلك دعائم المنازل ذات الشكل الإهليلجي التي كانت قد بنيت على شكل تجمعات متلاصقة من الممكِن أنها سبقت الاستيطان الأول في روما على ضفاف التiber بحوالي الـ 2000 سنة.

ولكن كيف السبيل إلى تفسير ذلك العصر الحضاري النيوني ثم هذا الانحطاط؟.. إنه لا بد في ذلك من العودة إلى عصر الحجر المصقول، إلى ذلك العهد الذي ترتكز فيه الحضارة على علاقة الحجارة فيما بينها، حيث كان تطوير وصقل الحجارة الناعمة يتطلب حجارة أكثر صلابة.

هذا وتذخر الجزر الإيونية بجميع أنواع الحجارة، ومن ذلك: حجر الغرانيت والحجر الرملي والحجارة البركانية والخفاف الأسود وخاصة حجارة السبع، هذه الحجارة البلورية السمراء والسوداء التي لها صلابة تقارب صلابة الماس. ونستطيع أن نرى بوضوح على منحدرات براكين (ليباري Lipari) القدية وبين سيلين من حجارة الخفاف ذات اللون الأسرم الشاحب، أكوااماً كبيرة من حجارة السبع التي كانت تفيد قدماً في صنع أشياء ولوازم منزلية هامة كالألعاب والخلبي والأختام والمرايا وشقراوات العلاقة والنصال المختلفة كالسكاكين ثم لوازم الصيد وال الحرب كالخطفافات ورؤوس السهام والرماح.

كانت حجارة السبع المادة الأولية الأكثر رواجاً حتى العصر البرونزي ولابد أن عادة استخدامها ومفهوم القيمة المتعلقة باسمها قد يقيناً كما هما حتى نهاية العصر البرونزي، أي حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ثم انتشار الحديد الذي ألغى عملياً وبشكل نهائي استخدام هذه الأشياء من حجارة السبع.

ووجدت الجزر الإيونية نفسها ضحية تطور تاريخي تجلّى بانتشار حضارات أخرى

إذا استمر الكريتيون والميكانيون بتوسيع منشآتهم من جهة والفينيقيون بنشر وتوسيع مراكمهم ومرافقهم هنا وهناك من جهة أخرى. ولكن يبدو أن هناك عاملاً آخر غير طبيعي كان قد عجل بالحطاطها.

من المؤكد أن «لياري Lipari» وهي الأكثر أهمية بين هذه الجزر قد لاقت في أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد تدميراً عنيفاً لا نعرف إن كان ناتجاً عن حرب أو عن حريق، وأثار النيران واضحة في كل مكان جرت فيه التنقيبات في طبقة الركام الموازية لذلك الزمن. بعد ذلك اخراب الذي سببه الحريق تالت، وعلى مر عدة قرون، غارات الإرهابيين التي كان يصاحبها نهب ماعند سكان الجزر.

أما بالنسبة لأولئك البوسae الذين بقوا يعيشون في تلك الجزر فيمكن القول أن قدوم اليونان سنة 580 قبل الميلاد كان إنقاذاً لهم<sup>(1)</sup> نظراً لسيطرة حقبة حضارية جديدة وازدهار الزراعة والقوانين التي وضعتها «اليونان الكبرى» وما دعي به «السلام الروماني» والمصير الذي تبعه، ولو بشكل ضئيل، مصير صقلية.

### ● الفينيقيون في لياري Lipari :

لكي أتحقق فيما إذا كان الفينيقيون قد مكثوا في الجزر الإيولية لفترة طويلة نسبياً قصدت مرة أخرى ذلك الرجل الذي كرس حياته لأبحاث الآثار في هذه المنطقة وهو العالم Luigi Bernabo Brea. ومن حسن الحظ أنه وجدته إذ كان يقوم بحملة تنقيبات في جزيرة «لياري Lipari» أثناء إقامته في مجموعة الجزر الإيولية. كما أنه صادفت في لياري مدمرة المتحف الأخرى للجزر الإيولية<sup>(2)</sup> وهي فرنسية الأصل جذابة ورياضية وتدعى «مادلين كافالير». وقد تبناها سكان الجزيرة وطلبوها اسمها بشكل طريف إذ صاروا يلفظونه «كافاليري» وبذلك ضموها إلى عائلة Bole الكبيرة.

صرح الباحث الأخرى Luigi Bernabo Brea قائلاً: .. ليس هناك موجودات أثرية تؤكد وجود الفينيقيين في الجزر الإيولية - لكنه أضاف موضحاً:

(1) وهو لاء اليونان كانوا بالواقع من Knidos، ومن رودس وحاولوا تأسيس مستعمرة في «المليوم Lilibaeum» وهي Marsala الحالية في غرب صقلية. ولكنهم بعد أن هزموا في معركة مع القرطاجيين فقدوا قادتهم تخلوا عن تلك الناحية وفي الطريق توافروا في «لياري Lipari» حيث استقبلهم السكان استقبال الثقدين إذ كانوا يعيشون في غم دائم إثر كل غارة يقوم بها الإرهابيون.

(2) المتحف الأخرى للجزر الإيولية يقع في نطاق قلعة لياري ويشرف على المدينة الحالية. وهو ذو مكانة رفيعة فيما يخص تاريخ الجزر الإيولية وما قبل تاريخها.

ـ عندما نعرف جيداً أساليب البحارة الفينيقين التجارية، ندرك أنهم لم يتركوا سوى آثار قليلة جداً. وما كانوا يقصدون عدم ترك شيء من آثارهم فقد عمدوا غالباً للتسلل على مرورهم وتواجدهم هنا وهناك بترك آثار فنية صنعوا غيرهم لكنها تُقلّت بواسطتهم، وهذا ما يزيد في تعقيد الموضوع، كانوا يرسّون بسفنهם لفترة قصيرة جداً، هي الوقت اللازم للمبادرات التجارية وتقديم القرابين للآلهة أو لهبوب رياح مواتية، لكن الفينيقين قد جاؤوا بالتأكيد إلى هذه الجزر متفقين آثار الكريبيين والميكانيين ليتمونوا من حجارة السبع خلال عصر توسعهم الكبير يتجاهل الغرب بين القرنين الثالث عشر والتاسع قبل الميلاد - والواقع أنه لو لا ذلك لم استطعنا تفسير وجود آثار فنية فينيقية عظيمة صنعت من حجارة السبع تعود إلى ذلك العصر. وأكثر ما أذكره: علبة للمرأة تليق بملكة مصنوعة من حجر السبع ومذقبة في أسفلها، تحفظت في المتحف الوطني في بيروت.

### ● من الحقب الحضارية القديمة:

ساعدت التشيّرات التي جرت في وسط قلعة لياري على تكوين فكرة عن الحقب الحضارية السابقة للعصر الهلنستي بحوالي الـ 2000 سنة إلى جانب الحضارة النيلية. وقد دعيت هذه الحقب الحضارية: «Ausonio I» و«Capo Graziano» و«Millazzese» و«Ausonio II».

ولم تكن الطبقات الأثرية الإغريقية والرومانية وحدها لتضفي على آثار لياري أهمية بالغة. وما تمجد مشاهدته من هذه الآثار: أسفار من القرن الثالث، وأسوار من القرن الرابع، وأبراج من العصر الوسيط، وكنيسة من القرن الحادي عشر وكتائس من القرن الثامن عشر، وهذه الأبنية كلها تتشابك ضمن مناطق مسؤولة قديمة حيث توجد أيضاً أبنية من الزمن الحالي يخيم عليها البؤس استخدمت لنفي خصوم الفاشيين الموسوليين قبل أن يأتي دور هؤلاء أنفسهم ليُسجّلوا في نفس الأمكنة ما بين 1944 و 1950.

أما قلعة لياري فاستخدامها الأساسي الآن هو احتواء الكنوز الأثرية القيمة في إحدى وعشرين قاعة يتكون منها متحف لياري. في الوقت الحالي لم تعد أحجار السبع الكبيرة التي تزن بين 3 و 5 كيلوغرام تُصْنَع من قبل الحرفيين وإنما تُستخدم كما هي في سد الأبواب التي لا تُنفك ريح الأرخبيل العاتية تهددها بالإنهيار. وقد أردت أنا أيضاً أن أحصل على حجر سبع، وقد شجّعت في اقتلاع حجر كبير من التحدّر الجبلي

بمساعدة صديق من ليباري كان مزوداً ببعض الأدوات. وقبل أن آخذ الحجر إلى باريس حاولت في غرفتي بالفندق انتزاع بعض النصال أو الشظايا القاطعة منه ولكن شجاعي في ذلك كان متواضعاً.

### ● حجارة الخفاف:

اشتهرت ليباري أيضاً بحجارة الخفاف. ففي أجزاء الجزيرة حيث تصفع هذه الحجارة يتبع عن رواسب الاستخراج والتحث مسحوق أبيض ناعم كالطحين تدوّه الرياح التي تهب في كل مكان فتجعله كالسحب المتحركة.

والواقع أنه مما يلفت النظر تلك الشاجن الموجودة في المرتفعات الجبلية والتي تبدو بذلك وكأنها منطقة بطيقة من الثلوج. وكذلك على وجه البحر الشديد الترفة نرى بقعاً بيضاء ليست سوى تجمعات كريات هذه الحجارة الخفيفة التي لا يستفاد منها تجاريًّا لصغرها وهي من مهملات التصنيف وحتى عند السباحة يرى المرء هذه الكريات الصغيرة تحيط به على وجه الماء. ولم يكن يخطر ببالِي أن هذه الحجارة البيضاء الصغيرة كانت مطلوبة جداً في العالم وقد دهشت عندما علمت أن حجارة الخفاف ظلت حتى يومنا هذا تمد إيطاليا بالكثير من العملة حتى أن سكان ليباري قد ألغوا من الضرائب تبعاً لتقليد كان منذ القدم.

### ● ستربومولي: Stromboli

كانت التجارة بين جزر أرخبيل ليباري حتى قربة الخمسين سنة تتم بواسطة مراكب شراعية تقوم بنقل براميل الخمر وأكياس الحبوب والبطيخ والمسافرين. وقد قيل أن آخر الذين بقوا من أصحاب هذه المراكب البسيطة هلكوا أخيراً على ساحل من الرمل الأسود في جزيرة ستربومولي Stromboli.

أما اليوم فيتم التنقل بين ليباري وستربومولي في سفن صغيرة هادئة فولكلورية إلى حد ما أو باستخدام تلك المراكب الحديثة السريعة التي تقدر فوق الماء وتستخدم في التزلج المائي، والتي تملأ تقريرياً كل أنحاء البحر المتوسط منذ بضع سنوات. والواقف على سطح أحد هذه المراكب يخيل إليه كأنه فوق جناح طائرة.

ويمكننا بسرعة أن نكتشف سحر الجزيرة إذا نظرنا من خلال نافذة المركب ذات الزجاج الراقي. وما هي إلا بضع عشرات من الدقائق حتى نهضي إلى عالم آخر دون

هزات المراكب، وسط البيئة الخالية لجزيرة سترومبولي التي يسيطر عليها بركانها الدائم الغليان، حجارة من الحمم السوداء ذات أشكال مختلفة أثرت فيها الرياح وأمواج البحر، وحصى مساء سوداء، ورمل أسود.

يشغل البركان نفسه حوالي نصف الشمال الشرقي من الجزيرة. أما الجزء الآخر، حيث تراكم طبقات الرماد البركاني وتراب الحمم، فيشكل هضبة ذات خصوبة مدهشة تزرع فيها الكرمة بصورة رئيسية.

كان قرويون سترومبولي يعيشون في بحبوحة مصدرها كرمتهم والخمر المشهور الذي كانوا يتتجونه منها. غير أن هؤلاء القرويون هاجروا خلال الخمسين سنة الأخيرة. أما بيوتهم المهجورة فقد زال ملاطها، وعلى الأبواب لاقات كتب عليها بخط سيء عبارات تدعى للقضاء مثل: «العائلة بأكملها في سان فرانسيسكو، على العنوان... كذا... وكذا...» أو «بإمكانكم الزيارة، اطليوا المفتاح من الخوري...».... الخ..

لكن المقول ما زالت تزرع والكرم لم تهمل، ويقوم على العناية بها بعض سكان الجزيرة المستدين من الذين لم يهاجروا.

لدى روبيي للمنازل المتصدعة بشدة اعتقدت أن هزة أرضية كانت سبب هذه الهجرة الجماعية، لكن الواقع كان غير ذلك، وهو أن ظهور السفن ذات المحرك وانتشارها الكبير في بداية القرن العشرين جعل الاستمرار مستحيلاً بالنسبة لزارعي الكرمة، إذ أن خمرهم الذي كان يباع بسعر مرتفع نسبياً في جزر الأربعين الإيطالي نظراً لنقله في الروارق الشراعية البسيطة، وجد نفسه فجأة أمام المنافسة القوية للخمر الصناعي الذي تنقله السفن الحديثة بكثير ويسرعة وتكليف قليلة، وبالتالي يباع بأسعار زهيدة بالمقارنة مع الخمر المحلي.

إلا أن هناك عدداً قليلاً من متذوقي الجمال، منهم ألمان وأميركان وبعض الفرنسيين، مأمورون بفكرة «معرفة العالم» وجدوا في بساطة هذه المنازل، حيث يعيش المرء حافي القدمين، ملادةً حقيقةً لطالبي الاستجمام وراحة القلب.

ويطاقات الزيارة المعلقة على الأبواب النهرة تشير إلى نقاط انطلاق هذه الهجرة كما تحتوي موجزاً لأنباء بعض الأشخاص، إذ نشاهد مثلاً:

«جون... ف... X... نيويورك»... «الدكتور كلاوس... ك... ميونيخ»...

«لقد اشتروا كوخ أحالمهم بـ 50000 أو 100000 لира ووضعوا أناياً بسيطاً عند أسفل المدران المكلاسة، وهم يدعون جيرانهم لشرب الخمر الأحمر وقضاء السهرة في

أحواض البحر القدية التي حوت إلى حمام ياباني». وملخص ذلك أنهم اكتشفوا من جديد وبطريقتهم الخاصة تلك الجزيرة المستديرة الخفيفة، جزيرة البحارة القدماء التي كان البعض يسميها «الجزيرة العائمة» إذ كانوا يعتقدون أنها كانت جائمة على منحدرات صخرة خفاف تحبط بها. وكان الكنعانيون يسمونها «الجزيرة التي تنجرف». وفي زمن الأوديستة كانت جزيرة سترومبولي تعتبر «مرسى الغرباء» ومسكن «Eole» التي توجه الرياح.

ويروي العالم اليوناني Victor Berard<sup>211</sup> الذي تبع أثر Ulysse مغامرات هذا المستكشف المثير في سترومبولي:

«يزعم سكان الجزيرة أن البركان يثور حيث يهداً، وأنه يثور أو يهدأ تبعاً للرياح. فإذا كانت الرياح آتية من الشمال جعلت مزاجه حسناً. وأما إذا كانت الرياح قادمة من الجنوب أثارته وجعلته يحذار. أما Ulysse فأثناء قدومه من بلاد Kyklopes دفعته الرياح القادمة من الشمال ووُجِدَ في البداية Eole بهيئة ساحرة، فاستقبلته ولاطفته وتمسكت به. وما أن أبدى Ulysse رغبته بالرحيل حتى تركه Eole يبحر وأعطته في قوية ريحًا شمالية مواتية، وهي الريح التي تدفع الناس والراكب باتجاه الوطن... أبحر Ulysse تسعة أيام بالياتها. وفي اليوم العاشر عندما صار يلمع أرض الوطن فتح مراقوه القربة، وفجأة انعكست الرياح وساقت المركب الصغير نحو Eole, p210- ... = 211.

فهل سيفكر سكان سترومبولي المهاجرون في يوم ما بفتح القرية لتحملهم عندها الرياح المعكose نحو بلاد Eole ثانية؟....



## الفصل السابع عشر

### الفينيقيون في:

### «بوزولي.. Pouzzoli» و«إيشيا... Ischia» و«كابري... Kapri»

قبل أن يأتي الإغريق ويؤسسوا مدينة نابولي (Neapolis) - على ساحل إيطاليا الغربي - كان الفينيقيون قد استقروا إلى الشمال منها في خليج محمي جيداً من الرياح حيث توجد اليوم «بوزولي Pouzzoli» ليس بعيداً عن مناجم الكبريت المعروفة باسم حقول «Phlegreen». وتذخر هذه المنطقة بالكبريت الطبيعي الذي يعتبر مادة أولية مطلوبة كثيراً منذ العصر القديم.

وقد تم الكشف عن مقبرة واسعة جداً من التراث الشرقي على جانبي الخط الحديدي نابولي - روما وعلى مسافة قصيرة من Pouzzoli.

#### ● بوزولي «Pouzzoli».. منشأة قديمة العهد:

كان قد اختير لها موقع مناسب تماماً: خليج صغير رملي حيث يمكن إدخال الزوارق فوق رمال الشاطئ، ثم جروف من الصخر الذين كمكان لدفن الموتى، وكثبات كبيرة من الكبريت الذي لابد أنه كان ياتي بسرعه زهيدة. وأما في جوار المكان فوجدت جماعات من الفلاحين التي ربما كانت تعيش حياة هادئة في قرية خصبة. وربما أمكن القول أن هؤلاء السكان كانوا يتصرفون منذ 3000 سنة بلطف وبشاشة سكان نابولي الحاليين. كما أن منشأة الفينيقيين «Pouzzoli» كانت في العصر الروماني موجودة وكانت تدعى «Statio» حيث كان لهذه التسمية حينذاك مدلول خاص هو: «المركز التجاري المؤجر». وفي هذه التسمية ومدلولها يمكن السر الرئيسي لنجاح التوأمة الفينيقية في العالم. إن مصطلح «مركز تجاري مؤجر» ينطوي على غياب المطامع الإقليمية ويدل في رأيي على حضور ذكي حاذق ومتواضع في الوقت نفسه، كما يفسر لنا لماذا واجه باحثوا الآثار مشقة كبيرة للوصول إلى الدلائل الملموسة للمنشآت الفينيقية.

وهذا الد «مركز التجاري المؤجر» لابد أنه كان يحتوي على مخازن أو عدة مخازن

كافية لاستيعاب مختلف اللوازم، ثم بعض المنازل المبنية على الطراز المحلي تسكنها عائلات المدراء أو الوكلاء والموظفين.

يمكن القول أن فينيقي (Pouzzoli) لم يكونوا يختلفون في شيء عن فينيقيي الموانئ العديدة الأخرى، فلابد أنهم كانوا يعتبرون مثليين محللين أو وكلاء أو مدراء فروع أكثر من اختيارهم مهاجرين بالمعنى الدقيق للكلمة. ففي «بوزولي» كانوا يشترون كميات ضخمة من الكبريت ويذخرونها بانتظار قدومن سفنهم التي امتلأت أحواضها بكل أنواع البضائع النادرة الآتية من مختلف سواحل البحر المتوسط.

ومن المؤكد بصورة قاطعة أن فينيقي (بوزولي) كانوا قد حفروا كل مرابحهم بصورة سلمية بحثة من تجارتهم، وكانتوا قد نجحوا في البقاء مخلصين لوطنهم الأم خمسة قرون بعد استيلاء الإسكندر الكبير على مدينة صور والساحل الفينيقي.

### ● هل هناك شبّه بين بيت المال؟...

ما يجدر الحديث عنه وثيقة ذات أهمية بالغة، هي عبارة عن رسالة، والأصل عريضة، منقوشة على لوح من الحجر، موجهة إلى مجلس (برمان) مدينة صور، صور التي أعيد بناؤها وأكست طابعاً هلنستياً بعد دمار عام 332 قبل الميلاد (على يد الإسكندر)، لكنها حصلت على استقلال إداري كبير، وهذا ما يرهن عليه نص الوثيقة الذي سيرد فيما يلي.

لقد تمكنت من رؤية اللوحة العجرية الشهيرة التي حفظت سليمة في مخزن متحف الآثار بمدينة نابولي. الكتابة فيها يونانية والأحرف مرسومة بشكل جيد، علماً أن تقديم العرائض الإدارية الرسمية المكتوبة بشكل متقن في ذلك العصر كان عملاً بلا طائل.

يبدأ ذلك بمقيدة مدهشة:

«رسالة موجهة إلى مدينة الصوريين، العاصمة المقدسة للتبعة والمستقلة لفينيقيا وللمدن الأخرى، والمدينة الأولى على البحر... إلى الموظفين وإلى مجلس الشورى وإلى مجلس الشعب، شعب الوطن العظيم... الصوريون المقيمون في بوزولي... تحية...»

يلي بعد ذلك مباشرة طلب يتمنى تخفيض الضريبة التي يقدمونها بالشكل المناسب والممكن تحمله، والسبب في ذلك أن روما التي تزايد نفوذها أكثر فأكثر

أخذت تفرض من الآن فصاعداً على التجار الصوريين في بوزولي أن يدفعوا أتاوات في مكان إقامتهم.

فهم يطلبون إذا الإعفاء من الضريبة السنوية المقدمة إلى صور والبالغة 100000 ديناراً رومانياً (أي ما يعادل اليوم حوالي 140000 فرنك فرنسي). إن مشكلة الضريبة التي جاءت بها هذه الرسالة هي من الأمور المعاصرة، وهي في هذه الأيام مشكلة رعايا السلطات الاستعمارية القديمة التي ترغب بالبقاء في البلد الذي أقامت فيه.

وعدا عن الإعفاء الضريبي يطالب أصحاب الرسالة باعانته مالية من أجل أماكن العبادة ومذابح آلهة الصوريين.

ثم اختتمت الرسالة كما يلي:

«إننا إذا توجه إليكم.. إن مصيرنا متعلق بكم.. اهتموا بالقضية..»

- كتبت هذه الرسالة في بوزولي في اليوم السادس قبل مطلع شهر آب. في عهد فضولية كل من «غالوس» و«فلاكوس كورنيليا نوس» -

- كتبها «لانخيس» وسلمها ابنه «أجاتوبوس» -

من خلال بعض الإشارات الزمنية الموجودة في الرسالة أمكن وضع تاريخ دقيق لها وهو 23 تموز سنة 174 ميلادية.

وأما الرد على هذه الرسالة فكان أيضاً مذهلاً، حيث جاء على شكل محضر صادر عن مجلس الشعب في صور بتاريخ موافق لـ 8 تشرين الأول من نفس السنة (174 ميلادية).

من الملاحظ إذاً أن جواب المجلس في صور كان سريعاً على المراسلات الرسمية، لأن رسالة 23 تموز لابد أن وصلتها استغرق حتى بداية شهر أيلول تقريباً، وذلك ضمن أفضل شروط متوفرة للنقل في ذلك العصر. في ذلك الجواب توضيح أن حكومة صور توافق على إعفاء رعاياها في بوزولي من الضريبة السنوية المترتبة عليهم، لكنها ترفض تقديم الإعانته المالية المطلوبة في الرسالة من أجل نفقة أماكن العبادة مذكورة إياهم بالروح الوطنية التي يعتز بها الصوريون.

وهذا نلاحظ أن المبدأ الذي يقول بعدم إلزام الإنسان بدفع الضريبة مرتين كان يوحد به إذاً منذ ثمانية عشر قرناً وليس وليد عصرنا هذا. كما نلاحظ أنه لأول مرة أيضاً تطرح فكرة الحصول على إعانته مالية ثقافية من الدولة.

## ● حياة مشرقة:

لابد أن الحياة في منطقة بوزولي Pouzzoli قبل حوالي ألفي سنة كانت ناضرةً مزدهرة، حيث كانت تمتلك مائين نابولي ومدينة «Cumes» القديمة منازل عديدة. ولابد أن أصحابها الأثرياء من الأغريق أولاً ثم من الرومان فيما بعد، كانوا يقيمون علاقات مع رجال المخازن الفينيقية تتعذر منهج الأعمال التجارية البحثة.

ولما كان للفينيقيين احتكاكاً جيداً مع الطبيعة الأرستقراطية من خلال التجاج الباهر لتجارة الكماليات والتحف النفيسة، فلابد أنهم كانوا يترددون على حمامات إيشيا Ischia القديمة المنحوته مباشرةً في الصخر والتي يعود وجودها إلى ما قبل الرومان. وللتعرف على هذه الحمامات، التي كنت أظن أنها هجرت تماماً، اتجهت إلى محطة حديثة صيفية فوق إيشيا.

## ● إيشيا (Ischia):

نجد في هذه المنطقة حوالي المئة فندق وشاطئاً يفضل بالسياح. غير أن أكثر ما يدعوه للتأمل هو تلك الخلجان الموحشة في منطقة «إيشيا» ثم ما يدعى: «Chiesa del Secorso»، وهي كنيسة بحرية رائعة في ساحة «إيشيا» ذات ملاط أبيض صلب وضلبان كبيرة صنعت من الخشب الأسود.

على المنحدر الغربي يمكن للزوارق الرسو على شاطئ رملي صغير والمدخول من ثم إلى الجزيرة عبر واد ضيق حيث تصادف لافتاً معوجة مدهونة بريشة خشنة وعليها سهم يشير إلى «Bagni Antichi».

استغرقت في الصعود ما يقارب الخميس عشرة دقيقة. وعند منعطف في ذلك الوادي بين جرفين صخريين متقاربين وجدت نفسي فجأة محاطاً بباقية من الحسناوات الإيطاليات في لباس السباحة المنسى بكيني وعلى رؤوسهن قبعات مبرقشة. وكمن يخرجون للتقو من حجرات الحمام، وذلك الحمام عبارة عن حجيرات محفورة في الصخر. والماء الساخن يتدفق من قلب الصخور ويصل إلى كل من هذه الحجيرات البسيطة عبر شبكة معقدة من القنوات الصغيرة.

عندئذ اغتنمت الفرصة وأخذت أنا أيضاً حماماً في هذه النشأة الفريدة من نوعها في العالم. ويكفي أن ترفع ستاراً رثماً لكي تخرج من الحجيرة وتتصبح في العراء مباشرةً وتحت أشعة الشمس لتأخذ حماماً شمسياً. وقد وجدت بعدها صعوبة في التعرف ثانيةً

على الحسنات الإيطاليات تحت بشرة اكتسبت لوناً رمادياً مخضراً. وقد أكدت لي إحداهن أنها منذ جاءت إلى هنا نسيت كل الأوجاع من روماتيزم وغيره.

### ● كابري... Capri:

كانت كابري (Capri) في مصر القديم بمثابة منطقة استجمام فهي الجزيرة التي كان يقضى فيها الأشراف الرومان عطلتهم. ولا بد أيضاً أن رجال الأعمال أو الوكلاء أو القادة الفينيقين كانوا يمضون فيها بعض الوقت في ذلك الزمن.

أهم ما شاهده هنا là «Scala Phoenicia» أي: السلالم الفينيقية. هكذا سمي منذ ذلك الزمن. وموقعه غير بعيد عن «Marina Grande» الحالية. يمتد على منحدر ثم يتصل بالشاطئ الصخري الكبير بواسطة حبال تبعث على الدوار وينتهي في «Aracapris» في نفس المكان الذي بني فيه (Axel Munthe) بيت القديس ميشيل (San Michelet). ومن الواضح أن تسمية هذا السلالم بـ«السلم الفينيقي»، سببها إما أن يكون مقاولون ومتعبدون فينيقيون قد بنوه لصالحة جهة أخرى، أو أنهم بنوه من أجل الوصول إلى مقر إقامة خاص بهم.

فهل كان لـ«Axel Munthe» مؤسس «سان ميشيل» ياترى أسلاف فينيقيون؟... وعلى كل حال فإن تلك الروح التجارية الدولية الكبيرة والناجحة التي يتمتع بها سكان «كابري» إن هي إلا روح فينيقية خالصة.



## الفصل الثامن عشر

### قادس... منشأة فينيقية

### مقابل مملكة «ترشيش Tartessos» الأسطورية

«.. يقال أن الفينيقيين الأوائل الذين أتوا عن طريق البحر إلى Tartessos قد جلبوا منها مقابل الريت والبضائع الخاصة التي كانت بحوزتهم حمولة من الفضة هي أكثر ما استطاعوا نقله منها عبر البحر... كما صهروا في الوقت ذاته من الفضة كل الأدوات التي تستعمل عادة على السفن حتى المراسي...»

(٤) Timee -

تابع الفينيقيون غزوهم السلمي للبحار متقدمين أكثر فأكثر باتجاه غروب الشمس، من البحر التيراني (غربي إيطاليا) انطلقا نحو الغرب منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانوا أول شعب متحضر في العالم وصل في ذلك الزمن حتى الحبط الأطلسي. هذا البحر الكبير الأكثر خضراء وهيجاناً وغموضاً من البحر الأبيض المتوسط الوديع البشوش.

والفينيقيون (كما سبق أن رأينا) هم أساس أسطورة أعمدة هرقل، - وهي مضيق جبل طارق الحالي - والتي كانوا يصطلونها (اعتباراً من الساحل الفينيقي) خلال أسبوعين فقط إذا كانت الرياح مواتية. وإذا كان الطقس سيئاً خلال الرحلة كانوا يرجعون على منشآت محمية في «أوتيكا - العتيقة» في شمالي أفريقيا وربما على موانئ أخرى بسيطة في جنوبي سردينيا وفي «إيسيرا Ibiza». وسرى أن هذه الموانئ البسيطة قد تحولت فيما بعد إلى قواعد تجارية وحريرية بالغة الأهمية على يد القرطاجيين.

#### ● تأسيس قادس:

في القرن الثاني عشر قبل الميلاد توصل الفينيقيون لتأسيس تلك القاعدة التي أعطوها اسم «قادس» على ساحل إسبانيا الغربي والتي عرفت بالأسبانية بلفظ «Cadizo» وبالفرنسية بلفظ «Cadix»). وكان تأسيسها بالأصل على جزيرة صغيرة تبعد أكثر من

(٤) مابين أواسط القرن الرابع ومتتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

مئة كيلومتر إلى الشمال الغربي من جبل طارق. وكانت قد يائلاً تفصل هذه الجزيرة عن البر مياه قليلة العمق تشكل ملحاً بحرياً ممتازاً، إلا أن هذه الجزيرة تحولت بمرور الزمن إلى شبه جزيرة وصارت تفصل مع بلدة «سان فرناندو San Fernando» على الساحل بواسطة طريق معبد طوله بضعة كيلومترات.

إن أقدم الآثار الفينيقية التي عثر عليها في قادس تعود إلى حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ومن المؤكد أن هذا المركز التجاري كان حيوياً بالنسبة لصناعة وتجارة الفينيقيين. ويبدو أن ذلك الموقع اختيار كنقطة مناسبة على مفترق طرق المعادن حيث كان يأتي النحاس والفضة من السلسل الجبلية القرية، كما وجد هناك الرصاص والقصدير الذي استُخدم من أماكن أخرى، ثم الذهب والمعاج ومصدرهما كان أفريقيا.

في قادس كان الفينيقيون يصطادون سلع الطون، هذا ويعتقد أن أماكن استخراج الملح في سان فرناندو كانت مستمرة خلال العصر الفينيقي، والواقع أن الملح مادة ضرورية لحفظ الأسماك. وقد أكد لي عالم الآثار الأسباني Julio Martinez Santa «Ollala شيئاً من هذا القبيل بقوله:

«في كل مكان من جنوب إسبانيا توجد ملاحات قديمة، وهناك احتمال كبير أن يكون قد وجد معمل فينيقي لحفظ الأسماك. إن الملح في العصر القديم كان له دور المستودعات المبردة في أيامنا هذه...». كما أن Timees الذي ورد ذكره في أول هذا الفصل يحدثنا عن ثروات قادس المعدنية ويضيف على ذلك:

«بعد أربعة أيام من الإبحار في قادس كان الفينيقيون يصطادون أسماك الطون الكبيرة التي كانت توجد في أقصى الجزر في منطقة تكثر فيها نباتات الأسل والسرجس. وقد كانت هذه الأسماك تحفظ وترسل إلى قرطاجة حيث يعاد تصديرها أو تستهلك محلياً إذ أنها كانت من السلع الغذائية المطلوبة جداً...»

إن هذا النص بالإضافة إلى توضيحه النشاطات الفينيقية في قادس يبين لنا أن الأسماك كانت تصدر إلى قرطاجة وأن قادس التي أسسها الصوريون قد أصبحت على الأرجح شيئاً فشيئاً تابعة لقرطاجة (أو مستعمرة قرطاجية). كما أن من بين المكتشفات الأخرى ما يدعوه للإعتقداد أن قادس كانت لها علاقات مع صيدون. إذ عثر على أحد التواييت الحجرية المعروفة بأنها صيدونية وقد صنع على طراز تلك التواييت التي وجدت في صيدون، وربما في نفس الحقبة التاريخية (أي القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد). وهي معروضة حالياً في متحف باليرمو، وقد ذكرنا فيما سبق أن

هذه التوابيت ذات هيكل مصرى وشكل إنسانى ويمثل الغطاء فيها صورة المتوفى التي رسمت بطريقة يونانية قديمة وواقعية.

والتابوت الذى وجد في قادس يمثل عجوزاً من النبلاء يحمل قليلاً فوق صدره. وغير معروف ما هو المقصود بذلك، ولكن من الممكن أن هذا القلب كان يرمز إلى شيء يخص شخص المتوفى.

احتفظت قادس عبر القرون في صميمها بالعصبية الفينيقية. وتعتبر مدينة المنشآت البحرية الأسبانية الكبيرة. وفي أحياطها الضيقة التي أنشئت على الأرجح فوق مخطط المدينة الفينيقية لازالت تسكن عائلات قديمة من أصحاب السفن في منازل متواضعة ذات أبواب ثقيلة ومعتمة ومسيرة بالنحاس.

ومن يتأمل كاتدرائية قادس بروعة أشكالها وتكليفها العالية يوحى إليه ذلك بتتابع غزو أميركا الجنوية وبتصور المغامرين الأسبان في قادس والكتوز التي جاؤوا بها من ماء راء الأطلسي.



## ترشيش... Tartessos

### تسلسل الأحداث العام

#### قبل الميلاد.

- نقطة انطلاق الحضارة الجديدة في شبه جزيرة إيبيريا.  
عصر بناء الآثار المغليبية في الغرب الأفرو أوروبي.  
التأسيس المفترض لمدينة ترشيش (افتراض: Schulten).  
تأسيس الفينيقيين لمدينة قادس.  
عهد «أرجانتونيوس Argantonios» ملك ترشيش.  
يفضل «أرجانتونيوس» استعادت ترشيش استقلالها عن الصوريين.  
رحلة همبلكون الكبير الذي أرسلته قرطاجة باتجاه الشمال إلى منابع  
العتبر.  
بداية القرن الخامس: استيلاء قرطاجة على مملكة ترشيش.  
استيلاء قرطاجة على مدينة ترشيش نفسها (العاصمة)  
قرطاجة تمارس الحصار الكامل على منطقة أعمدة هرقل.  
الغزو الروماني لكل من قادس وترشيش - نهاية السيادة الفينيقية في  
شبه الجزيرة الإيبيرية - تحول مملكة ترشيش الأسطورية إلى مقاطعة  
رومانية  
انتقام الرومان بتدمير ترشيش بالكامل وإزالة اسمها ثم إنشاء معسكر  
الحرب Xeres (وصار يدعى Jerez) في مقاطعة Turdetanie.

## ■ مملحة ترشيش «Tartessos»:

عندما دمرت هذه المدينة (أو الملكة) ضاعت أسرارها معها، وبقيت من ذلك مجرد تصورات عن غناها وتوقات أنها كانت في الجهة المقابلة لجزيرة قادس الصغيرة. ولم تزل ترشيش تعتبر لغزاً بالنسبة لباحثي الآثار حيث أن ذكرها في النصوص القديمة كمصدر للثروات يوحى بأهميتها للفينيقيين، ولكن من دون أي توضيح إن كانت مملكة واسعة أو مجرد مدينة. كما يفهم من بعض هذه النصوص أن ملوكاً كباراً قد حكموها إذ أن اسم واحد منهم على الأقل ذكره الكتاب القدماء. فقد أشار هيرودوت بالذكر إلى أحد هؤلاء الملوك خلال حديثه عن رحلة الـ «فوكين»<sup>(\*)</sup> إلى ترشيش:

«كان الفوكيون أول من وصل من الإغريق إلى ترشيش، حيث دعاهم الملك أرجنتونيوس للبقاء، ولما كانوا مهددين من قبل الميديين فقد دخلوا إلى الملك يحملون هدية. فاعطاهم أرجنتونيوس الدنانير القضية اللازمة لبناء سور كبير من الحجارة...».

وما يجب الإشارة إليه أن هذه الرحلة كانت على الأرجح خلال زمن الانتلاقة البعيدة للفوكيون في غرب البحر المتوسط حوالي سنة 580 قبل الميلاد. وهذا يتبع لنا الاعتقاد أن عهد الملك أرجنتونيوس الذي دام أكثر من مئة عام كان ما بين 650 و 550 قبل الميلاد. كما يمكن الافتراض من خلال هذا النص أيضاً أن أرجنتونيوس عندما عامل الفوكيون باحترام ودعاهم للبقاء في مملكته ربما قصد اكتساب عاصير حلقة كي لا يقى وحيداً تجاه الفينيقيين. لكن قصة هيرودوت من جهة أخرى توضح لنا أن الـ «فوكين» عادوا إلى بلدهم ليواجهوا الهجمات التي كانت تهددهم.

هذا وإن الأخبار المتعلقة بترشيش تستند أيضاً إلى قصة أخرى جاءت عند هيرودوت يقول فيها أن سفينة فينية اضطررت أن تلتجأ إلى ترشيش عندما دفعتها رياح معاكسة، وأنها باعث حمولتها في ظروف استثنائية حسماً، وعند العودة إلى

(\*) نسبة لمدينة «فوكايا Phokaia» إحدى المدن الإيونية الشمالية على الساحل الغربي لآسيا الصغرى. كانت مدينة تجارية هامة نافست الفينيقيين. واستطاع الفوكيون تأسيس بعض المستعمرات في المعرض الغربي للبحر المتوسط منها مرسيليا جنوب فرنسا - المحقق -

«ساموس Samos» اقطع قبطان السفينة ستة عشر بالكة من الربع الذي حققته هذه الرحلة وصنع مزهرية عملاقة من معدن ثمين يبلغ ارتفاعها مترين وترتكز على ثلاثة تماثيل برونزية ضخمة وقد نهادها قرياناً للآلهة.

هذه القصص الغريبة تستند بالتأكيد إلى نظريات أرادت أن ترى في ترشيش أكثر من مركز تجاري أو مملكة صغيرة (من ممالك المدن) وحاولت ولو بشكل غير مباشر تشبيهها بالـ «أطلانتيس... Atlantis»<sup>(\*)</sup>.

أما الشيء الذي يبدو أكثر غرابة فهو عدم العثور على أي شيء من الركام الأثري يمكن أن تكون له علاقة بذلك المملكة الأسطورية الشهيرة. هنا يدعو التفكير في احتمال حدوث تلاطم عنيف وكبير لأمواج البحر أو زلزال عنيف تبعه انفجار المنطقة بجياه المحيط.

لقد أردت أن أضع حداً لمواصلة البحث في هذا الموضوع، فقصدت العديد من علماء الآثار وكل الذين تعرفت إليهم في هذه المنطقة وقد أظهروا حماساً واهتمامًا بذلك. أدركت من خلال هذه الاتصالات أنه بعد انتضاض ستة وعشرين قرناً على زمن أرجنتينوس كان سكان منطقة أندلوسيا هذه مهتمين كثيراً بمسألة ترشيش وبعضهم يسيطر عليه الحماس لمعرفة شيء عن هذه المسألة. لقد قدموا لي كراسات وكل ما يعتقدون أنه ملفقات سرية. وسألت في القرى فلاحين من يعتقدون أن لديهم أسراراً يريدون البوح بها. وتجولت برفقة مرشددين متقطعين في كل المنطقة الريفية الممتدة ما بين: «Puerta de Santa - Maria» و«Guadaluquivir» و«Jerez de la Frontera» و«San Fernando». أي تجولت في كل أطراف خليج قادس الحالي.

كما صادفت أنقاضاً كثيرة وخرائب في أماكن متعددة وبالخصوص جداراً هائلاً على ضفة نهر «Guadalete» الذي يصب في خليج قادس. وبعد دراسة دقيقة بدأ هذا الجدار وهذه الأنقاض المجاورة وكأنها من العصر الروماني. هذا ولا يستبعد أن يكون نهر «Guadalete» قد لعب دوراً في تصريف المعادن خلال عصر ترشيش.

أدركت بعد هذه المرحلة أن البحث كان شاقاً للغاية خاصة لأن كل المنطقة الواقعة بين نهري «Guadalete» و«Guadaluquivir» قد تغيرت كثيراً منذ أكثر من ألفي سنة بفعل الطمي الذي يتوضع من مياه هذين النهرين.

(\*) اسم جزيرة أسطورية وصفتها الروايات القديمة بأنها كانت جزيرة كبيرة وغنية في المحيط الأطلسي وقد غارت في مياه المحيط خلال زمن غير معروف - المحقق -

لقد طرحت في الأوساط العلمية فرضيات تحدد موقع مملكة ترشيش في نقاط مختلفة من هذا المضلع الرباعي الكبير بين المناطق الآتية المذكورة.

يعتقد صديقي (Julio Santa Ollala) بهذا الصدد أن مملكة ترشيش كانت تقع شرقاً على مسافة قصيرة من البحر. ويرجع أن تكون مدينة «Lebrija» التي تبعد حوالي 50 كيلومتراً عن مضيق قادس الحالي باتجاه «Seville» هي تلك العاصمة. أضف إلى ذلك أنه عثر في «Lebrija» على كنز مدنس مؤلف من ستة شمعدانات كبيرة وجميلة من الذهب. وقبل بضع سنوات اكتشف أيضاً في مكان قريب من هذا الموقع كنز آخر غرف تحت اسم «كنز Carambole»، وذلك أثناء قيام جمعية «حمام إشبيلية» بأعمالها. وتشتمل هذا الكنز على مجموعتين: تضم الأولى واقية للصدر وسوارين وثمانين صفائح معدنية لحزام مفصلي، وكل ذلك من الذهب وبلغ وزنها بالاجمال كيلوغراماً واحداً. وضمت المجموعة الثانية واقية للصدر أيضاً وعقداً وثمانين صفائح معدنية كتلك السابقة وهذه الخلية بمجموعها من التراث الشرقي القديم.

عدا عن ذلك عثر على كنز آخر أقل أهمية في (San Lucar). إذا وصلنا بين النقاط الثلاث لهذه الإكتشافات حصلنا على خط مستند إلى سلسلة الجبال الجنوبيّة الشرقية ومواز لنهر «Guadaluquivir». من المؤكد إذاً أنه قد وجد في تلك التواحي مركز سكاني ازدهرت فيه أو حوله الحياة الاقتصادية والفنية. وهذه التحف الرائعة التي تقدمها هذه الأرض تدريجياً، وكانتها تسلمها على ماضيها، هي من الذهب المصمت وقد صنعت بدقة بالغة. ويعتقد بعض الباحثين أن هذه الكنوز ماهي إلا سلع استوردة لها قادس الفينيقية، لكن الزخارف التراثية التي تحملها هذه الخلية تتعلق بفن يحمل مفهوماً خاصاً رغم طابعه الشرقي بشكل عام. ولقد بذل الباحثون جهداً كبيراً بقصد وضع تاريخ معقول لهذه الكنوز فلم يكن ذلك ممكناً إلا بشكل تقريري، فحدّدوه بين القرنين الثالث عشر والخامس قبل الميلاد. كيف نفسر الزوال أو «التلاشي» شبه الكلمي لمملكة ترشيش؟... يعتقد العالم (Pena Basurto) أن الترشيشيين ثاروا في عام 197 قبل الميلاد ضد الرومان الذين كانوا قد جعلوا من أنفسهم أسياد البلد باحتلالهم قادس وجنوب إسبانيا منذ عام 206 قبل الميلاد. وربما تكون المقاومة التي كان على راسها «Istalamios» قد سحقت في عام 195 وبالغ الرومان في تخريب المدينة المدمرة حتى أزالوا كل معالمها عن وجه الأرض وبطل استخدام اسمها. وأقامت روما في ضواحي المدينة بعد زوالها معسكراً دعى به «Ceres» وصار يسمى فيما بعد «Jerez». وبالرغم

من التدمير الكلي والعمل البيئي لحركة توضيع الطمي في نهرى (Guadaluquivir) و(Guadalete) وقد بقىت في مكان ماليس بعيداً عن معسكر (Jerez) البقايا المدفونة لملكة غريبة أو على الأقل لمدينة لا بد أنها كانت واسعة ومزدهرة كمدينة قرطاجة ومنذورة مثلها لمصير مأساوي.

ولا بد من البحث الدقيق والتنقيب بشكل متخصص كما جرى في قرطاجة وهنا يكمن الدور الهام للأجيال الجديدة من علماء الآثار. ولا بد أنهم سيجدون ذات يوم موقع ترشيش، وسيتمكنهم عندئذ فقط أن يخبرونا إن كانت مملكة (أرجنتينوس) - ترشيش - هي نفسها (أتلانتيس Atlantis) تلك الجزيرة / المملكة الغارقة أو غيرها.



## الفصل التاسع عشر

### بريطانيا

### القصدير والفينيقيون

من غير المؤكد حتى الآن إن كان الفينيقيون خلال سعيهم وراء القصدير باتجاه الشمال قد أنسوا محطة لهم في بريطانيا.

ففي الواقع أنه ليس هناك أي اكتشاف أثري حتى الآن يساعد على إثبات المضمر الفينيقي، بالرغم من رواية قديمة جداً بهذا الصدد كان يؤكد صحتها «G. de Vaudoncourt» في القرن التاسع عشر. (ويبدو أن الباحثين في القرن العشرين صاروا أكثر تحفظاً).

وعلى كل حال نستطيع القول أنه إن كانت هناك منطقة يمكن أن يكون قد نزل فيها الفينيقيون فهي بالأحرى مضيق «Morbihan» (الناحية المسماة حالياً «Vannetais»).

من المعروف أن بعض اللغويين من القرن التاسع حاولوا أن يثبتوا أن الفينيقيين كانوا في الواقع جالية من بلاد الغال، وهي جزء من «Vannes» في عصر كانت فيه مدينة «Tours» عاصمة، وحيث كان الـ «Venetes» أحد الاتحادات القبلية الأكثر نشاطاً في بلاد الغال.

ويرى هؤلاء اللغويون أن كلمة (E) - N (E) - C(E) - PH (E) هي نفس كلمة - (E) - T (E) - N (E) كما تلفظ باللهجة الإغريقية أو بالسامية والتي تجدتها في كلمة «Phenicien» - «Venet» وهذا يقود إلى الاستنتاج بأن: «Venete» - «Venet» - «Phenicie» هي ألفاظ متشابهة ومتقاربة. في هذه الفرضية استبعد لكل ما هو مخالف للصواب: كاتجاه «الفينيقيين Vannetais» نحو الشرق لتأسيس صور (التي قد تكون تحريراً لكلمة Tours) والإبقاء على القراءات اللغوية الفقهية.

على كل حال لابد من ذكر بعض الأعمال في منطقة وجود الـ «Venetes» القدماء حول مضيق «Morbihan».

## ● أماكن «الحجج»:

أول ما يجلد ذكره هو الآثار المغليبية التي من أغربها في العالم تلك الغرفة الجنائزية في الجزيرة الصغيرة، وهي عبارة عن جثوة مبلطة بحجارة نقشت عليها رسوم غامضة كدوائر متعددة المركز (لأنعرف إن كانت ترمز إلى شموس) ومحنيات (لأنعرف إن كانت تعبر عن أفاع أو أنهار) بالإضافة إلى أشكال سوابيل وصفوف الكرنك الهائلة التي تظهر من خلال الضباب في صبات الشتاء في السهول البريطانية.

هذا الخليط من الرموز الأثرية إن دل على شيء فهو يدل على أنه كان يوجد في الألف الثالث والألف الثاني مكان مرتفع للعبادة في هذا الموقع، إنه بمثابة محجة حقيقة.

هذا الحجج كان أيضاً ذا شهرة واسعة في العصر الفينيقي، ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن نصب الحجارة المغليبة الكبيرة يفترض أنه يعود إلى حوالي 2700 قبل الميلاد، وأن الفينيقيين لم يتغلوا في الخليط الأطلسي إلا بعد خمسة عشر قرناً أو أكثر من هذا التاريخ.

من الممكن الاعتقاد أن أماكن الحج هذه، التي تعود إلى العصر الحجري، قد بقيت مقصودة حتى ما بعد العصر الذي شهد ازدهارها.

إن الأمثلة على أماكن التعبد المرتفعة التي اختفت بأكملها قليلة، فإن ما يحدث بالواقع هو تعاقب الاعتقادات والعبادات وتغير الكثير منها، لكن الأماكن تبقى لها صفة القدسية.

فالعبادات التي كان يمارسها الناس الذين أنشأوا الـ «منهير» - ذلك النصب الحجري العمودي العالي - رغم أنها ضعفت وترجعت فقد بقيت معروفة حتى العهد الروماني، ولم يحدث حينذاك أي تدمير لأماكن العبادة، وكل ما هنالك أنه أدخل عليها الطابع الروماني، ومن الأمثلة على ذلك بعض النقوش الرومانية على الأحجار القائمة في بريطانيا.

ولدى ظهور الديانة المسيحية للاحظ أنه بدلاً من محاربة العقائد القديمة المتعلقة بـ «حجارة منهير» قد أبقت على بعضها كاتخاذ بعض أحجار منهير العمودية في بعض الأماكن وتحويلها إلى أجران للماء المقدس، مثل مناطق «Bigoudens».

ومن جهة أخرى فإن التقليد القديم لمواسم الحج التي كانت تقام في «Carnac» أو في «Kermado» قد يقى. إذ أنه بالقرب من هذه الأماكن في «Sainte Anne» أو «Auray» تجتمع جماهير غفيرة في كل سنة فيما يدعى «مكان المغفرة». وإن استمرار هذه الظاهرة في المكان نفسه يجعلنا نستنتج أن حشوداً كبيرة من المؤمنين كانت تجتمع على ضفاف خليج «Morbihan» في العصر الذي يمكن أن يكون الفينيقيون قد جاؤوا فيه إلى هذه المنطقة.

والواقع أنه ليس من الخطأ أن نعتقد أن البحارة الفينيقيون حصر استكشافاتهم البحرية في العصر القديم ما بين القرنين الثاني عشر والخامس قبل الميلاد قد جاؤوا إلى هذه الأنحاء من أجل تجنب فترة كان فيها الجو سيفاً وللإفاده من مستوى الماء الطبيعي جيداً، حيث كان بمقدورهم إصلاح السفن وإنجاز صفقات تجارية مع العديد من الحجاج. وهكذا كانت أماكن الحج تجذب التجار والبحارة.

### ● بخارية بواسل:

اتصف آل «فينيسيون Venetes» بمهارة كبيرة في الإبحار بالسفن الشراعية وبطبيعتهم المسالمة والمبطنة أيضاً بشجاعة كبيرة في مقاومة الغرامة. وهذه كلها صفات مشتركة مع الفينيقيين.

وقد أوضح قيسر عن هذا الرأي في كتابه الثالث، المذكرات التاريخية عن الحرب الغالية بما معناه:

«إن هذا الشعب - الفينيسيين - هو أقوى شعب في كل هذا الساحل. فهو يملك أكبر عدد من السفن التي كان يستغلها للتجارة مع بريطانيا. وهو يتغوف على باقي الشعوب بعلمه وتجربته في الإبحار. كما يحصل الموانئ القليلة الموجودة على هذا البحر الهائج المخيف. ويحصل على الجزية من كل الذين يبحرون في هذه المياه...»

ثم يضيف بهذه الصدد:

«... كان عندهم دائماً أمل كبير، لاسيما وأن طبيعة البلد كانت تلهيهم الكثير من الثقة. وكانوا يعرفون أن الطرق البرية قد تقاعدت مد البحر بواسطة الملاجئ. إن كل مدن هذا الساحل تقريباً كانت تقع في أطراف السنة الأرضي الساحلية (الرقوس) وفوق بروزات صخرية ولم يكن لها منفذ لا

للمساورة عندما يكون البحر عالياً (الأمر الذي يحدث مرتبين كل أربع وعشرين ساعة) ولا حتى للسفن في حالة الجزر لأنها تصطدم بالقاع. عندما كان الفينيسيون يحسنون بالخطر والقنوط كانوا يجمعون كل مالديهم من سفن وينقلون إليها كل ثرواتهم ثم ينسحبون إلى الأماكن المجاورة....»

هذا تماماً يكمن فن المقاومة الذي كان يمارس في صور وفي صيدون. بعد ذلك جاء عند قيصر وصف دقيق للغاية عن السفن الفينيسية القوية التي تتشابه حتى ليلقىس الأمر مع سفن «Sinagos» التي مازال يمكن رؤيتها في مضيق (Morbihan).

ففي ذلك يقول قيصر ما معناه:

«... لقد حشنت سفن الأعداء - الفينيسيين - أنفسهم بالطريقة التالية: غاطسها مسطح أكثر بكثير من غاطس سفتنا بحيث لم يكونوا يخشون أماكن المياه الضحلة وحالات الجزر. وكانت جأجحها مرتفعة جداً وكوائدها أيضاً بشكل ملائم لقوة الأمواج والعواصف. كانت السفن بأكملها قد صنعت من خشب البلوط لكي تحتمل أية صدمة أو أعباء. وتبلغ ثخانة العوارض قدماً واحدة وهي معلقة بواسطة أوتاد حديدية بحجم الإبهام.

أما المراسي فهي مشببة بواسطة سلاسل حديدية بدلاً من الخيال ولها جلود بدلاً من الأشرعة وقطع جلدية رفيعة وظرفية إذ كان يقصها الكتاب أو أنهم لم يعرفوا استخدامه، وإن يكن من المحتمل جداً أنهم اعتقدوا بأنه ليس من السهل قيادة سفن ثقيلة كهذه بواسطة أشرعتنا عبر زوابع البحر ورياحه العاصفة. وعندما كان أسطولنا يواجه سفناً كهذه كانت ميزتها الوحيدة إمكانية تجاوزها بسرعة ومرنة وكل ما سوى ذلك كان لصالح سفن الأعداء التي تعتبر موافقة ومهيأة بشكل أفضل لطبيعة هذا البحر وقوة عواصفه. والواقع أن سفتنا بقواطعها لم يكن لها أي تأثير عليها إذ كانت من المثانة وارتفاع الهيكل بحيث لا تتمكن منها سهام الرماة وفي الوقت نفسه كان من المتعذر اصطيادها. أضعف إلى ذلك أنه إذا هبت عاصفة كانت تلك السفن تستسلم لها إذ كانت قوة احتمالها كبيرة. وكان يمكنها أن ترسو سلام في المياه الضحلة. وحتى في أوقات الجزر لم تكن تخشى الصخور أو غيرها. في الوقت الذي تكون فيه الأخطار الخفية بسفنا مربعة....».

لقد أتي يوليوس قيصر بنفسه كي يربح بالصدفة، وبعد معارك طويلة، معركة

«Morbihan» البحرية التي وضعت عملياً نهاية للحرب الغالية. كانت الرياح تهب فجأة، والهدوء يخيم، وكان الأسطول الفينيسي (البندي) ساكناً وقوياً يشرف بصاريه على صدور السفن الرومانية.

إن الوصف الذي دوّنه يوليوس قيسار للسفن البندية (الفينيسية) يتطابق مع وصف السفن الفينيقية المعروفة من مصادر أخرى.  
بامكاننا إذاً أن تخيل وجود «ترابط» ...

### ● القصدier:

إن أكثر مادة أولية كانت تهم الفينيقيين ويشغلهم البحث عنها هي القصدier. لقد ثبت وجود خامات القصدier بالقرب من «Vannes». ولكن من المرجح أن مناجمه اليوم لم تعد سهلة الاستثمار كما كانت سابقاً وذلك بسبب تراجع مستوى السواحل.

يوجد القصدier في باطن الأرض في أماكن مختلفة وخاصة في «Penestin» حيث تتسرب خاماته مع المواد المختلطة معها من جوف الأرض هناك إلى قاع البحر عبر مصب «Vilaine». وعلى مقربة من ذلك المكان وبين رمال الشاطئ الذهبية لائزال توجد جزيئات من القصدier أنت بها الأمواج.

وفي سجلات مصلحة المناجم في تلك الولاية نجد عدداً من التصاريح القانونية للبحث عن القصدier في هذه المنطقة. ولكن من غير المؤكد وجود كميات وافرة بالفعل في «Penestin». وقد يكون هناك احتياطي من الخامات في جهات أخرى مجاورة. إذ كان يوجد منجم هام في «Creuse» عدا عن منجم استمر منذ أزمنة قديمة وحتى سنة 1914.

كما شاهد حفراً واسعة ردمت جزئياً وقوتها عميقة بقيت على حالها حتى اليوم رغم عوامل الزمن ونمو النباتات. وقد أجريت تحريات أثرية هامة في هذه الأماكن استطعنا من خلالها تكوين فكرة عن المراحل التي كان يمر بها إنتاج القصدier.

1 - يتم غسل الخامات (الرkan) عند الشاطئ باستخدام أحواض لحفظ.

2 - يتم سحق الخامات بواسطة الهامون والمدقفات.

من الجدير باللحظة أنه حتى عام 1859 كان يوجد أحد قبور ما قبل التاريخ

(المسىي دلن) فوق أكمة مشرفة على النجم بأكمله، لكن هذا النصب اخفى بمرور الزمن.

إن نقل خامات القصدير إلى فينيسيا (البنديقية) لم يكن يثير أية مشكلة حيث أن طرق المواصلات البرية كانت سهلة وعريضة.

ما أصبح معروفاً حتى الآن أن مضيق (Morbihan) لم يكن في العصر القديم منبعاً هاماً للقصدير ولكنه كان على الأقل مكاناً لتخزينه. هناك شيء آخر يعتبره بعض علماء الآثار دليلاً على الصلة العميقة بين «فينيسيا» وتجارة القصدير، وهو:

### ● حجارة الـ «Callais»:

هناك مئات عديدة من قطع الحلي المصنوعة من هذه الحجارة وجدت بالقرب من سواحل خليج (Morbihan) وخاصة في القبور الغليبية. ولقد فتشت عن تعریف دقيق ومناسب لهذه الحجارة الشعيبة التي تفيد في صناعة العقود والأقراط فوجدت أن أجمل وصف هو الذي دونه عالم الطبيعتيات «بلينيوس... Plinius» كما يلي:

«... إن حجارة الـ «Callais» ذات لون أخضر شاحب وسماكه ملحوظة لكتها مليئة بالثقوب والأوساخ... تحت هذه الحجارة لإعطائهما الشكل المناسب. وهي سهلة الكسر.. وأجملها لوناً هي تلك التي تكون بلون الزمرد. وبقدر ما تكون جميلة تكون قدماتها للونها سهلة بلامسة الزيت أو العطور السائلة والخمور.. وبالعكس فإن تلك الأقل جمالاً تحافظ على لونها بصورة أفضل...»

أما عالم الآثار الكبير (Louis Siret) فيعتقد أن حلي حجارة الـ «Callais» التي تمدها في أوروبا الغربية وتلك التي توجد في بريطانيا وبأعداد لا تتصدى، وأحجار أخرى وجدت في الآثار الغليبية في إسبانيا، لا يمكن أن تكون قد جاءت من الشرق، وهي مرتبطة باستعمار القصدير، إذ أن هذه الحجارة كانت توجد على الأرجح كمادة حمام في طبقات الأرض الحاوية على القصدير.

ويعتقد آثاريون آخرون أن منبع حجارة الـ «Callais» كان منطقة (Morbihan) نفسها، وأن الطبقات التي تعودها لم يتم التعرف عليها بعد. ومع ذلك فإن وجود هذه الحجارة في موريهان وفي إسبانيا إنما يثبت مرة أخرى أنه كانت هناك مبادرات عبر

الطريق البحري حتى قبل الفينيقيين بين هاتين المنطقتين الأطلسيتين. من الصعب أن تتصور أن هؤلاء الرواد لم يستفيدوا لذى إقامتهم في قادس من الطرق البحرية المفتوحة والمعروفة منذ عهد بعيد.

هناك إذاً مجموعة من الإفتراضات ربما يكون بعضها مطابقاً تماماً لفكرة وجود علاقات (أو قرابة) بين الفينيقيين والفينيسين (البنادقة). ولكن بانتظار أن تجد الأجيال الجديدة من الباحثين الدلائل الملموسة على التواجد الفينيقي في بريطانيا فإني أرى من الحكمة أن أتبين أفكار العالم الكبير (Louis Siret) الذي كتب:

«يمكننا التسليم بأن الفينيقيين قد استمروا الساحل الغربي لأوروبا بمساعدة السفن والبحارة الإيسيريين..»

وبذلك نصل إلى مبدأ المساعدات البحرية وملاحة المساحلات الإيسيرية الفينيسية التي أمنت بشكل كلي أو جزئي نقل القصدير حتى قادس، ذلك المركز الكبير لحشد البضائع الفينيقية.

قد يكون إذاً خليج (Morbihan) مكاناً آخر للتجمّع، حيث يفترض أنه عدا عن القصدير المحلي كان يجتمع القصدير الوارد من (Montebras) ومن مناجم (Cornouailles) البريطانية المشهورة منذ زمن قديم جداً.

لقد كان التواجد المباشر أو الذي تم بواسطة وكلاء كلفهم القادمون من الشرق في البلد حلماً شرقياً ظل يراود نفوس الفينيسيين زمناً طويلاً حتى بعد حملة يولوس قيصر. وفي الواقع يروي التاريخ أنه عندما اجتاحت (Attila) بلاد الغال في عام 452 هاجر عدد كبير من الفينيسيين من موطنهم، وربما كانت هناك بعض العوامل التي أثرت في اتجاه هجرتهم، فقد اتهم مسیرتهم الطويلة نحو الشرق والجنوب الغربي من أوروبا إلى أن جاء اليوم الذي حاصرهم فيه اللومبارديون في سهل الـ (Po) فلم يجدوا حينذاك خياراً آخر سوى اللجوء إلى جزر البحيرة الشاطئية التي تقع في أقصى البحر الأدريatic.

### ● وماذا عن السفينة «فينيسيا»؟..

لقد بذل الفينيسيون جهوداً كبيرة حتى صنعوا سفينة ذات مرساة حملت اسمهم «Venise» زمناً طويلاً جداً.

في أقل من قرنين بني أحفاد الفينيسيين «صيادون» جديدة أو «صور» جديدة - البنديقية - وليسمعوا في التخلص من الامبراطورية البيزنطية وتشكيل حكومة مستقلة. وقد اتخذ الرؤساء المنتخبون منهم لقب «القاضي الأول» - doge .. ومن الجدير بالذكر أن القضاة اتخذوا كرسيه للرأس تدل على العظماء تلك القلسوة المشتبأة إلى الأمام والشبيهة بالقلنسوة الفينيقية. فهل كان هذا الشبه ياترى بمحض الصدفة؟ ..

## الفصل العشرون الفيزيقيون وإنكلترا

في آخر هذه الرحلة البحرية الطويلة وبعدما فكرت ملياً بموضوع القصدير «الهدف الكبير للفينيقيين» دفعني إحساس معين للذهاب إلى إنكلترا. على الرغم من أن العلماء البريطانيين يقولون جازمين:

- ليس هناك من دليل أثري على مجيء الفينيقيين إلى بريطانيا العظمى - لكن؟...  
هم لا يقولون بهذا الصدد: «نعم... لكن...» بل يقولون: «لا... لكن...»

### ● النصوص:

على الرغم مما يقوله العلماء البريطانيون توجد بالواقع نصوص صريحة بهذا الصدد للكتاب القداماء.

يؤكد سترايون على العلاقات التجارية قاتلاً (في الجزء III ص 176): «كان فينيقيو قادس يتبادلون التجارة مع الـ - ». وتعني عموماً بتسمية **Cassiterides** مجموعة الجزر الجنوية الغربية من إنكلترا وتعبر آخر مجموعة جزر **Scilly**.. التي تسمى بالعامية الفرنسية **Sorlingues**. وأما تسمية **Cassiterides** نفسها فقد اشتقت مباشرة من الكلمة التي تعني «ركاز أو فلزات القصدير»<sup>(\*)</sup>. ومازال المختصون يعلم المعادن في أيامنا هذه يطلقون اسم **Cassiterides** على كتل الفلز الحاوية على القصدير.

أما الشاعر اللاتيبي **أفينوس Avienus** الذي تأثر بالرواية المفقودة عن مسافر من مرسيليا من القرن السادس قبل الميلاد، فقد صرخ في كتاب **Ora maritima** أن الترشيشيين والقرطاجيين كانوا يتاجرون باتجاه الشمال على بعد يساوي البعد عن **Ostreymnides**. ومن المعروف أن الـ **Ostreymnides** تتطيق على الجزر المختلفة في بريطانيا وفي **Finisteret** وتعني هذه الكلمة باليونانية جزر المخار. وقبل العصر

(\*) أي من الكلمة اليونانية **Kassiteross**. في حين كانت في سوريا عموماً تستخدم لفظة «تسليطيريون» بالأرامية وربما بالكتعانية بشكل مشابه - المحقق -

المسيحي كان ديدور الصقلي، الذي عاصر أوغسطس يلم بالموضع بشكل أفضل إذ يقول (٧ ص ٢):

إن سكان هذه النروة من بريطانيا<sup>(١)</sup> التي تسمى - Belerion - جديرون بالتقدير لحسن ضيافتهم، وأيضاً بسبب علاقتهم مع التجار الغرباء ولطريقة حياتهم المتحضرة. إن هؤلاء السكان يستخرجون القصدير بمهارة فائقة من الأرض التي يحرثونها. والأرض تكون صخرية لكنها تحوي في عروتها التراثية على الركاز الذي يستخرج منها مسحوقاً نقياً بعد ذلك تتم تعبيته في قوالب. ثم يأخذون هذه القوالب إلى جزيرة متصلة ببريطانيا تسمى (Iktis)، ذلك لأن المسافة التي تفصلها عن الساحل تجف من الماء في وقت الجزر الأقصى. وهكذا يامكانهم أن يحضروا إلى هذا المكان كميات كبيرة من القصدير محملة على عربات نقل صغيرة....

وبالحقيقة كان يجب التوجه إلى «Cornouailles» والتحقق على أرض الواقع من هذه الأمكنة.

### ● الفينيقيون في مدينة لوندر Londres :

بقي لي إذا أن أجد في مدينة لوندر الشهيرة دعائم قوية بالقرب من P.D.G جديرة بأن تحمل بمحني محمل الحمد وتقودني نحو الأرض الغنية بالقصدير، وأيضاً نحو منجم فغال.

ووجدت هناك استقبالاً في غاية اللطف. ولمست في الواقع أن فكرة السعي وراء القصدير الفينيقي في القرن العشرين لم تبدأ لأحد غريبة ولا مستهجنة، إنها فكرة وحسب. كما قيل لي بأنه في القاعة الكبيرة لـ (Royal Exchange) كانت توجد لوحة هامة بالنسبة للباحث الذي أقام به. وهذه اللوحة التي تعتبر تصوراً رومانسياً كان قد قام برسوها فنان إنكليزي من القرن التاسع عشر. وتمثل بعض الفينيقيين يرتدون أثغر الثياب وهم ينزلون من السفينة مع بضائعهم في وسط الانكليز شبه المتواضعين والذين يرتدون جلود الحيوانات.

وحيث وجد فينيقيون في قلب مدينة لوندر وجدت أيضاً المهارة.

وبعد يومين وجدت نفسي في أقصى شبه جزيرة «Cornouailles» مقابل «جبل

(١) يجب أن نفهم هنا من كلمة Bretagne بريطانيا - أو بعبارة أخرى: - بريطانيا العظمى -

(٢) تتطابق هذه المنطقة مع الحد الأقصى من شبه جزيرة Cornouailles.

القديس ميخائيل Mount Saint - Michel الذي يماثل «St. Michael's Mount» الموجود في فرنسا، لكنه - أقل عظمةً - على حد تعبير صديق بريطاني.

يبدو شبه مؤكداً أن هذه المنطقة التي تصبّح جزيرة عند أقصى المدّ وتعود شبه جزيرة عند أقصى الجزر، هي نفسها جزيرة Iktis التي تحدث عنها ديدور الصقلي (في النص الأنف الذكر). وعلى كل حال فقد بلغنا بذلك جنة الباحثين عن القصدير.

إن كل السكان في الطرف الأقصى لشبه جزيرة Cornouailles لديهم انطباع بأن تحت أقدامهم كنزاً معروفاً منذ أقدم العصور.

في كل مكان تقريباً نجد حفرًا قديمة وأثاراً لسابك أيضاً قديمة وما زالت تتضمن مداخن لا تخصى لمناجم مهجورة.

بالواقع كان يوجد في شبه جزيرة Cornouailles حوالي عام 1850 ميلادي حوالي المائة من المناجم تعج بالعمل والنشاط، وكان يعمل فيها إجمالاً خمسون ألفاً من العمال يديرونها بطريقة نصف آلية بواسطة البخار الذي كان اختراعاً حديثاً حينذاك. وبين عامي 1860 و 1870 أي خلال عقد واحد من الزمن سبب اكتشاف مناجم للقصدير في أميركا الجنوبيّة هزيمة كل هذه المناجم تقريباً.

### ● منجم حديث للقصدير:

من كل تلك المناجم المذكورة آنفًا لم يبق سوى منجم Saint Just الذي يبعد بستة كيلومترات عن Penzance<sup>(1)</sup>. أردت أن أرى وأعرف كل شيء في منجم Geevor هذا الذي مجده تمجيئاته. وقد قيل لي أن تكاليف هذا التجديد التي أضيفت إلى الاستثمارات السابقة قد بلغت 5 ملايين جنيه استرليني. وعلمت أن إنتاج مقدار 60 - 65 طناً من القصدير يتطلب 6000 طناً من الفلزات الخام التي تسحق وتغسل بالتتابع (باستهلاك 70 طناً من الماء في الدقيقة) ثم تسحب وتغربل وتغسل من جديد وتصفى، وأخيراً توضع في أكياس يحوي الواحد منها 45 كيلوغراماً بشكل بودرةسوداء يساوي الكيلوغرام منها 21 شلن. ثم ترسل إلى السباتك الذي يرسلها فيما بعد إلى المصنع.

من هنا يتضح أن أسعار مادة القصدير باهظة.

(1) تقع Penzance في أقصى الجنوب من Cornouailles. وهي في نفس الوقت ميناء صغير ومحطة أخيرة لخط السكك الحديدية البريطانية.

واكراماً لذكرى الفينيقيين أهداي مدير المجم وعاء صغيراً مملوءاً ببودرة القصدير.

في العصر القديم كان القصدير مطلوباً أكثر من الذهب، حيث كان يدخل في صناعة البرونز. وهو يدخلاليوم في تركيب الكثير من السبائك المعدنية الحديثة التي تستخدم في صناعة اللوازم المنزلية ولوازم البناء. هذا وإن ما ساعد على استمرار استخراج وتجارة القصدير في الزمن الحالي هو الأساليب الحديثة التي تختلف كلياً عن الطرق القديمة.

### ● عند منابع القصدير القديمة:

كانت صناعة القصدير مزدهرة في شبه جزيرة (Cornouailles) في الألف الثاني قبل الميلاد. وللحصول عليه كان يتم الكشط على منحدر الشواطئ الصخرية. أما تقنية حفر آبار المناجم فلم تظهر إلا فيما بعد. كانت قطع الفنر تسحق مباشرة على الصخر فوق مساحات تعمقت بمرور الزمن تحت تأثير قوة ضربات المدقات وتتجدد عن ذلك أحواض كثيرة لاحظت أنها متصلة تقريرياً بعضها البعض بواسطة جداول صغيرة.

فوق الهضاب المشرفة على الساحل توجد أنقاض قديمة يطلقون عليها تسمية (Castles). ولكنها بالواقع ليست قلاعاً وإنما مجرد أطلال لمسايك قديمة كان القصدير فيها يصب في قوالب. وعلى مقربة من هذه الأنقاض وجدت بعض السبائك المطمورة، التي يمكن أن يطابق شكلها مع تلك القوالب التي تحدث عنها ديدور الصقلي. كما عثر في تلك الأنجاء على بعض القطع النقدية، واحدة منها نوميدية من القرن الثاني قبل الميلاد، وأخرى قبرصية من القرن الأول قبل الميلاد والكثير منها أصله من بلاد الغال، وعثر كذلك على ثور برونز صغير، ساد الاعتقاد طويلاً بأنه عمل فينيقي، أما في اعتقاده فهو عمل إبيري من عصر متاخر.

عدا عن ذلك تم اكتشاف غريب من نوعه في جثة (مدفن) فوق هضبة صخرية مواجهة لجزر (سيللي Scilly) القرية. إذ عثر في هذا المدفن على بعض أدوات الزينة المصنوعة من الحرف المزخرف الأزرق والأخضر والأسر، وهو الذي عرف من حيث مادته وشكله في مصر خلال عهد الأسرة السابعة عشرة، الأمر الذي يدعو للاعتقاد بوجود علاقات ومبادلات بين (Cornouailles) وبلدان شرق المتوسط منذ زمن مبكر.

## ● جزر سيلي (Scilly):

بعد كل ما قدم تبقى مسألة يجب حلها: لماذا يتحدث الكتاب القدماء عن جزر «Cassiterides» بينما يوجد القصدير في «Cornouailles» وليس في جزر Scilly؟

لقد بحثت عبئاً في هذه الجزر عن حفريات قديمة أو حديثة، ربما يوجد آثار من البودرة أو ذرات القصدير في رمال بعض خلجان هذه الجزر الصغيرة التي يبلغ عددها مائة وأربعين جزيرة، وهي كلها رائعة الجمال لكنها مهجورة ومؤثرة، وأربع منها فقط مأهولة بالسكان.

إذا صحت أن الفينيقيين قد وصلوا فعلاً حتى هذه الأماكن - وهو أمر مرجح - فلا بد أنهم قد استفادوا من هذه الجزر الحالية في تخزين بضائعهم تبعاً للتقليد الفينيقي في التجارة.

إن تسمية «Cassiterides» كانت ولا بد تشمل بلا تمييز مجموعة مناطق المحيط الأطلسي الشمالي حيث، كان يوجد القصدير قبل العصر الروماني. وبالإضافة إلى ذلك فإن جزر «سيلي (Scilly)» والرأس الأقصى لشبه جزيرة «Cornouailles» كانت تعتبر أماكن للتعبد وينظر إليها كأجزاء صغيرة من أرض مباركة حيث يرجح أن السكان فيها كانوا متقدمين كثيراً على برازير القارة.

ويتحدث Pomponius Mela<sup>(\*)</sup> عن جزيرة منها كانت توجد فيها تسعة عذراوات متميزات بسلطة سحرية على الرياح والبحار.

أما Demetrios<sup>(\*\*)</sup> من جهة فلم يكن يرى في جزر Scilly سوى بعض السكان القلائل الذين كانوا يشتهرون بقداسة كبيرة.

وأما بالنسبة للمكتنفين في إيرلندا القديمة فكانت جزر Scilly تعتبر بمثابة المكان الذي يوجد فيه الأبطال والخلود وكل أنواع الملاذات. إن هذه القصص التي يرويها الرحالة والمورخون وتلك الأساطير لتعرض الخيال أكثر إذا ما تذكرناها لدى تجولنا في بقع الأرض الموحشة التي تشرف على المجرف الصخري لجزر Scilly. هناك توجد في كل مكان ذكرى لماضي غامض تتمثل في جثوات لأشخاص، وهي شكل من أشكال

(\*) جغرافي روماني أصله من إسبانيا، عاش في القرن الأول الميلادي، وضع كتاباً في وصف البلدان معظمها عن المناطق الساحلية.

(\*\*): من القرن الرابع قبل الميلاد. كان رجل دولة في أثينا وخطيباً وفلاسفاً - المحقق -

القبب التراوية محمولة بواسطة بلاطات حجرية منظمة بشكل تاج. والمرجح أن هذه الجزر كانت بمثابة الأماكن المرتفعة للعبادات القديمة، أي بمثابة «باتسيون» حيث كانوا يدفون أصحاب المراتب الدينية العليا والشخصيات الملكية.

وهذه الحجرات الجنائزية ترتبط بالنموذج الذي ظهر في إيرلندا أكثر مما ترتبط بعراز الآثار المغليبية البريطانية. أما تاريخها فيقدر بحوالي 2000 قبل الميلاد.

ومن الواضح أن هذه الجزر كان مصيرها الانحطاط في فترة ما بعد العصر المغليبي، كما هو الحال في بريطانيا. وهذا يكفي لتفسير عدم وجود آثار تذكر، إذ أنه لم يبق بالفعل سوى جهوات المدافن وبقايا أخرى بسيطة من أماكن العبادة في الواقع المرتفع، وهذا ما يفسر التفوق الظاهر للموتى على الأحياء في تلك المعتقدات.

تستع جزر «سيللي Scilly» بنوع من الرهبة المسيطرة والجمال المفرد يحملان على التأمل الصوفي. وقد أكسب ذلك هذه الأماكن على مر القرون شهرة دينية.

في جزيرة «Sainte - Marie» المشرفة على البحر الهائج توجد مجموعة من الأنماض الضخمة تدعى «قصر العملاقة» منها يلقى الغموض، تضفي على المحيط شيئاً من الرهبة والأسى، وليس بعيداً عن هذه الأنماض توجد أسطحة دائرة كانت تدعى باللغة الكلية القديمة «Sullehi» بمعنى: - الصخور العالية المكرسة للشمس - وهذه التسمية هي التي تم تحريفها في الإنكليزية إلى لفظة «Scilly» الحالية.

أما هذه الأسطحة الدائرية (أو الشمسية) التي يرجح أنها كانت محاطة بأبحجار كبيرة متنصبة، فهي تتفق بعض الغرابة مع الوصف الذي جاء عند ديودور الصقلي في حديثه عن جزيرة تقع شماليًّا في المناطق التي كان يسكنها الكلبيون، بالعبارات التالية:

«... كانت مكرسة لإله كان يتحدث غالباً إلى أتباعه. وكان يوجد سطح دائري كبير ومعبد بشكل دائري حيث كان الكهنة ينشدون مدائح الإله....».

إن ماضي كهذا، كثرت فيه الإعتقادات الخرافية والمقابر الكبيرة المحاطة بالأسرار والغموض والحكايات الخرافية الدينية، يفسر لماذا يقي سكان جزر «سيللي Scilly» بشكل خاص متغلبين وصوفيين وخرافيين بشكل مخيف.

كل أشكال الأساطير والطقوس الغريبة تحيط بالأزهار ذات اللون الأصفر وأزهار الريح وأزهار النرجس، التي تصنع منها حتى اليوم أدوية ذات خواص ناجحة، ولكن تكون لهذه الأدوية الفعالية الكاملة لا بد أن تقطف هذه الأزهار عندما يكون القمر بدرًا فقط. فإن أرادوا مثلاً استخلاص مادة ضد السعال فيجب هشم ساق الأزهار بيرتها

نحو الأعلى، أما إذا أرادوا الحصول على مادة لعلاج الجروح وجب عندها برم ساق الأزهار نحو الأسفل. هناك أيضاً مشروبات للحب، وهي نوع من نبيذ العسل يحضر في المزارع، وهو معروف أيضاً بين المشروبات الروحية التي تحضر صناعياً. وربما تفسر لنا شهادة هذا المشروب لماذا غدت جزر «سيللي» الناحية المفضلة للكثير من رحلات الأعراس - الشرعية أو غيرها - حيث تكثر الخلجان الموحشة والأيكات الجذابة وبيوت الصيادين القديمة التي تحولت إلى فنادق صغيرة.

هذا الفردوس الصغير الذي نصل إليه من «Penzance» خلال عشرين دقيقة بطائرة الهيليكوبتر كان المكان المفضل لرئيس الوزراء (ويلسون) حيث كان يسكن في منزل ريفي متواضع.

بعد كل ما سبق، هل نستطيع في نهاية المطاف أن ثبت أن الفينيقين قد وصلوا إلى جزر «Cassiterides» - Scilly - لاستئمار القصدير؟... في اعتقادي أن الفينيقين في جميع الأحوال لم يستمروا بأنفسهم المناجم وأنهم في أغلب الأحيان لم يكونوا يشترون الركاز مباشرة من هناك. بل الأرجح أن هذه المادة كانت تنقل من بريطانيا عن طريق التجارة الساحلية، ولا بد أن البحارة الفينيقيين والإبيريين كانوا يؤمنون قسماً كبيراً من هذه التجارة التي كانت تصل حتى قادس بعد أن يرفع الوسطاء التجاريون الغاليون السعر النهائي للمادة الأولية بفرض رسوم عبور جديدة. إذاً مثلما تفعل اليوم الشركات التجارية الكبيرة لتجنب تهافت الوسطاء التجاريين ولموازنة الأسعار، يفترض أن الفينيقين قد قاموا، انطلاقاً من قادس، بما سأسميه عمليات «دورات قصيرة» ومن وقت إلى آخر حملة مباشرة لتخفيف الأسعار.



## الفصل التاسع عشر

### بريطانيا

### القصصيون والفينيقيون

من غير المؤكد حتى الآن إن كان الفينيقيون خلال سعيهم وراء القصصيون باتجاه الشمال قد أسسوا محطة لهم في بريطانيا.

ففي الواقع أنه ليس هناك أي اكتشاف أثري حتى الآن يساعد على إثبات الحضور الفينيقي، بالرغم من رواية قديمة جداً بهذا الصدد كان يؤكد صحتها G. de Vaudoncourt في القرن التاسع عشر. (ويبدو أن الباحثين في القرن العشرين صاروا أكثر تحفظاً).

وعلى كل حال نستطيع القول أنه إن كانت هناك منطقة يمكن أن يكون قد نزل فيها الفينيقيون فهي بالأحرى مضيق Morbihan (الناحية المسماة حالياً Vannetais).

من المعروف أن بعض اللغويين من القرن التاسع عشر حاولوا أن يثبتوا أن الفينيقيين كانوا في الواقع جالية من بلاد الغال، وهي جزء من Vannes في عصر كانت فيه مدينة Tours عاصمة، وحيث كان الـ Venetes أحد الاتحادات القبلية الأكثر نشاطاً في بلاد الغال.

ويرى مؤلِّفُو اللغويون أنَّ الكلمة PH هي نفس الكلمة - V (E) - C (E) - N (E) - T (E) كما تلفظ باللهجة الإغريقية أو بالسامية والتي نجدُها في الكلمة Venetian. وهذا يقود إلى الاستنتاج بأنَّ Venetes - Phenician - Venetian هي ألفاظ متشابهة ومترابطة. في هذه الفرضية استبعاد لكل ما هو مخالف للصواب: كاتجاه الفينيقيين Vannetais نحو الشرق لتأسيس صور (التي قد تكون تعرِّيفاً لكلمة Tours) والإبقاء على القراءات اللغوية الفقهية.

على كل حال لا بد من ذكر بعض الأعمال في منطقة وجود الـ Venetes القدماء حول مضيق Morbihan.

## ● أماكن «الحج»:

أول ما يجدر ذكره هو الآثار المغليبية التي من أغرتها في العالم تلك الغرفة الجنائزية في الجزيرة الصغيرة. وهي عبارة عن جشوة مبلطة بحجارة نقشت عليها رسوم غامضة كدواير متعددة المراكز (لأنعرف إن كانت ترمذ إلى شموس) ومنحيات (لأنعرف إن كانت تعبر عن أفاع أو أنهار) بالإضافة إلى أشكال سوابيل وصفوف الكرنك الهائلة التي تظهر من خلال الضباب في صباحات الشتاء في السهول البريطانية.

هذا الخليط من الرموز الأثرية إن دل على شيء فهو يدل على أنه كان يوجد في الألف الثالث والألف الثاني مكان مرتفع للعبادة في هذا الموقع، إنه بثابة متحجة حقيقة.

هذا الحج كان أيضاً ذا شهرة واسعة في مصر الفينيقية. ولكن يجب أن نشير هنا إلى أن نصب الحجارة المغليبية الكبيرة يفترض أنه يعود إلى حوالي 2700 قبل الميلاد، وأن الفينيقيين لم يتوجلوا في المحيط الأطلسي إلا بعد خمسة عشر قرناً أو أكثر من هذا التاريخ.

من الممكن الاعتقاد أن أماكن الحج هذه، التي تعود إلى العصر الحجري، قد بقيت مقصودة حتى ما بعد العصر الذي شهد ازدهارها.

إن الأمثلة على أماكن العبادة المرتفعة التي احتفت بأكمالها قليلة، فإن ما يحدث بالواقع هو تعاقب الاعتقادات والعبادات وتغير الكثير منها، لكن الأماكن تبقى لها صفة القدسية.

فالعبادات التي كان يمارسها الناس الذين أنشأوا الـ «منهير» (Menhir) - ذلك النصب الحجري العمودي العالي - رغم أنها ضعفت وترجعت فقد بقيت معروفة حتى العهد الروماني، ولم يحدث حينذاك أي تدمير لأماكن العبادة، وكل ما هنالك أنه أدخل عليها الطابع الروماني، ومن الأمثلة على ذلك بعض التقوش الرومانية على الأحجار القائمة في بريطانيا.

ولدى ظهور الديانة المسيحية نلاحظ أنه بدلاً من محاربة المعتقدات القديمة المتعلقة بـ «حجارة منهير» قد أبقيت على بعضها كاتخاذ بعض أحجار منهير العمودية في بعض الأماكن وتحويلها إلى أجران للماء المقدس، مثل مناطق «Bigoudens».

ومن جهة أخرى فإن التقليد القديم لمواسم الحج التي كانت تقام في «Carnac» أو في «Kermado» قد يبقى، إذ أنه بالقرب من هذه الأماكن في Sainte Anne «Auray» تجتمع جماهير غفيرة في كل سنة فيما يدعى «مكان المغفرة». وإن استمرار هذه الظاهرة في المكان نفسه يجعلنا نستنتج أن حشوداً كبيرة من المؤمنين كانت تجتمع على ضفاف خليج Morbihan في العصر الذي يمكن أن يكون فيه الفينيقيون قد بحثوا فيه إلى هذه المنطقة.

والواقع أنه ليس من الخطأ أن نعتقد أن البحارة الفينيقيون سر استكشافاتهم البحرية في العصر القديم ما بين القرنين الثاني عشر والخامس قبل الميلاد قد جاؤوا إلى هذه الأنسنة من أجل تحذيب فقرة كان فيها الجو سيئاً وللإفاده من مستوى الماء الحسيجي جداً، حيث كان بمقدورهم إصلاح السفن وإنجاز صفحات تجارية مع العديد من السياح. وهكذا كانت أماكن الحج تجذب التجار والبحارة.

### ● بخارية بواسل:

تصف الـ «فينيقيون Venetes» بمهارة كبيرة في الإبحار بالسفن الشراعية ويعطى لهم المسالمة والمطمئنة أيضاً بشجاعة كبيرة في مقاومة الغواة. وهذه كلها صفات مشتركة مع الفينيقيين.

وقد أفصحت قيصر عن هذا الرأي في كتابه الثالث، المذكرات التاريخية عن الحرب العالمية بما معناه:

«إن هذا الشعب - الفينيقيين - هو أقوى شعب في كل هذا الساحل. فهو يملك أكبر عدد من السفن التي كان يستغلها للت التجارة مع بريطانيا. وهو يتفوق على باقي الشعوب بعلمه وتجربته في الإبحار. كما يحمل الموانئ القليلة الموجودة على هذا البحر الهائج الخيف. ويحصل على الجزية من كل الذين يبحرون في هذه المياه...»

ثم يضيف بهذا الصدد:

«... كان عندهم دائماً أهل كبير، لاسينا وأن طبيعة البلد كانت تلهيهم الكثير من الثقة. وكانتا يعرفون أن الطرق البرية قد تفاجأت مــ البحر بواسطة الخلجان. إن كل مدن هذا الساحل تقريباً كانت تقع في أطراف ألسنة الأرضي الساحلية (الرؤوس) وفوق بروزات صخرية ولم يكن لها منفذ لا

للمشاة عندما يكون البحر عالياً (الأمر الذي يحدث مرتين كل أربع وعشرين ساعة) ولا حتى للسفن في حالة الجزر لأنها تصطدم بالقاع. عندما كان الفينيسيون يحسون بالخطر والقنوط كانوا يجمعون كل مالديهم من سفن وينقلون إليها كل ثرواتهم ثم ينسحبون إلى الأماكن المجاورة...»

هذا تماماً يكمن فن المقاومة الذي كان يمارس في صور وفي صيادون. بعد ذلك جاء عند قيصر وصف دقيق للغاية عن السفن الفينيسية القوية التي تتشابه حتى ليتبين الأمر مع سفن «Sinagos» التي ما زال يمكننا رؤيتها في مضيق «Morbihan».

فهي ذلك يقول قيصر ما معناه:

«... لقد شنت سفن الأعداء - الفينيسين - أنفسهم بالطريقة التالية: غاطسها مسطح أكثر بكثير من غاطس سفناً بحيث لم يكونوا يخشون أماكن المياه الضحلة وحالات الجزر. وكانت جأجها مرتفعة جداً وكواثلها أيضاً بشكل ملائم لقوة الأمواج والعواصف. كانت السفن بأكملها قد صنعت من خشب البلوط لكي تحتمل أية صدمة أو أعباء. وتبلغ ثخانة العوارض قدمًا واحدة وهي معلقة بواسطة أوتاد حديدية بحجم الإبهام.

أما المراسي فهي مشيدة بواسطة سلاسل حديدية بدلاً من الخبال ولها جلود بدلاً من الأشرعة وقطع جلدية رفيعة وظرفية إذ كان ينقصها الكتان أو أنهم لم يعرفوا استخدامه، وإن يكن من المحتشم جداً أنهم اعتقدوا بأنه ليس من السهل قيادة سفن ثقيلة كهذه بواسطة أشراعنا عبر زوابع البحر ورياحه العاصفة. وعندما كان أسطولنا يواجه سفناً كهذه كانت ميزتها الوحيدة إمكانية تجاوزها بسرعة ومرنة وكل ما سوى ذلك كان لصالح سفن الأعداء التي تعتبر موافقة ومهيأة بشكل أفضل لطبيعة هذا البحر وقوة عواصفه. والواقع أن سفناً بقواعدها لم يكن لها أي تأثير عليها إذ كانت من المثانة وارتفاع الهيكل بحيث لا تتمكن منها سهام الرماة وفي الوقت نفسه كان من المعنصر اصطدامها. أضعف إلى ذلك أنه إذا هبت عاصفة كانت تلك السفن تستسلم لها إذ كانت قوة احتمالها كبيرة. وكان يمكنها أن ترسو بسلام في المياه الضحلة. وحتى في أوقات الجزر لم تكن تخشى الصخور أو غيرها. في الوقت الذي تكون فيه الأخطار الحقيقة بسفناً مرعبة...».

لقد أتي بوليوس قيصر بنفسه كي يربح بالصدفة، وبعد معارك طويلة، معركة

«Morbihan» البحرية التي وضعت عملياً نهاية للحروب الغالية. كانت الرياح تهب فجأة، والهدوء يخيم، وكان الأسطول الفينيسي (البنديقي) ساكناً وقوياً يشرف بحضوره على صدور السفن الرومانية.

إن الوصف الذي دونه يوليوس قيصر للسفن البنديقية (الفينيسية) يطابق مع وصف السفن الفينيقية المعروف من مصادر أخرى.  
بامكاننا إذاً أن نتخيل وجود «ترابط»...

### ● القصدير:

إن أكثر مادة أولية كانت تهم الفينيقيين ويشغلهم البحث عنها هي القصدير. لقد ثبت وجود خامات القصدير بالقرب من «Vannes». ولكن من المرجح أن مناجمه اليوم لم تعد سهلة الاستثمار كما كانت سابقاً وذلك بسبب تراجع مستوى السواحل.

يوجد القصدير في باطن الأرض في أماكن مختلفة وخاصة في «Penestin» حيث تسرب خاماته مع المواد المختلطة معها من جوف الأرض هناك إلى قاع البحر عبر مصب «Vilaine». وعلى مقربة من ذلك المكان وبين رمال الشاطئ الذهبي لائزال توجد جزيئات من القصدير أنت بها الأمواج.

وفي سجلات مصلحة المناجم في تلك الولاية تجد عدداً من التصاريح القانونية للبحث عن القصدير في هذه المنطقة. ولكن من غير المؤكد وجود كميات وافرة بالفعل في «Penestin». وقد يكون هناك احتياطي من الخامات في جهات أخرى مجاورة. إذ كان يوجد منجم هام في «Creuse» عدا عن منجم استمر منذ أربعة قديمة وحتى سنة 1914.

كما شاهد حفراً واسعة ردمت جزئياً وقتوات عميقة بقيت على حالها حتى اليوم رغم عوامل الزمن ونمو النباتات. وقد أجريت تحريات أثرية هامة في هذه الأماكن استطعنا من خلالها تكوين فكرة عن المراحل التي كان يمر بها إنتاج القصدير.

- 1 - يتم غسل الخامات (الرکاز) عند الشاطئ باستخدام أحواض لحفظ.
- 2 - يتم سحق الخامات بواسطة الهارن والمدقفات.

من الجدير باللاحظة أنه حتى عام 1859 كان يوجد أحد قبور ما قبل التاريخ

(المسمي دلن) فوق أكمة مشرفة على المنجم بأكمله، لكن هذا النصب أخضى بحور الزمن.

إن نقل خامات القصدير إلى فينيسيا (البندقية) لم يكن يثير أية مشكلة حيث أن طرق المواصلات البرية كانت سهلة وعريضة.

لما أصبح معروفاً حتى الآن أن مضيق Morbihan لم يكن في العصر القديم منبعاً هاماً للقصدير ولكنه كان على الأقل مكاناً للتخزين. هناك شيء آخر يعتبره بعض علماء الآثار دليلاً على الصلة العميقة بين «فينيسيا» وتجارة القصدير، ألا وهو:

### ● حجارة الـ «Callais»

هناك معات عديدة من قطع الحلي المصنوعة من هذه الحجارة وجدت بالقرب من سواحل خليج Morbihan وخاصة في القبور المغليبية. ولقد فتشت عن تعریف دقيق ومناسب لهذه الحجارة الشمية التي تفید في صناعة العقود والأقراط فوجدت أن أجمل وصف هو الذي دونه عالم الطبيعتاً «بلينيوس... Plinius...» كما يلي:

«... إن حجارة الـ «Callais» ذات لون أخضر شاحب وسماكه ملحوظة لكنها مليئة بالثقوب والأوساخ... تتحت هذه الحجارة لإعطائهما الشكل المناسب. وهي سهلة الكسر.. وأجملها لوناً هي تلك التي تكون بلون الزمرد. وبقدر ما تكون جميلة يكون قدرانها للونها سهلاً بملامسة الزيت أو العطور السائلة والحمور.. وبالعكس فإن تلك الأقل جمالاً تحافظ على لونها بصورة أفضل...»

أما عالم الآثار الكبير Louis Siret فيعتقد أن حلي حجارة الـ «Callais» التي نجدها في أوروبا الغربية وتلك التي توجد في بريطانيا وبأعداد لا تُحصى، وأحجار أخرى وجدت في الآثار المغليبية في إسبانيا، لا يمكن أن تكون قد جاءت من الشرق، وهي مرتبطة باستعمار القصدير، إذ أن هذه الحجارة كانت توجد على الأرجح كمادة خام في طبقات الأرض الحاوية على القصدير.

ويعتقد آثاريون آخرون أن منبع حجارة الـ «Callais» كان منطقة Morbihan نفسها، وأن الطبقات التي تحويها لم يتم التعرف عليها بعد. ومع ذلك فإن وجود هذه الحجارة في موريهان وفي إسبانيا إنما يثبت مرة أخرى أنه كانت هناك مبادرات عبر

الطريق البحري حتى قبل الفينيقيين بين هاتين المنطقتين الأطلسيتين. من الصعب أن تصور أن هؤلاء الرواد لم يستفيدوا لدى إقامتهم في قادس من الطرق البحرية المفتوحة والمعروفة منذ عهد بعيد.

هناك إذاً مجموعة من الإفتراضات ربما يكون بعضها مطابقاً تماماً لفكرة وجود علاقات (أو قرابة) بين الفينيقيين والفينيسين (البنادقة). ولكن يانتظار أن تجد الأجيال الجديدة من الباحثين الدلائل الملموسة على التواجد الفينيقي في بريطانيا فإني أرى من الحكمة أن أتبني أفكار العالم الكبير *Louis Siret* الذي كتب:

«يمكنا التسليم بأن الفينيقيين قد استمروا الساحل الغربي لأوروبا بمساعدة السفن والبحارة الإيبيريين...»

وبذلك نصل إلى مبدأ المساعدات البحرية وملاحة المساحلات الإيبيرية الفينيسية التي أمنت بشكل كلي أو جزئي نقل القصدoir حتى قادس، ذلك المركز الكبير لشدة البيضاء الفينيقية.

قد يكون إذاً خليج *Morbihan* مكاناً آخر للتجمّع، حيث يفترض أنه عدا عن القصدoir المحلي كان يتجمع القصدoir الوارد من *Montebras* ومن مناجم *Cornouailles* البريطانية المشهورة منذ زمن قديم جداً.

لقد كان التواجد المباشر أو الذي تم بواسطة وكلاء كلفهم القادمون من الشرق في البدء حلماً شرقياً ظل يراود نفوس الفينيسيين زمناً طويلاً حتى بعد حملة يوليوس قيصر. وفي الواقع يروي التاريخ أنه عندما اجتاحت *Attila* بلاد الغال في عام 452 هاجر عدد كبير من الفينيسيين من موطنهم، وربما كانت هناك بعض العوامل التي أثرت في اتجاه هجرتهم، فقادتهم مسيرتهم الطويلة نحو الشرق والجنوب الغربي من أوروبا إلى أن جاء اليوم الذي خاصتهم فيه اللومبارديون في سهل *Po*، فلم يجدوا حينذاك خياراً آخر سوى اللجوء إلى جزر البحيرة الشاطئية التي تقع في أقصى البحر الأدريatic.

### ● وماذا عن السفينة «فينيسيا»؟..

لقد بذل الفينيسيون جهوداً كبيرة حتى صنعوا «سفينة ذات مرسة حملت اسمهم *Venise*» زمناً طويلاً جداً.

في أقل من قرنين بني أحفاد الفينيسيين «صيادون» جديدة أو «صور» جديدة - البندقية - ونجحوا في التخلص من الإمبراطورية البيزنطية وتشكيل حكومة مستقلة. وقد اتخد الرؤساء المنتخبون منهم لقب «القاضي الأول» - doge - .. ومن الجدير بالذكر أن القضاة اتخذوا كريمة للرأس تدل على العظمة تلك القلنسوة المشتبه إلى الأمام والشبيهة بالقلنسوة الفينيقية. فهل كان هذا التشبيه ياترى بمحض الصدفة؟... .

## الفصل العشرون الفينيقيون وإنكلترا

في آخر هذه الرحلة البحرية الطويلة وبعدما فكرت ملياً بموضوع القصدير «الهدف الكبير للفينيقيين» دفعني إحساس معين للذهاب إلى إنكلترا. على الرغم من أن العلماء البريطانيين يقولون جازمين:

- ليس هناك من دليل أثري على مجيء الفينيقيين إلى بريطانيا العظمى - لكن؟...  
هم لا يقولون بهذا الصدد: «نعم... لكن...» بل يقولون: «لا... لكن...»

### ● التصوص:

على الرغم مما يقوله العلماء البريطانيون ترجمد بالواقع تصوص صريحة بهذا الصدد للكتاب القداماء.

يؤكّد سترايون على العلاقات التجارية قاتلاً (في الجزء III ص 176):  
«كان فينيقيو قدس يتبادلون التجارة مع الـ -». وتعني عموماً  
بتسمية **Cassiterides** مجموعة الجزر الجنوبيّة الغربيّة من إنكلترا ويعتبر آخر  
مجموعة جزر «سيللي... Scilly» التي تسمى بالعامية الفرنسية **Sorlingues**.

وأما تسمية **Cassiterides** نفسها فقد اشتقت مباشرة من الكلمة التي تعني  
«ركاز أو فُلرات القصدير»<sup>(٥)</sup>. ومازال المختصون بعلم المعادن في أيامنا هذه يطلقون  
اسم Cassiterides على كتل الفلز الحاوية على القصدير.

أما الشاعر اللاتيكي **أفيينوس Avienus** الذي تأثر بالرواية المفقودة عن مسافر من  
مرسيليا من القرن السادس قبل الميلاد، فقد صرّح في كتاب **Ora maritima** أن  
الترشيشيين والقرطاجيين كانوا يتاجرون باتجاه الشمال على بعد يساوي البعد عن  
**Ostreymnides**. ومن المعروف أن الـ **Ostreymnides** تتطبق على الجزر المختلفة  
في بريطانيا وفي **Finistere** وتعني هذه الكلمة باليونانية جزر المخار. وقبيل العصر

(٥) أي من اللقطة اليونانية **Kassiteros**. في حين كانت في سوريا عموماً تستخدم لقطة  
«قسطنططيريون» بالأرامية وربما بالكتعانية بشكل مشابه - المحقق.

المسيحي كان ديدور الصقلي، الذي عاصر أوغسطس يلم بالموضوع بشكل أفضل إذ يقول (V ص 2):

«إن سكان هذه الذروة من بريطانيا<sup>(1)</sup> التي تسمى - Belerion - جديرون بالتقدير لحسن ضيافهم، وأيضاً بسبب علاقتهم مع التجار الغرباء ولطريقة حياتهم المتحضرة. إن هؤلاء السكان يستخرجون القصدير بمهارة فائقة من الأرض التي يحرثونها، والأرض تكون صخرية لكنها تحوي في عروتها التراوية على الركاز الذي يستخرج منها مسحوقاً نقياً بعد ذلك تم تعبئته في قوالب. ثم يأخذون هذه القوالب إلى جزيرة متصلة ببريطانيا تسمى Iktis، ذلك لأن المسافة التي تفصلها عن الساحل تجف من الماء في وقت المطر الأقصى. وهكذا بإمكانهم أن يحضروا إلى هذا المكان كميات كبيرة من القصدير محملة على عربات نقل صغيرة...».

وبالحقيقة كان يجب التوجه إلى «Cornouailles» والتحقق على أرض الواقع من هذه الأمكنة.

### ● الفينيقيون في مدينة «لondon»:

يقي لي إذاً أن أجد في مدينة لوندر الشهيرة دعائم قوية بالقرب من P.D.G جديرة بأن تحمل بحثي محمل الحم وقودني نحو الأرض الغنية بالقصدير، وأيضاً نحو منجم فقال.

ووجدت هناك استقبلاً في غاية اللطف. ولمست في الواقع أن فكرة السعي وراء القصدير الفينيقي في القرن العشرين لم تبدأ لأحد غرية ولا مستهجن، إنها فكرة وحسب. كما قيل لي بأنه في القاعة الكبيرة لـ «Royal Exchange» كانت توجد لوحة هامة بالنسبة للبحث الذي أقوم به. وهذه اللوحة التي تعتبر تصوراً رومانسياً كان قد قام برسمها فنان إنجليزي من القرن التاسع عشر. وتتمثل بعض الفينيقيين يرتدون أفسر الثياب وهم ينزلون من السفينة مع بضائعهم في وسط الانكليز شبه المترagini والذين يرتدون جلود الحيوانات.

وحيث وجد فينيقيون في قلب مدينة لوندر وجدت أيضاً المهارة.

وبعد يومين وجدت نفسى في أقصى شبه جزيرة «Cornouailles» مقابل «جبيل

(1) يحب أن نفهم هنا من كلمة Bretagne بريطانيا - أو بعبارة أخرى: - بريطانيا العظمى -

(2) تتطابق هذه المنطقة مع المد الأقصى من شبه جزيرة «Cornouailles».

القديس ميخائيل (Mont Saint - Michel) الذي يائل (St. Michael's Mount) موجود في فرنسا، لكنه - أقل عظمةً - على حد تعبير صديق بريطاني.

يبدو شبه مؤكد أن هذه المنقطة التي تصبح جزيرة عند أقصى المد وتعود شبه جزيرة عند أقصى الجزر، هي نفسها جزيرة (Iktis) التي تحدث عنها ديدور الصقلي (في النص الأنف الذكر). وعلى كل حال فقد بلغنا بذلك جنة الباحثين عن القصدير.

إن كل السكان في الطرف الأقصى لشبه جزيرة (Cornouailles) لديهم انطباع بأن تحت أقدامهم كنزاً معروفاً منذ أقدم العصور.

في كل مكان تقريباً نجد حفراً قديمة وأثاراً لسايكل أيضاً قديمة وما زالت تتتصب مداخن لا تخصى لمناجم مهجورة.

بالواقع كان يوجد في شبه جزيرة (Cornouailles) حوالي عام 1850 ميلادي حوالي المائة من المناجم تقع بالعمل والنشاط، وكان يعمل فيها إجمالاً خمسون ألفاً من العمال يديرونها بطريقة نصف آلية بواسطة البخار الذي كان اختراعاً حديثاً حينذاك. وبين عامي 1860 و 1870 أي خلال عقد واحد من الزمن سبب اكتشاف مناجم للقصدير في أميركا الجنوبيّة هزيمة كل هذه المناجم تقريباً.

### ● منجم حديث للقصدير:

من كل تلك المناجم المذكورة آنفًا لم يبق سوى منجم (Geevor) في (Saint Just) الذي يبعد بضعة كيلومترات عن (Penzance)<sup>(1)</sup>. أردت أن أرى وأعرف كل شيء في منجم (Geevor) هذا الذي تجددت تجهيزاته. وقد قيل لي أن تكاليف هذا التجديد التي أضيفت إلى الاستثمارات السابقة قد بلغت 5 ملايين جنيه استرليني. وعلمت أن إنتاج مقدار 60 - 65 طناً من القصدير يتطلب 6000 طناً من الفلاتات الخام التي تسحق وتغسل بالتتابع (باستهلاك 70 طناً من الماء في الدقيقة) ثم تسحب وتغرييل وتغسل من جديد وتصفى، وأخيراً توضع في أكياس يحوي الواحد منها 45 كيلوغراماً بشكل بودرة سوداء يساوي الكيلوغرام منها 21 شلن. ثم ترسل إلى السبايك الذي يرسلها فيما بعد إلى المصنع.

من هنا يتضح أن أسعار مادة القصدير باهظة.

(1) تقع (Penzance) في أقصى الجنوب من (Cornouailles). وهي في نفس الوقت ميناء صغير ومحطة أخيرة لخط السكك الحديدية البريطانية.

ولكرااماً لذكرى الفينيقيين أهداني مدير النجم وعاء صغيراً ملوءاً ببودرة القصدير.

في العصر القديم كان القصدير مطلوباً أكثر من الذهب، حيث كان يدخل في صناعة البرونز. وهو يدخلاليوم في تركيب الكثير من السبائك المعدنية الحديثة التي تستخدم في صناعة اللوازم المنزلية ولوازم البناء. هذا وإن ما ساعد على استمرار استخراج وتجارة القصدير في الزمن الحالي هو الأساليب الحديثة التي تختلف كلباً عن الطرق القديمة.

### ● عند منابع القصدير القديمة:

كانت صناعة القصدير مزدهرة في شبه جزيرة «Cornouailles» في الألف الثاني قبل الميلاد. وللحصول عليه كان يتم الكشط على منحدر الشواطئ الصخرية. أما تقنية حفر آبار المناجم فلم تظهر إلا فيما بعد. كانت قطع الفرز تسحق مباشرة على الصخر فوق مساحات تعمقت بمدحور الزمن تحت تأثير قوة ضربات المدقات ونتجت عن ذلك أحواض كثيرة لاحظت أنها متصلة تقربياً بعضها البعض بواسطة جداول صغيرة.

فوق الهضاب المشرفة على الساحل توجد أنقاض قديمة يطلقون عليها تسمية «Castles». ولكنها بالواقع ليست قلاعاً وإنما مجرد أطلال لسابق قديمة كان القصدير فيها يصب في قوالب. وعلى مقرية من هذه الأنقاض وجدت بعض السبائك المطمورة، التي يمكن أن يتطابق شكلها مع تلك القوالب التي تحدث عنها ديودور الصقلي. كما عثر في تلك الأنجاء على بعض القطع النقدية، واحدة منها نوميدية من القرن الثاني قبل الميلاد، وأخرى قبرصية من القرن الأول قبل الميلاد والكثير منها أصله من بلاد الغال، وعثر كذلك على ثور برونزى صغير، ساد الاعتقاد طويلاً بأنه عمل فينيقي، أما في اعتقادى فهو عمل إيسيري من عصر متاخر.

عدا عن ذلك تم اكتشاف غريب من نوعه في جثة (مدفن) فوق هضبة صخرية مواجهة لجزر «سيللي Scilly» القرية. إذ عثر في هذا المدفن على بعض أدوات الرينة المصنوعة من الخزف المزخرف الأزرق والأخضر والأسمر، وهو الذي عرف من حيث مادته وشكله في مصر خلال عهد الأسرة السابعة عشرة، الأمر الذي يدعو للاعتقاد بوجود علاقات ومبادلات بين «Cornouailles» وبلدان شرقى المتوسط منذ زمن مبكر.

## ● جزر سيلي «Scilly»:

بعد كل ما تقدم تبقى مسألة يجب حلها: لماذا يتحدث الكتاب القدماء عن جزر «Cassiterides» بينما يوجد القصدير في «Cornouailles» وليس في جزر «Scilly»؟

لقد بحثت عيناً في هذه الجزر عن حفريات قديمة أو حديثة. ربما يوجد آثار من البودرة أو ذرات القصدير في رمال بعض خلجان هذه الجزر الصغيرة التي يبلغ عددها مائة وأربعين جزيرة. وهي كلها رائعة الجمال لكنها مهجورة ومؤثرة، وأربع منها فقط مأهولة بالسكان.

إذا صنع أن الفينيقيين قد وصلوا فعلاً حتى هذه الأماكن - وهو أمر مرجح - فلا بد أنهم قد استفادوا من هذه الجزر الحالية في تخزين بضائعهم تبعاً للتقليد الفينيقي في التجارة.

إن تسمية «Cassiterides» كانت ولا بد تشمل بلا تمييز مجموعة مناطق المحيط الأطلسي الشمالي حيث كان يوجد القصدير قبل العصر الروماني. وبالإضافة إلى ذلك فإن جزر «سيلي Scilly» والرأس الأقصى لشبه جزيرة «Cornouailles» كانت تعتبر أماكن للتبعد وتنظر إليها كأجزاء صغيرة من أرض مهاركة حيث يرجح أن السكان فيها كانوا متقدمين كثيراً على برايرة القارة.

ويتحدث «Pomponius Mela»<sup>(\*)</sup> عن جزيرة منها كانت توجد فيها تسعة علراوات متميزات بسلطنة سحرية على الرياح والبحار.

أما «Demetrios»<sup>(\*\*)</sup> من جهة فلم يكن يرى في جزر «Scilly» سوى بعض السكان القلائل الذين كانوا يشتهرون بقداسة كبيرة.

وأما بالنسبة للكلتتين في إيرلندا القديمة فكانت جزر Scilly تعتبر بمثابة المكان الذي وُجد فيه الأبطال والخلود وكل أنواع الملذات. إن هذه القصص التي يرويها الرحالة والمؤرخون وتلك الأساطير لتحرض الخيال أكثر إذا ما تذكرناها لدى تحولنا في بقع الأرض الموحشة التي تشرف على المجرى الصخري لجزر «Scilly». هناك توجد في كل مكان ذكرى لماضٍ غامضٍ تمثل في جثوات لاتصفي، وهي شكل من أشكال

(\*) جغرافي روماني أصله من إسبانيا، عاش في القرن الأول الميلادي، وضع كتاباً في وصف البلدان معظمها عن المناطق الساحلية.

(\*\*) من القرن الرابع قبل الميلاد. كان رجل دولة في أثينا وخطيباً وفيلسوفاً - المحقق -

القبب التراوية محمولة بواسطة بلاطات حجرية منظمة بشكل تاج. والمرجح أن هذه الجزر كانت بمنطقة الأماكن المرتفعة للعيادات القديمة، أي بمنطقة «باتيون» حيث كانوا يدفنون أصحاب المراتب الدينية العليا والشخصيات الملكية.

وهذه الحجرات الجنائزية ترتبط بالنموذج الذي عُرف في إنجلترا أكثر مما ترتبط بطاراز الآثار المغليشية البريطانية. أما تاريخها فيقدر بحوالي 2000 قبل الميلاد.

ومن الواضح أن هذه الجزر كان مصيرها الانحطاط في فترة ما بعد العصر المغليشي، كما هو الحال في بريطانيا. وهذا يكفي لتفسير عدم وجود آثار تذكر. إذ أنه لم يبق بالفعل سوى جهوات المدافن وبقايا أثرية بسيطة من أماكن العبادة في الواقع المرتفع، وهذا ما يفسر التفوق الظاهر للموتى على الأحياء في تلك العقدات.

تعمق جزر «سيللي Scilly» ب نوع من الرهبة المسيطرة والجمال المجرد بحملان على التأمل الصوفي. وقد أكب ذلك هذه الأماكن على مر القرون شهرة دينية.

في جزيرة «Sainte - Marie» المشرفة على البحر الهائج توجد مجموعة من الأنقاض الضخمة تدعى «قصر العملاقة» منشأها يلقى الغموض، تضفي على المحيط شيئاً من الرهبة والأسى، وليس بعيداً عن هذه الأنقاض توجد أسطحة دائرة كانت تدعى باللغة الكلتية القديمة (Salleh) يعني: - الصخور العالية المكرسة للشمس - وهذه التسمية هي التي تم تحريفها في الإنكليزية إلى لفظة (Scilly) الحالية.

أما هذه الأسطحة الدائرية (أو الشمسية) التي يرجح أنها كانت محاطة بأحجار كبيرة متصلة، فهي تتفق بعض الغرابة مع الوصف الذي جاء عند ديودور الصقلاني في حديثه عن جزيرة تقع شمالي المناطق التي كان يسكنها الكلتيون، بالعبارات التالية: «... كانت مكرسة لإله كان يتحدث غالباً إلى أتباعه. وكان يوجد سطح دائري كبير ومعبد بشكل دائري حيث كان الكهنة ينشدون مدائح الإله...».

إن ماض كهذا، كثرت فيه الإعتقادات الخرافية والمقابر الكبيرة المحاطة بالأسرار والغموض والحكايات الخرافية الدينية، يفسر لماذا يقي سكان جزر «سيللي Scilly» بشكل خاص متغلقين وصوفيين وخرافيين بشكل مخيف.

كل أشكال الأساطير والطقوس الغريبة تحيط بالأزهار ذات اللون الأصفر وأزهار الربيع وأزهار الترمس، التي تصنع منها حتى اليوم أدوية ذات خواص ناجعة، ولكن تكون لهذه الأدوية الفعالية الكاملة لابد أن تقطف هذه الأزهار عندما يكون القمر بدراً فقط. فإن أرادوا مثلاً استخلاص مادة ضد السعال فيجب هشم ساق الأزهار بيرتها

نحو الأعلى، أما إذا أرادوا الحصول على مادة لعلاج المخروح وجب عندها برم ساق الأزهار نحو الأسفل. هناك أيضاً مشروبات للحب، وهي نوع من نبيذ العسل يحضر في المزارع، وهو معروف أيضاً بين المشروبات الروحية التي تحضر صناعياً. وربما تفسر لنا شهرة هذا المشروب لماذا غدت جزر «سيللي» الناحية المفضلة للكثير من رحلات الأعراس - الشرعية أو غيرها - حيث تكثر الخلجان الموحشة والأيكات الجذابة وبيوت الصيادين القديمة التي تحولت إلى فنادق صغيرة.

هذا الفردوس الصغير الذي نصل إليه من «Penzance» خلال عشرين دقيقة بطائرة الهمليكورن كان المكان المفضل لرئيس الوزراء (ويلسون) حيث كان يسكن في منزل ريفي متواضع.

بعد كل ما سبق، هل نستطيع في نهاية المطاف أن ثبت أن الفينيقين قد وصلوا إلى جزر «Cassiterides» - Scilly - لاستئمار القصدير؟... في اعتقادي أن الفينيقين في جميع الأحوال لم يستثمروا بأنفسهم المنتاجم وأنهم في أغلب الأحيان لم يكونوا يشترون الركاز مباشرة من هناك. بل الأرجح أن هذه المادة كانت تنقل من بريطانيا عن طريق التجارة الساحلية، ولا بد أن البحارة الفينيقيين والإيسيريين كانوا يؤمنون قسماً كبيراً من هذه التجارة التي كانت تصل حتى قادس بعد أن يرفع الوسطاء التجاريين الغاليون السعر النهائي للمعدة الأولية بفرض رسوم عبور جديدة. إذاً مثلما تفعل اليوم الشركات التجارية الكبيرة لتجنب تهاافت الوسطاء التجاريين ولموازنة الأسعار، يفترض أن الفينيقين قد قاموا، انتلاقاً من قادس، بما سأسميه عمليات «دورات قصيرة» ومن وقت إلى آخر حملة مباشرة لتخفيض الأسعار.



المنازل العالية وأطفالهن على أيديهن لإثارة الشعور بالرهبة عند الأعداء ولإثبات حماسة مشاعرهن.

كما قدر للعديد من أطفال عائلات الأشراف أن يكونوا قرائهم لطقوس الله «مولوخ» الهامة. وما لا شك فيه أن التضحية في تلك المناسبات لها قيمة رمزية وأهمية بالغة إذا عرفنا مدى تعلق الشرقيين بأطفالهم، تلك كانت طريقة لتقديم أغلى ما هو عندهم إلا وهو فلذات أكبادهم، إلى الآلهة من أجل إرضائهما وتهديتها والتقرب منها.

و بما أن فكرة التضحية بالنفس في ذلك العصر كانت راسخة في ذهن الطفل منذ نعومة أظفاره، فإن بيئة كهذه تجعل فكرة الإحتصار الصوفي عادلة تماماً كما هو الحال لدى النشاك البوذيين في أيامنا. والمعروف أن ديدون (اليسار) مؤسسة قرطاجة نفسها هلكت في النار.

إن هذا الإحتصار للموت والأهمية التي يخصوه بها في نفس الوقت، سواء كان تعبداً أم استغفاراً، يجعلنا ندرك جيداً شجاعة القرطاجيين الخارقة أثناء رحلاتهم البحرية وبسالتهم في المعارك البحرية التي خاضوها ضد الرومان دون هوادة خلال الحروب البوئية بمرحلتها الثلاث.

ولكن يجدر بنا التنويه إلى أنه في أوقات لاحقة، وخاصة تحت تأثير التفوذ الإغريقي المتزايد حل محل القراءين البشرية شيئاً فشيئاً قرائهم من الحيوانات وخاصة من الطيور. فقد لوحظ في طبقات الركام الأخرى العليا لمعبد تعييت أن جرار الدفن تحوي عظاماً متكتلة لتعاج أو طيور بدلاً من عظام الأطفال.

وعدا عن ذلك يجب القول أن قرطاجة خلال القرنين الأخيرين من تاريخها كانت بحاجة حقيقة إلى كل أبنائها من أجل إمداد الجيش وتأمين احتياجات الدفاع. يبقى أنه كانت للقرطاجيين آلة أخرى ثانوية أو صغرى، من بينها واحد يدعى «بيس Bess» صوروه بشكل متكرر. وربما كان هذا الإله البدائي التي تُسجد عليها كل أساطير الشرهين.

كما يبدو من الممكن القول أن القرطاجيين كانوا «مسكونين» حيث قبلوا عبادة آلة غريبة.



## الفصل الرابع والعشرون

### الفنون والصناعة والزراعة في قرطاجة

#### ● الفنون:

ليس هناك ما يدل على وجود قدرات عالية في مجال الإبداع الفني عند فينيقيي الغرب. إذ يلاحظ أن فنهم كان مقتصرًا على تحويل بعض المواد إلى الاستخدام العملي، بحيث يمكن اعتبار فنهم صناعة بصورة رئيسية. وهذه الصناعة كانت متطرفة جداً في العديد من المجالات مثل التعدين والنسيج والتجارة والخزف.

كان الحرفيون، وخاصة خبراء المعادن، في قرطاجة قد أصبحوا كثيري العدد بعد حرب صقلية ما بين 409 و 338 قبل الميلاد حيث أسر القرطاجيون خلالها أعداداً كبيرة كان فيها كثيرون من الحرفيين. وقد جيء بهؤلاء الأسرى من المدن الخالية إلى قرطاجة وشكلوا فيها طوائف جديدة، وأصبح لهم أولاد وأحفاد في قرطاجة.

ولكن يبدو أن هؤلاء الحرفيين «المرغمين» ظل ينتمي الشعور بالرابط الوطني والاعتبار الاجتماعي الضروريان لتفتح الذهن المبدع. ومع ذلك فمما يجدر رؤيته ذلك العدد الكبير من الخلي والأدوات ذات الطابع الشرقي والذوق النطيف، المعروضة في متحف باردو. وأظن أن القسم الأعظم من هذه الخلي والأدوات قد صنع في ورشات الحرفيين في صور ومصر أو في سيراكوز. أهم ما يجدر ذكره عتاد حربي من الذهب (درع وحوذة وغير ذلك) يقال أنه كان لـ «Jugurtha»<sup>(\*)</sup>. وهو بالتأكيد إنتاج ورثة يونانية صنعته بناء على طلب أحد القرطاجيين الأغنياء. ويشعر المرء أن إعطاء العمل في هذا العتاد صبغة شرقية لم يكن إلا لإثارة الإعجاب عند طالبه. لكن أسلوب الرسم والبناء الكلاسيكي للأعمدة الذي تغطيه الزخرفة إنما يوحى بزهرية صنعت من خزف السيفير «Sevres» حسب تعليمات ورغبات أمير قطري أو كويتي في أيامنا هذه.

(\*) أحد الملوك التوميديين من القرن الثاني قبل الميلاد. حاول بعد زوال قرطاجة أن يستند من الأوضاع المرجة في روما ليلعب دوراً كبيراً في شمال أفريقيا، لكنه لاقى حتفه على يد الرومان - المحقق -

### ● الصناعة:

إن ما يجب أخذة بعين الاعتبار في قرطاجة قبل كل شيء هو أنها كانت المدينة الصناعية الأولى في العالم.

يؤكد «أبيان Appian» في حديثه بهذا الصدد أنه في سنة 148 قبل الميلاد عندما شن الرومان حرب إبادة، استطاعت قرطاجة رغم انحطاط الأحوال فيها أن تصنع في ترساناتها الخاصة خلال أسبوع قليلة ثلاثة آلاف درع وتسعة آلاف سيف وخمسة عشر ألف رمح وثلاثة آلاف منجنيق.

ومن المعروف أيضاً أن ورشات السفن الخيرية كانت تتبع وبسرعة كبيرة سفناً حامة. فلو أخذنا بعين الاعتبار الأرقام الواردة في وصف رحلة حنون البحرية - التي سترد فيما بعد - لأدركنا أن السفن القرطاجية كانت تستطيع بالتأكيد أن تنقل عدداً مغات من الأشخاص وتحمل أحواضها بكميات كبيرة من البضائع أو المؤن.

### ● المرافق:

إذا كان فينيقيو الغرب قد يرعوا في صناعة السفن فقد كانوا بالتأكيد أصحاب قدرات عالية في بناء المرافق. ولقد أدهشتني بالفعل عظمة المرافق في قرطاجة التي يتطابق الشكل الدائري فيها والآخر البيضاوي بصورة دقيقة مع وصف الكتاب القديم من ذلك العصر، الذين تحدثوا عن مرفاً دائري داخلوي كان يعتبر مرفاً حربياً مفصولاً عن المرفأ التجاري بواسطة مضيق كان بالإمكان أن تُتمَّ فيه سلاسل عند الضرورة لمنع المرور. كما يفترض أن البحيرتين الساحليتين اللتين تراهما اليوم في حي «سلامبور» تتطابق إحداثياً مع المرفأ الحربي والأخرى مع المرفأ التجاري. غير أنه من الممكن أيضاً أن تكون كلياهما قد شكلتا قدماً المرفأ الحربي. وأما المرفأ التجاري فكان أمامياً وكثيراً يحميه في أقصى الجنوب رصيف اصطناعي رُصف بحجارة بناء فيما بين الأرصفة التي تدعى الـ «خوما Choma»<sup>(\*)</sup>.

كان المرفأ إذاً يشتمل على رصيف طويل يبلغ 425 متراً غرباً و حاجز عريض بطول 100 متر والرصيف الغربي وأرصفة أخرى لاتخضى وعدد كبير من الأحواض التي كان من الممكن تجفيف بعضها، ثم مخازن ومستودعات على طول الأرصفة التي تعلوها صفوف من الأعمدة.

(\*) تسمية: أخذت عن اليونانية ويقصد بها ساحات تكديس البضائع في الموانئ - المحقق -

وأخيراً، كان يرتفع في المخربة التي تتوسط الميناء بناء كبير لمركز القيادة البحرية الذي غُشِّر على قواوده. ومن المعروف أنه من مركز القيادة في الميناء كانت تعطى التعليمات للسفن بواسطة الأبواق والرايا العاكسة لأشعة الشمس على مسافة طويلة.

وكانت تستطيع أن ترسو في ميناء قرطاجة متنان وعشرون سفينة حربية.

الواقع أن هذه المنشآت تبدو لنا على درجة كبيرة من الأهمية حتى بالمقارنة مع سعة أعمال المرافق المعاصرة. ومن المحتمل أن القرطاجيين قد أعدوا مراسيمهم الكثيرة العدد على طول شواطئ المتوسط والأطلسي بطريقة بسيطة ولكن بكل التجهيزات الضرورية.

### ● الزراعة:

حاز القرطاجيون على شهرة كبيرة في مجال الزراعة، وذلك باستخدامهم لأول مرة أسلوب الاستثمار المكثف للأرض وعاليتهم الممتازة بالزيتون والكرم. ويرجع إليهم الفضل في ازدهار الزراعة بذلك المنطقة من الشمال الأفريقي التي أثارت أطماع الرومان حتى صاروا يعتبرونها مخزناً حقيقياً للغلال.

ومن أبرز تحديات القرطاجيين في المجال الزراعي كان ابتكار تطعيم أشجار الزيتون البرية الذي ساعد على مر القرون على إنتاج أفضل زيتون على سواحل البحر المتوسط وفي العالم.

وأكثر من اشتهر باسمه «ماجون Magon» القرطاجي الذي وضع أول بحث في أصول الزراعة في العالم ومازال الزراعيون حتى اليوم يقتدون به ولم يزل بعد خمسة وعشرين قرناً يعتبر أبواً للزراعة، كما يعتبر بحثه كتاباً موجزاً في التربية والتدجين. وهو يقدم أمثلة عن تكاثر الماشية وتحسين ذلك.

ومن الجدير هنا معرفته أن القرطاجيين الذين سبقوا أجدادهم فينيقيي الشرق في مجالات عددة، قد نجحوا بطريقة مثلى في إلقاء الزراعة والإنتاج الزراعي على الأرض الأفريقية. ولكن هذا النجاح ليس مدهشاً تماماً. فالواقع أن الصوريين والصيودونيين كانوا مضطربين للإبحار لتأمين أسباب تطورهم وذلك نظراً لتناحرتهم للسلسلة الجبلية ومناورات جيرانهم المختلفين المستمرة معهم.

لقد قام الفينيقيون ولأول مرة بعد نقلهم الزراعة إلى الغرب بتنظيم الأراضي الضرورية للإستفادة مما ورثوه عن أجدادهم أهل المدن الكنعانية في مجال الزراعة، بالإضافة إلى عقليتهم المفتوحة وروح المغامرة التي كانت عندهم.

لكن هذا الامتداد الإقليمي الذي كان سليماً خلال القرون الأولى، وكان سبباً لارتباط قوي بالموطن الجديد في الأرض الأفريقية، وهذا الإزدهار الكبير الذي رافقه، كان مما أثار الحسد عند الرومان وجر إلى حروب مدمرة فيما بعد. ويمكن القول بهذا الصدد أن القرطاجيين لم يظلووا أصحاب السيادة على البحر فقط ولم يظلووا رجال تلك المراكز التجارية المنتشرة هنا وهناك، ولم يعد هدفهم الإبحار فقط خلال بضع ساعات نحو أماكن جديدة أو مصائر مجهولة، فقد وجدوا أنفسهم مشدودين إلى الأرض التي زرعواها وطوروها وأحسنوا استثمارها، وبما أنهم أصبحوا مالكين لهذه الأرض المنتجة فقد صاروا مضطربين لحمايةها عسكرياً، وهذا ما سيكون بداية الطريق لسقوطهم.

## الفصل الخامس والعشرون المجتمع القرطاجي

هناك وصف جيد وممتع للمجتمع القرطاجي من قبل «جيبرت وكوليت شارلز - بيكارد Charles - Picard et Colette Charles» في كتابهما المتضمن لمستندات والمسمي: «الحياة اليومية في قرطاجة في زمن هنيبل».

لدى مطالعتي لهذا الكتاب لم أستطع إلا أن أقارن بين شبح مدينة مثل نيويورك وشبح العاصمة القرطاجية القديمة حيث العيش متوقف على العمل والإنتاج. أبهية عالية (من 5 إلى 8 طوابق على وجه التقدير) الأمر الذي كان خيالياً بالنسبة للذك العصر. وهذه الأبهية بمقاييس ذلك الزمن توازي تماماً ناطحات السحاب في عصرنا هذا. كما أن حي الأعمال المسمي «بيرسا» والذي أخذت منه كلمة «بورصة» يذكرني تماماً بالـ «وول ستريت... Wall Street».

### ● الطبقة الأرستقراطية:

كانت المعايير الأساسية للطبقة الأرستقراطية تقوم على نجاح أعمالها وما تقدمه من مساعدات مالية. وقد تطورت هذه الطبقة بشكل ملحوظ. لكن هناك ما يشير إلى أن المجتمع القرطاجي كان يعيش حياة تقشف إلى حد ما رغم مساعدات الأرستقراطية الضخمة.

كان على رأس الدولة رجالان يحملان لقب «قاضي قرطاجة» (بالفينيقية: شوفط). وكانت لهذين الحاكمين (القاضيين) مكانة رفيعة، ويساعدهما برمان مكون من ثلاث مائة عضو منتخبين من بين الأرستقراطية القرطاجية، بالإضافة إلى مجلس شورى مكون من مئة عضو مكلفين بالشؤون القضائية. ويبدو أن كل الوظائف العادلة ووسائل الخدمات العامة كانت متروكة إلى أفراد أقليات غريبة (غير فينيقية) كانوا يستهلوون هجرتها.

وإذا كان عدد سكان قرطاجة في زمن ما قد بلغ سبعمائة ألف نسمة فإننا نستطيع أن نقدر بسهولة وجود طبقة كادحة غير متباينة تكونت من حوالي أربعة إلى خمسة آلاف فرد منهم: تجار صغار وعمال أحواض السفن وحملون وحرفيون وصناع. وقد

ذكرنا فيما سبق أن فئة المحرفين خبراء التعدين كانت قد تشكلت في البداية من الأسرى أو المهاجرين بعد حروب صقلية. كما كان بعض الإغريق قد أقاموا في قرطاجة، ولابد أيضاً أن بعض الأفاريقين من السود كانوا يسكنونها، وأن جماعات من البدو أيضاً جاءت لتسquer فيها. وكانت هذه الأقليات المختلفة عندما تحس بخطر الحرب تزيد من عدد الجنود المرتزقة الذين كانت قرطاجة تجمعهم من مختلف أنحاء العالم المعروف تقريباً لتأمين حمايتها.

#### ● المرتزقة:

الاعتقاد السائد هو أن الشباب القرطاجيين كانوا بصورة عامة يفضلون أن يكونوا رجال أعمال وأصحاب مصارف أو قباطنة سفن أو أن يعملوا في الاستيراد والتصدير على أن يذهبوا إلى الحروب. ويعتبر الكثيرون أن ذلك كان واحداً من جملة أسباب سقوط قرطاجة. وهملاً الرجال الذين كانوا أصحاب ثروات قبل كل شيء، اعتقدوا بأنه يكفي أن يكون لديهم المال لكي يتتصروا في المعارك. وقد بدأوا ثروات طائلة بلا جدوى سواء في صنع السفن الحربية الكثيرة أو في تجهيز الفيلة المدرعة أو في تشكيل وتمويل فرق الجنود الأجنبية، ولم يفلحوا بالواقع إلا في إثارة سخط وتدمير شعوب العالم في ذلك الحين.

#### ● رجال المال:

كان الرأسماليون وأصحاب السفن الكبار قد أتقنوا دون شك كل فنون التجارة الدولية الكبيرة. حيث كانت أعمالهم تشمل على كل ما هو معروف في عصرنا هذا من تأميمات ساحلية واعتمادات مصرافية وقرص من كل الأنواع وتمويل بالمساهمة أو بالحساب وكل أشكال الحسومات والإجراءات التجارية. وفي قرطاجة ظهر أول قرض له صفة دولية.

ولم يفسحوا مجالاً لقدم الإغريق عليهم في سُك العمليّة، فقاموا في ورشاتهم بنسك عملتهم من الفضة والذهب.

إن البورصة التي كانت تحدد الأسعار العالمية للمواد الأولية والتي صارت تمول العمليات الحربية كان لها دور في سقوط قرطاجة.

#### ● اللغة:

هذا الخليط الكبير من الأجناس والأقليات المهاجرة الذي عاش في قرطاجة كان

يكتب ويكلّم بلغة مشتقة مباشرة من الفينيقية (الكنعانية) أطلق عليها اسم «اللغة البرونية» وقد أشرنا إلى أصل هذه الكلمة فيما سبق. وقد اشتقت منها لفظنا «Poenus» و«Poenulus» حيث كان الرومان يقصدون بذلك القرطاجيين. وقد اعتاد الرومان أن يركبوا فصصاً مسلية مبالغ فيها عن لهجة البرونيين. وبعد احتلال قرطاجة أصبح ينظر إلى المستوطنين الرومان فيها وكأنهم أوربيو الحزائر في عصرنا الحالي. وما علينا إلا الرجوع إلى مسرحية «Plaute» المسمّاة «Poenulus» لنرى فيها للمغامرات الهزلية لقرطاجي لدى زيارته لروما.

### ● الأزياء:

كان اللباس الاعتيادي عند القرطاجيين شرقياً مؤلفاً مما يشبه الجلباب والصدرية (أو السترة) والأرجح أنه كان شديداً الشبه بالقطن الحالي. ويدو أن القرطاجيين لم يكونوا مهتمين بمظهر الجمال الجسدي كما كان اليونان. ويدو أيضاً أنهم اعتبروا السمنة الخفيفة (أو البدانة الممتلئة) دلالة على النجاح في الأعمال. وكان اليونان أول من أدخل إلى أفريقيا الشمالية ذات الطابع الشرقي اللباس القصير والآلهة العارية. والأرجح أن هذه الألبسة القصيرة لم تكن محظوظة في المجتمع القرطاجي كما هو الحال بالنسبة لـ «المبني جوب» في أيامنا هذه في البلاد العربية.



## الفصل السادس والعشرون

### معبد الحب الكبير في صقلية

بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد كان انتشار القرطاجيين وتأسيسهم للعراكة التجارية قد شمل كل الموهض الغربي للبحر المتوسط.

أما بالنسبة لصقلية فكان فيبيقو الشرق منذ ما قبل ذلك قد استقروا في الجهات الشرقية منها، ثم أن مجيء الإغريق إلى هذه المنطقة من جهة وتأسيس قرطاجة من جهة أخرى أضطرهم لترك هذه الجهة والتجمع في القسم الغربي من الجزيرة حيث كان هذا الموقع المقابل لقرطاجة يؤمن لهم المراقبة شبه الكاملة لحركة مرور السفن بين غربى البحر المتوسط وشرقيه.

عند استقرار الفينيقيين في الجهة الغربية من صقلية لم يجدوا أية مقاومة من جهة قبائل الـ «إيليميين Elymes»، بل على العكس رحبوا بهم وتحالفوا معهم إلى درجة الانصهار فيهم تدريجياً.

كانت الأماكن الرئيسية لاستيطان الفينيقيين في «بانورم Panorme» المسماة اليوم «باليرمو Palermo» وفي جزيرة صغيرة تدعى «موتي Motye» وفيما بين «باليرمو» و«موتي» يرتفع جبل «إيريكس Eryx» المشرف على البحر، وعلى قمته كان ذلك المعبد الشهير المكرس لـ «عشتروت / أفرو狄ت» والذي قام على أساس موغل في القدم، وكانت كاهنات البغاء المقدس في هذا المعبد تقوم على خدمة البحارة والمسافرين، ويعتقد أنه أساس لاجتناب عدد كبير من سكان قرطاجة، حيث يعتقد أن الآداب الاجتماعية في قرطاجة كانت تنفر من الفحش وممارسة البغاء، وإضافة لذلك فإن عبادة الإلهة «تعنيت» التي طفت أخيراً على عبادة «عشتروت» خلال القرن الرابع ق.م كانت قد ألغت من المعابد القرطاجية طقوس البغاء الجماعي، ولذلك فمن الواضح أن القرطاجيين كانوا يجدون فوق جبل «إيريكس» - الذي يبعد عن قرطاجة مسافة بضع ساعات إيجاراً - ما يشبع رغباتهم مع القيام في الوقت نفسه بواجباتهم في التعبيد، وما يُمحى أنه من هذه القمة التي يسميها الإيطاليون اليوم قمة «إريكس Erice» كان يمكن في الجو الصبح عدّ أشرعة السفن في ميناء قرطاجة، وقد حالفني الحظ

شخصياً أن أصل إلى قمة جبل «أيلريس» في جو صحو، ولكن حتى باستخدام المنظار لم أتمكن من رؤية أقرب قطعة من الساحل الأفريقي. ولابد أن الرومان الذين تناقلوا خرافة كهذه قد التبس عليهم الأمر فظنوا لمعان مرايا أمير البحر هي أشارة السفن، لم يعد بامكانياتنا اليوم أن نرى شيئاً من معبد إلهة الحب، إذ أنه بعدما دثر قامت على أنقاضه أبنية أخرى متعاقبة على مر العصور كان آخرها قصر من القرون الوسطى. لكن الموقع يقيس له روعته وبساطته. وقد ث�جحت إدارة الآثار الإيطالية في الكشف عن أساس المعبد القديم وأسس أبنية أخرى قامت فوقه لم تعرف هويتها بعد.

غير بعيد عن جبل «أيلريس» المذكور كانت جزيرة «موتي» الصغيرة تقع هي أيضاً في أقصى الغرب من صقلية. وكان هذا الموقع استراتيجياً بالنسبة للتجارة القرطاجية. كما كانت تعتبر بشكل رئيسي مركز استيراد الفضة من مملكة ترشيش ومن ثم تباع للإغريق الذين يسكنون في سيراكيوز بشرقي صقلية والذين سكوا نقوداً على شكل النقود القرطاجية الأولى.

يوجد اليوم في باليرمو متحف جمعت فيه الكنوز الأثرية وخاصية القرطاجية، التي وجدت في تلك المنطقة، وقد أثار إعجابي بشكل خاص، تابوتان حجريان منحوتان على شكل إنسان ويقال أنهما من صيدون، أحدهما يمثل امرأة شابة ترتدي فستاناً صنعت طياته من المرمر، أما تقاطيع الوجه الخشناء بعض الشيء فقد تم تجميلها، ويعتبر هذا امتداداً للتأثير الإغريقي القديم.

## الفصل السابع والعشرون

### جزيرة

تشبه جربة واحة كبيرة متوضعة على سطح الماء ليس بعيداً عن الحدود بين تونس وطرابلس. ويبدو أن لهذه الجزيرة حكاية طويلة حيث منها أساطير غربية لائعة. كان يسمى القديماً «الجزيرة المسطحة»، الواقع أن أعلى ارتفاع لها عن سطح البحر يتراوح بين 15 و20 متراً.

ويقال أن الرحالة «أوليسي Ulysse» قد جاء إليها وأطال المكوث فيها بعد أن تذوق لأول مرة طعم أزهار اللوطس، هذه الأزهار التي كانت تجلب النساء. ويروي «هومير» أن السكان كانوا يقتاتون بهذه الأزهار البرية ولذلك أطلقوا عليهم تسمية «اللوطسيين». ولكن في هذه الأيام من الحال أن نجد مثل هذه الأزهار، فهل ياترى قُصد بها التمر الذي يوجد في هذه الجزيرة والذي يختلف طعمه عن التمر الذي تجده في أي مكان آخر؟... أما الشاعر «فيكتور بيرارد Victor Berard» فقد كانت كلمة «لوتس» بالنسبة إليه ذات مدلول شاعري جميل، إذ يمكن أن تكون قد جاءت من كلمة «Lethe» اليونانية التي تعني النسيان.

لقد أرشدني أحد سكان الجزيرة إلى الساحل الصغير الذي يعتقد أن الرحالة «أوليسي» كان قد رسا فيه، وهناك بعض الأنقاض من منزل بدا لي أن قواعد بنائه قرطاجية، ومن الحتم أن «أوليسي» أقام فيه أثناء وجوده في الجزيرة.

ومهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن الفيتقين قد جاؤوا أيضاً إلى جربة. إذ أن الجزيرة اشتهرت في العصر الروماني بالصياغ الأرجواني الذي كان يُنتج فيها، هذا الصياغ الذي سعى وراءه كبار العاملين على سواحل البحر المتوسط. ويكتنأ أن تخيل مدى أهمية هذه الصناعة لدى يقولنا على شاطئه مدينة القنطرة شمالي حيث يمتد حقل كبير من بقايا أصداف المربيق القديمة.

عدا عن أسطورة «أوليسي» هناك أسطورة أخرى تقول أن الملك سليمان أتى أيضاً إلى جربة جربة، وخلال مكوثه فيها أسس معبداً يهودياً يعتبر من أقدم المعابد في العالم. وقد بقي عبر القرون يُرمز إليه بكيس لليهود ومزار بجانبه يسمى «La Griba».

ومازال هذا المزار يشهد حركة نشطة. وقد أكد لي أحد رجال الدين اليهودي الذي تناقضت معه، أن ابن داود قد جاء إلى هذه الأمكانة حتى قبل تأسيس المعبد. وبينما كانت تبعت من الكنيس تراويل مزامير الملك سليمان استطعت أن أقرأ على مهل نقشاً كان على جدران الكنيس فيه العبارات التالية:

«لقد أعلم الحجاج الأسيخاء بأن هباتهم مخصصة لأولئك الذين يرثون التوراة المقدسة.. إن تشيد هذا المقام الصغير يعود إلى سفر خروج المعبد البابلي الأول قبل حوالي خمسة وعشرين قرناً.

إذاً كل العطايا قد جمعت لمساعدة العجزة الذين يرغبون بترتيل التوراة المقدسة. نلتمن من الحجاج أن يكونوا أسيخاء والله سيكافهم على ذلك.  
الرجاء خلع الأحذية وتقطيع الرأس عند الدخول..  
الرجاء عدم التدخين...»

وكانت قد دونت في أسفل هذا النقش أسماء بعض المترعين الأسيخاء بشكل لوحة تذكارية كالتالي:

Eliaoun Aboukar

Nedjna Aboukar

Haouita Nadar

Alfred Cohen

Napoleone Pariente

لقد مر معنا فيما سبق شيء عن العلاقات بين حيرام الكبير ملك صور وبين سليمان، وعن رحلات السفن المشتركة، ولكن الملك سليمان، لم يكن لايستطيع القدوم إلى جربة إلا في سفينة صورية.

هناك آثار فييقية أخرى على أرض الجزيرة، جرار صنعها الخزافون في جربة. وهي ذات عنق واسعة وأشكال ضخمة، تشبه تماماً تلك الجرار التي أعيدت إلى تونس من العصر البوبي.

لم يعد من الضروري اليوم أن نتناول زهرة اللوطس لكي ننسى الزمن في جربة جربة، ففي ذلك السحر الدائم للرمل الأشرف الخحمي، وبين زرقة البحر الشفافة وزرقة السماء الغامقة يطيب العكوف على عبادة الشمس فوق الله «Ludes» ذات القشرة السوداء والستار الأحمر والتي قد تكون من التراث القرطاجي.

## النعمل الثامن والعشرون مالطة وسر محابد الكهنة

عند ملتقى تيارات البحر المتوسط كلها كانت جزيرة مالطة الصغيرة، التي استقلت سنة 1965، تعتبر منذ قديم الزمن من أهم النقاط البحرية. وربما تكون هذه الجزيرة من أكثر المزير غرابة. ولقد زرتها أثناء رحلتي البحريّة على طرق الفينيقيين الساحليّة.

والمُعْرُوف أن القرطاجيين استوطّنوا بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد. وقد قام المعهد الإيطالي للدراسات الشرقيّة بـإشراف البروفسور «ساباتينو موسكاني» باكتشافات متعددة فوق المرتفعات المشرفة على الخليج الصغير السمعي «مارسا كلوك Marsaxlokk». ومن جملة ما تم الكشف عنه دعائم أكروبول قرطاجي قديم. وفي مكان آخر وجدت نقوش عديدة باللغة البونية (الفينيقية الغربيّة).

يقع خليج «مارسا كلوك» في الجهة الجنوبيّة الغربيّة من مالطة، وكان يوجد على الأرجح في هذا الجزء من الجزيرة المرافأ والمدينة مع المنشآت القرطاجيّة. كان مما اشتهرت به مالطة هو النظام البديع لـ«الفرسان» الذين افترضوا باسمهم باسم الجزيرة: «فرسان مالطة» - Chevaliers - . ويعتبر قصر «سان جان Saint Jean» المشرف بجدرانه المضيئة على ميناء العاصمة «Valette» رمزاً لعظمة هذه الجزيرة التي تحظى باهتمام دولي. وهذه العاصمة «Valette» التي تقوم فوق شبه جزيرة ضيقة محاطة بمحركات بحرية، تتمتع بشكل طبوغرافي مثالي لتأسيس قاعدة حربية ساحليّة ذات أهميّة كبيرة. ولذلك رصد البريطانيون خلال عدّة قرون مبالغ كبيرة في مجال الدفاع عن موقعهم بمالطة. ولهذا أيضاً تصفت دول الحور تلك العاصمة بالقناطر خلال الحرب العالميّة الثانية.

وفي الجزيرة أمر آخر يلفت الانتباه وهو اللغة التي يتكلّمها المالطيون والأسماء الغربيّة للأماكن الجغرافية. إذ نجد على سبيل المثال بلدة باسم: «قرياط» أو «مدينة» وأخرى باسم «زيتون» وغيرها باسم « ملياح» أو «صافي»... إلخ حيث شعرت بمنسي في لحظة معينة وكأنني موجود في بلد عربي وعلى التحدّيد في المقربة. ولكن هنا أيضاً عدد لا يحصى من الأسماء العائدة لأصول أخرى، مثل ذلك:

ـ «Zurriegi» و «Qurendi» التي لها نغمة تذكرنا بالفاظ نسمعها في إقليم الـ «باسك» ـ بين أسبانيا وفرنسا ـ

ـ كما يمكننا استعراض كلمات أخرى مثل: «Siggiewi» - «Zebbug» - «Kirkop» - «Naxxar» - «Għaxagi» - «Xagga - Ix - Xwieki» - «Xagħġaq - Marsaxlokk»). ولللاحظ أن هذه اللحظة الأخيرة عبارة عن مركب مع كلمة عربية (م رس = مرسي).

ـ هذه الكلمات ذات الواقع الغريب على السمع قد تكون ناتجة عن احتلاط ما بين اللغات المحلية القديمة وبين الفينيقية والبوئية.

ـ عدا عن ذلك توجد أسماء من أصل لاتيني. ولا غرابة في ذلك، فالجزيرة عرفت عهداً من الاحتلال الأسباني ثم الإيطالي، الذي ترك آثاراً في الأنحاء المتاخمة للعاصمة. ومن هذه الأسماء:

ـ «فاليتا Valetta» - «فلوريانا Floriana» - «باولا Paola» - «فيتوريوسا Vittoriosa» - «سان روکو San Rocco».

ـ بثم كان للبريطانيين أثراً لهم أيضاً على الأسماء المغравية إذ نجد مثلاً:

ـ «Paul's Bay» - «St. Peter's Pool» - «St. Thomas Bay»

ـ عدا عن هذه الأسماء الغربية ونفوذ الفرسان المالطيين وطوبغرافية الجزيرة المميزة فإنها تقدم لنا بعض الروائع الأثرية الأ Kavanaugh: إنها تلك المعابد التي لا تخصى والتي تبعث على الإحساس بأن جزيرة مالطا كانت خلال الألف الثالث قبل الميلاد أروع وأغرب مكان للعبادة واللحج في كل أنحاء البحر المتوسط.

ـ الواقع أننا نجد في جميع أنحاء الجزيرة تقريباً المعابد التي يتألف مخططها إجمالاً من ثلاثة قاعات إهليلجية الشكل متصلة فيما بينها. الأولى يرجح أن تكون تلك القاعة المفتوحة للحجاج والزوار. أما الثانية فذات أبعاد أقل وهي التي يجتمع فيها الكهنة. وأنهيراً الثالثة، عبارة عن حجرة بسيطة يعتقد أنها كانت معدة لقدس الأقدس وفيها مذبح. كما عثر على مذابع في الأماكن الجانبية.

ـ لم يبق من هذه المعابد ذات القبة المتهدمة سوى الجدران وفي أعلىها نلاحظ بدأيا الإلحناء (التقوس) الذي كان يشكل القبة.

ـ والأحجار التي بنيت بها هذه المعابد ضخمة. وقد تمثل نساء بأجسام بدائية جداً، وربما كان المقصود بذلك أمهات الآلهة، وأما الأشكال الضخمة فمن المحتمل أنها

كانت تتوافق مع تدفق الحال في ذلك الزمن، يوجد في مالطة وفي جزيرة «كورزو» الصغيرة حوالي المائة من هذه المعابد. والمعبد الرئيسي هو معبد «Tarxien».

وهناك اكتشاف جديد لابد أنه سيزيد من الأهمية الأثرية التي تتراءى لنا حول أصل هذه المعابد وحقيقةها. ففي «باولا» - إحدى القرى الآلقة الذكر - حدث أن انهدم منزل بعض البسطاء فلاحظوا بذلك أن المنزل كان متصلاً مع سردايا يشرف في نهاية على حجرات مليئة بعظام الأموات. عندها سارعوا إلى سد هذا المنفذ وكتموا سر ذلك طيلة سنوات عديدة خوفاً من أن يكونوا قد كشفوا مصدراً للشرور أو اللعنات. وقبل بضعة عقود من الزمن عُرف هذا السر في «باولا» وتم الكشف عن معبد تحت الأرض.

إذا تصورنا كمية عظام الأموات التي كانت توجد هناك (حيث الصالات متصلة حتى السقف) لحسبنا بادئ الأمر أنه عبارة عن مدفن كبير جماعي تحت الأرض. ولكن إذا أزحنا هذا التراكم الضخم من العظام بدأ لنا قاعات نظامية ذات هندسة معمارية ممتازة، تتصل أعمدةتها المعمقة فيما بينها بطريقة رائعة<sup>(\*)</sup>.

وتعتبر نظرية انتقال الموجات الصوتية مظهراً من مظاهر التقنية العالية لهذه المعابد. إذ أن الكاهن يمكنه في حجرة جانبية (هيكل خفي) ويتحدث أمام كوة في المالطة على ارتفاع الرأس، وهذه الكوة تحدث تكبيراً للأمواج الصوتية التي تصطدم بعد خروجها بالجدران المقوسة المقابلة<sup>(\*)</sup> ثم تمر من غرفة إلى أخرى من خلال ثقب صغير. وبهذه الطريقة يكون صوت الكاهن واضحًا وقوياً في الغرفة البعيدة عن الهيكل.

وقد قمت بالتجربة بنفسني، إذ جعلت شخصاً يتحدث في المكان المفترض للكاهن وتنقلت في القاعات المختلفة وتأكدت من علم بـ الأمواج الصوتية فعلاً، والذي كان مغفلًا في أيامنا رغم التقدم التقني.

لابد أن فينيقي الشرق كانوا يرسون في مالطة منذ ما قبل تأسيس قرطاجة. والأرجح أن عصر امتدادهم الكبير نحو الغرب قد تزامن مع عصر انحطاط هذه الحضارة المالطية المدهشة. كما يرجح أن الفينيقيين قد عرّفوا أماكن الحج الرايعة هذه في وقت كانت لأنزال فيه تجاذب الزوار بالرغم من انحطاط الحضارة. ولا يستبعد أن

(\*) لم يتضح شكل البناء من خلال هذا الكلام. ولكنني أرجح أن - اتصال الأعمدة المعمقة - ثم - الجدران المقوسة - قصد بها المؤلف طريقة بناء السقوف بشكل خاطر - المحقق -

يكون الصوريون والصيادون قد ابتهلوا إلى إله معبد Tarxiens عند رسّتهم هناك أو إبحارهم.

عند خروجي من ذلك المعبد (المدفن) في «باولا» فوجئت بإعلان مكتوب بالأحرف اللاتينية يدعوني لحضور القدس الكاثوليكي، وكان مدوناً كما يلي: «أواش لقيتي الله؟... Ouach L'guiti Allah» وهذا النّقش كان بالمالطية القرية جداً من العربية العامية ويعني: «هل وجدت الله؟...»

وهذه المناجاة المباشرة تتفق في مبدئها مع عبارة «هل وجدت المسيح؟..» التي نصادفها في كل مكان تقريباً في البلاد الأنكلوساكسونية بهذا الشكل:

«Have You met Jesus?..»

عندئيل رجعت إلى كنيسة «سان جان... Saint Jean»، وكان كما توقعت تماماً، حيث استمعت هناك إلى خطبة (وعظ) بنفس اللهجة العامية المالطية التي كانت قد لفت انتباهي في الإعلان المذكور. وكما هو الحال عند كل الكاثوليك فإن الذين كانوا يحيطون بي حضوري على البقاء في الصراط المستقيم الذي رسمه الله القادر. وعندها لاحظت أن مسيحيي مالطة يستخدمون لفظة «الله» وليس لفظة أوروية (مثل God أو Dieu) تعبراً عن الرب. وهذا يعني أن المسيح عندهم أيضاً هو ابن الله ورسوله.

## الفصل التاسع والعشرون

### سردينيا - المواجهة مع رجال النوراج

يهياً للمرء في سردينيا أن الفينيقيين قد رحلوا منها أول أمر، وأنه لا وجود بعدهم للأثر الإغريقي، وحتى الرومان لم يقيموا سوى منشأة بسيطة وبعيدة عن موقع القرطاجيين.

تعد سردينيا إحدى المناطق الفريدة في العالم من حيث الآثار التي تركها القرطاجيون والتي مازالت ظاهرة على وجه الأرض رغم اندثار بعضها. يرجح أن فينيقيي الشرق كانوا قد رعوا في جنوب سردينيا، وربما كان ذلك عندما حملتهم أمواج البحر الهائج أو الرياح المعاكسة ما يقارب المسافة الطويلة بين «بوزولي Nazzaretti» وبين أوتيكا. ولكن من المؤكد أنهم لم يكونوا قد أقاموا سوى منشآت بسيطة وقية. إلا أن أهم ما استطاعوا تحقيقه هو معالجة المشكلة الحقيقة لسردينيا ألا وهي الاحتكاك مع رجال النوراج.

ولابد بهذا الصدد من توضيح المقصود بذلك:

النوراج (Nouraghe) أبنية ضخمة مشيدة بحجارة منحوتة ومركبة بشكل رائع، بحيث يشبه البناء قلعة ذات شكل مخروطي.

وربما كانت هذه الأبنية تشمل على برج واحد أو نسق من الأبراج على شكل مثلث، وربما أيضاً، كما في مدينة «باروميني Barumini» التي لا بد أنها كانت عاصمة، حيث اعتمدت الشكل المخمس. والقلعة التي لازالت قائمة حتى اليوم لم تتأثر بعوامل الزمن إلا في أجزائها العليا المنحوتة بشكل دقيق.

وأكثر ما يثير دهشة كبار المهندسين المعماريين هو تلك الأشكال الهندسية الجميلة لهذه الأبنية المكونة من قطع كبيرة من الصخر ومن دون تدخل أي عامل آخر كالتراب أو الرمل أو غيره. وأيضاً من دون أن تكون مكومة بشكل عشوائي.

ويعتبر سكان أبنية النوراج هذه أقدم جماعة سكانية في سردينيا. ولابد أنه كانت لهم كبرياتهم. ويرهن فنهم المعماري المخصص بأكمله للدفاع الحربي على اهتمامهم

الكبير بفن الدفاع وحبهم للوطن، المعتقد أن هؤلاء السكان كانوا مجتمعون على شكل طوائف تحت إمرة رئيس يتولى السلطات المدنية والعسكرية.

وكان الاتصال بين أهم القلاع يتم بواسطة الإشارات البصرية التي تقوم بها دوريات الرصد القابعة على ذرى هذه القلاع.

ويفضل المصورات الراية التي حواها مؤلف الفنان «Giovanni Liliu»<sup>(1)</sup> نستطيع أن نكون فكرة دقيقة عن الشكل الحقيقي لتلك الصرح التي بيت بين القرنين الثامن عشر والعشرين قبل الميلاد، وهذا على كل حال مادلت عليه طريقة الكربون المشع. ويبدو أن هذا الشعب الذي لم يترك غريباً من قبل يستوطن أرضه، قد استقبل القرطاجيين بكل سهولة لدرجة أنه عاش معهم في تآلف. وهذه الظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية، وهي تتفق مع الصفات الإنسانية والدبلوماسية للفينيقيين.

وليس هناك من صورة أفضل للتعبير عن الوفاق الذي ساد بين سكان جنوب غرب سردينيا وبين الفينيقيين من ذلك التمثال العملاق الذي تحدث عنه بطليموس في جغرافيته. وكان هذا التمثال يرمز للإله بعل ولكنه كان يحمل النقش التالي: «Sardus Pater». وقد اختلفى هذا التمثال، لكن الت hariات التي قام بها الكتاب وعلماء الآثار توصلت إلى أنه موجود. إذ يؤكد «بوزانياس Posanias» مكتشف أسلوب «الدليل الأزرق» أن الغرباء الذين يسكنون غرب سردينيا كانوا قد أرسلوا تمثالاً برونزياً للإله «Sardus» إلى «دلфи Delphes» حيث أعجب الحجاج بهذه الهدية. أما علماء الآثار من جهتهم فقد اكتشفوا أيضاً في جنوب غرب الجزيرة تمثالاً صغيراً للإله الشهير باسم Sardus. ويعتبر الشوب الذي يرتديه بدون حزام من الطراز الفينيقي الصرف.

وقد وجدت دلائل عديدة على الوجود الفينيقي وما زال يتكرر الكشف عن دلائل جديدة في كل أنحاء الجنوب الغربي لسردينيا. ففي «Nora» الواقعة في أقصى الجنوب من الجزيرة بناحية «Capo di Pula» أثناض يفترض أنها من مدينة القرطاجيين الأولى في سردينيا. وبين هذه الأنماض اكتشف نصب تذكاري بالغ الأهمية عليه نقش بالفينيقية. ويقدر أنه من القرن التاسع قبل الميلاد، أي أنه معاصر لتأسيس قرطاجة. وقد نقل إلى متحف «Cagliari» حيث يمكن فراءة النص الذي كتبه الإيطاليون عنه بلغتهم:

---

(1): كتاب «La Civiltà Dei Sardi» صدر في Turin 1963.

Templo Del Capo Di Nogar  
 Che E, in Sardegna  
 Prospera Sia Esso  
 Prospera Sia Tiro  
 Madre Di Kition Et Narnaka!  
 Il Quale Templo Acostruito Nogar  
 In Onore Di Pumai.

ومن الجدير باللحظة هنا أن اسم سردينيا ظهر ولمرة الأولى مكتوباً كما يكتب ولفظ اليوم.

من «نورا Nora» يفترض أن يكون الفينيقيون قد انتشروا في باذى الأمر على طول الساحل الجنوبي وحتى «Cagliari». وفي جزيرة «سان أنطيوكو Sant'Antioco» حيث تم العثور على مقبرة كبيرة ومحرقه بلدة «Sulcis» القديمة مع مجموعة من الحجر التي أبقت عليها في مكانها إدارة الآثار الإيطالية محاطة بستار زجاجي كي لا تتفتها عوامل المناخ.

وكان ذلك بمثابة متحف ترك في مكانه الحقيقي وترك في نفسي أثراً عميقاً. فإذا ما اتجهنا قليلاً نحو شرق الجزيرة وجدنا أن الفينيقيين قد اهتموا بشكل أساسى بمناجم الحديد الذي استمر نشاطها منذ ذلك الزمان حوالي ثمانية وعشرين قرناً أو أكثر. فالواقع أن عصر الحديد أخذ يتطور منذ ذلك العهد (أى عهد الفينيقيين).

يطل على هذه المناجم وعلى سواحل سردينيا الجنوبيّة جبل «سيراي Sirai» حيث قادني الأستاذ «Ferruccio Barreca» من إدارة الآثار في مدينة «Cagliari» الذي عثر بمساعدة مجموعة من علماء الآثار القدامى من روما على قلعة قرطاجية من القرن السادس قبل الميلاد، وكان اكتشافها صباح اليوم الذي وصلت فيه. وقد استطعت أن أميز حدود الحصن الرئيسي المحاط بسور ومراکز أمامية.

وعلى مسافة قصيرة من القلعة كانت توجد فوق منطقة صخرية آثار بونية أخرى: مقبرة كبيرة ومعبد يعود إلى العصر نفسه.

والى الشمال بمواجهة «Oristano» استطاعت أن أميز فوق شبه جزيرة تسد الأفق في الغرب مدينة بونية أخرى ذات أهمية كبيرة تدعى «Tharros» مع كل ملحقاتها حتى مكان محرق القرابين «توفت» وعلى مسافة بضعة كيلومترات في بلدة للصيادي رأيتهم يصنعون قوارب من رزم القصب شبيهة بذلك التي كانت توجد في مصر

القديمة والتي ذكرتها الرواية التوراتية في قصة موسى عندما ألقى به في أحدها. لكن القرطاجيين لم يشتبوا وجودهم على السواحل فحسب، بل أن وجودهم ومهاراتهم السياسية عليه أدلة في داخل الجزيرة. ففي الجهة المقابلة تماماً لقلعة التوراجية في مدينة «باروميني Barumini» يمكن للمرء أن يرى البلدة القرطاجية التي لا تزال شبه سليمة، والجاثمة على ارتفاع أبهة التوراج، مثلما كانت البلدات في العصور الوسطى حول قصور الأسياد.

ولابد أن القرطاجيين كانوا يبادلون حديد سردينيا مع قصدير البحار الباردة ونحاس قبرص. فقد وجدت بالواقع تماثيل صغيرة رائعة صنعها سكان التوراج، علماً أن صنعها يتطلب النحاس والقصدير والجزيرة تفتقر إليهما. وقد اكتشفت من هذه التماثيل أعداد كبيرة وعرضت في متحف (Cagliari) بالقرب من تمثال الإلهة الأم التي يسميها البعض «الأم الصورية» أو أحياناً «أم البحر الأبيض المتوسط». وهذا التمثال عبارة عن صخرة يبلغ ارتفاعها 1.50 متراً وعرضها حوالي ستين سنتيمتراً وتوجي تماماً بشكل جزيرة سردينيا، ولكنه بالطبع شكل تقريبي لأن سكان سردينيا في ذلك العصر لم يكونوا ليستطيعوا تكوين فكرة واضحة عن حدود جزيرتهم وشكلها.

وإن ما يميز هذه الصخرة ويعطيها دلالتها الأسطورية - الدينية هو تلك الأئمة الأربع التي تظهر بوضوح تام على وجهها.

كان سكان التوراج مزارعين ورعاة لديهم قطعان وأراض. ويدل توزع أبهة التوراج على نوع من التنظيم الإقليمي القائم على الشروط المغارافية. وبفترض أن أكبر أبهة التوراج كان يقيم فيها «الملك - الراعي» الذي كانت سلطنته القضائية المعترف بها تساعدته على إدارة كل المهام الدينية والسياسية والقضائية والخربية بمساعدة مجلس الشيوخ.

أما الأبراج التوراجية البعيدة فكانت تقييد في إيواء المجموعات المسلحة التي كان بعضها مقيناً والآخر متنقلأً (أي دوريات).

لابد أن حضارة سكان التوراج كانت جامدة وساذجة، ولكنها كانت أيضاً ذات طابع روحي عميق. وقد ارتبطت هذه الروحانية ارتباطاً مباشراً بالطبيعة. إذ أن الإيمان بالإله كان مقترباً بالجibal والينابيع. ولابد أن طقوس العبادة كانت تقام فوق القمم أكثر مما تقام في المعابد الكائنة تحت الأرض والتي اكتشفت بالقرب من الآبار المقدسة. وقد استخدمت هذه الآبار المقدسة فيما بعد لعميد الأطفال في أوائل عصر المسيحية وبعضها تحول إلى بيوت للتعميد في العصر المسيحي المتتطور. وقد دامت هذه الروحانية

المتأصلة في نقوس سكان النوراج زمناً طويلاً، فسكنان سردينيا الحاليون احتفظوا بذكرى أباء أسلافهم وباستقلالهم وبهذا الإيمان بالقوى الخارقة في الطبيعة الذي يحاول المذهب الكاثوليكي أن يعززه بكثرة التطواف ومواسم الحج في نفس أماكن العبادات الوثنية حيث كانت تقام الطقوس قديماً، تلك العبادات التي ألمحت سريعاً بعبادة المسيح ومرم العذراء.

وهكذا حالي الحظ وتمكنت من حضور موسم الحج السنوي الكبير «سان رينتوري San Redentore» الذي يقام بالقرب من «Nuoro» في وسط سردينيا فوق الجبل القديم المقدس لدى سكان سردينيا الأوائل، وقد أخرج الناس بهذه المناسبة كل الألبسة القديمة التي احتفظوا بها وبين لي أن عدداً كبيراً من الرجال كان يضع تلك القلنسوة التي استخدمها البحارة القبقيون، اللينة الخفية نحو الأمام.

كما لاحظت حلية تزيت بها النساء، من نوع تلك التي عثرت عليها، والتي وجد منها على الساحل الفينيقي، وهي عبارة عن فتيلة من الذهب يوحى شكلها بالشدي وهي شبيهة بالأئداء العديدة لآلهة الخصب الفينيقية والمصرية.

لقد كان هناك نوع من التداخل أو الإختلاط بين آثار النوراجيين وأثار الفينيقيين سببه الغموض الذي ساد في السابق لدى باحثي ما قبل التاريخ حول دولة سردينيا. وقد ظلل الناس طويلاً يعتقدون أن أغلب آثار سردينيا القديمة بما فيها الفن المعماري النوراجي هي من صنع الفينيقيين. إلى أن عقد المؤتمر الكبير في بولونيا عام 1871، ثم أنه في عام 1890 بدأت أول حملة تقييمات عن الآثار النوراجية. وخلال الفترة الأخيرة تكونت عند علماء الآثار قناعة بأن الحضارة القديمة أو الأولى في سردينيا كانت «ليبرو - ليغورية». يمكن القول أن سردينيا القرن العشرين قد استمدوا منهم الشديد نحو الاستقلال من ذلك الماضي الشاق والمرموق. وقد حصلوا على الاستقلال الفعلي من حكومة إيطاليا المركزية وصارت نسبة 90 بالمئة من الضرائب والرسوم المفروضة على السكان السردينيين تعود إلى حكومة الجزيرة المستقلة. وعندما يحضر البوليس المركزي الإيطالي إلى بلدة ما في الجزيرة لإجراء تحقيق معين يطلب منهم بطريقة مهذبة أن يعودوا بعد ثلاثة أيام ليجدوا أمامهم حلّاً للمشكلة.

وال فلاحون في سردينيا تملّكتهم رغبة شديدة وذكية في صنع ما يدعى «ماء الحياة» من خلال تقطير الحمر. ويعتبر صنعة متنوعة، لذلك أطلقـت عليه أيضاً تسمية «Filou de Ferrou» التي تعنى: «السلك الحديدي». وتوضيح ذلك هو أن الفلاحين لتجنب المشاكل مع الرقابة المالية والتستر على الأمر كانوا يدفنون القوارير في التراب. ولذلك

يُتَعْرِفُوا عَلَى مَكَانِهَا ثَانِيَةً كَانُوا يَغْرِبُونَ فِي السَّدَادَةِ سَلْكًا حَدِيدِيًّا وَيَتَرَكُونَهُ يَظْهَرُ قَلِيلًا فَوْقَ وَجْهِ التَّرْبَةِ، وَبِذَلِكَ يَسْتَطِيعُونَ الْعُثُورَ بِسَهْوَةٍ عَلَى مَخْبَأِ الْقَوَافِرِ، وَعِنْدَهَا يَدْقُونَ الْأَقْدَاحَ بِكُلِّ سُرُورٍ مَعَ أَصْدِقَائِهِمْ وَمَعَ عَابِرِيِّ السَّبِيلِ عَلَى حَسَابِ وَزِيرِ الْمَالِيَّةِ، وَبِهَذَا الصَّدَدُ عَلِمَتْ أَنَّهُ فِي سَرْدِينِيَا لَا يَقُولُ كَمَا هُوَ مَعْتَادٌ: «بَصَحْتَكَ!...» - عَنْدَ تِبَادُلِ الْأَنْخَابِ - وَإِنَّمَا يَقُولُونَ: «Saludi'e trigai» وَتَعْنِي: «السَّلَامُ وَالْحِبُوبُ».

## الفصل الثلاثون

### الجزائر القرطاجية (إيكوزيم)

كان الاعتقاد عند بعض باحثي الآثار أن القرطاجيين قد أسروا محطات للرسو على طول سواحل الجزائر الحالية وحتى المغرب بمعدل محطة كل حوالي 30 كيلومتراً، وهذا الاعتقاد الذي يبدو لي متحملاً ليس مبنياً إلا على كمية قليلة جداً من الدلائل الأخرى.

ومن الأمثلة المعروفة: «Hippone» التي أصبحت تدعى «Bone» وكانت بالتأكيد مرکزاً تجاريّاً هاماً. وكذلك الأمر «Rusicades» أو (Philippeville) أو (Russuccuru) أو (Dellys) أو (Matifou) أو (Cherchell) أو (Hole) ... وقبل زمن ليس بالبعيد اكتشفت في الجزائر قطع من العملة القرطاجية شُكِّت في نفس منطقة اكتشافها. وقد سلط هذا الاكتشاف ضوءاً جديداً على المراكم التجارية القرطاجية على الساحل الجزائري.

صنعت هذه القطع النقدية من خليطه يصعب تحديدها، ولكن ربما تكون من خليطه الرصاص والتماس. وظهور على هذه القطع صورة الإله ملقارب الذي تميز بسهولة من الهراوة التي يحملها بيده اليسرى. وإلى جانب ملقارب نشرت الكلمة (إيكوزيم) بالأحرف الفينيقية. هذه التسمية الفينيقية التي عدلت عند الإغريق (إيكوزي) ثم باللاتينية (إيكوزيوم Icosium) هي مركب من كلمتين: إحداهما (زيم/سيم) التي تعني الجزيرة كما هو الحال في (إيكوزيم) التي هي (إيبيرا Ibiza) وإنوسيم (Inosim) التي هي جزيرة St. Pietro في سardinia. وكان المقصود بها على الأرجح الجزيرة الصغيرة التي تقع في خليج الجزائر الصغير والتي أصبحت تسمى بالعربية (الجزيرة).

يعقى أن الكلمة الأخرى (إيكوز) تحمل عدة معانٍ مختلفة، إذ يرى البعض أنها تعني: الشوكة أو المصفور النجم ثم اليوم، ويرى فيكتور بيرارد أنها تعني: النور، وأعتقد أنه يمكن الأخذ بهذا التفسير الأخير، من غير المعروف على وجه الدقة إلى أي زمان ترجع هذه القطعة النقدية التي

ووجدت منها نماذج قليلة فقط. وربما لأن تكون مخطوطتين إذا أرجعنا تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد وذلك في زمن تشكل مالك البرير الأولى في نوميديا وموريتانيا. إن المراكز التجارية القرطاجية في الجزائر لم تترك عملياً أي أثر يثبت وجودها، فلابد في هذه الحال أنها كانت محطات بسيطة ومخازن أكثر منها مدننا. وليست بعض التقوش القرطاجية الحديثة أو اللاتينية المتفرقة سوى دلائل ضعيفة لتحديد مدى النشاط وتوعية التبادل التجاري للفينيقيين في الجزائر. وربما تكون قد وجدت بعض الخطط المتناثرة.

يرى البعض أنه كان محظوظاً إشعال النار على السفن القرطاجية. وكان يجب إلقاء المرساة كل مساءً لتحضير وجة ساخنة على الأقل كل أربع وعشرين ساعة. وكانت هذه الطريقة متتبعة في بعض خطوط الملاحة، ولكنها كانت حتماً غير مريحة وطويلة جداً بالنسبة للرحلات البعيدة.

كان الساحل الجزائري إذاً يستقبل في مرافأه السفن المحملة بالبضائع الثقيلة والتي كانت تتوجه بشكل بطيء نحو غربى حوض المتوسط، بينما كانت المراكب الشراعية السريعة تنقل على الطرق المباشرة في عرض البحر المسافرين والأشياء الثمينة والسلع الغذائية السريعة التلف.

ويمكن القول أن هاتين الوسائلتين في الإبحار تقابلهما في عصرنا هذا القطارات السريعة والقطارات البطيئة.

## الفصل الحادي والثلاثون التوسيع والرحلات الكثيرة

حوالي القرن الخامس قبل الميلاد عرف الفينيقيون الغربيون (القرطاجيون) عصراً كبيراً من التوسيع.

### ● هملكون... والبحث عن العنبر:

أرسل هملكون من قرطاجة في رحلة طويلة للبحث عن العنبر في البحر الباردة شمالي المحيط الأطلسي. بعد الانطلاق من قرطاجة واحتياز أعمدة هرقل الجبهة الرحلة شمالاً.

الواقع أنه لم يبق عن هذه الرحلة سوى حكاية مختصرة راسخة بشكل أجزاء من رسالة في نص المؤرخ الروماني «أفينوس Avienus» الذي يقول فيه:

«كان القرطاجيون يملكون قديماً فيما بعد أعمدة هرقل العديد من المدن والأبراج. وبالتجاه الغرب، كما يقول هملكون يوجد البحر الهائج. لذلك لم يغامر أحد بإقامة أي بناء فوق هذا البحر الذي لاحدود له والذي تصطدم أمواجه بعيداً باليابسة... هذا ما رأه هملكون القرطاجي بأم عينيه، وأنا أروي حسب المخلويات القديمة لقرطاجة...».

ثم يصف «أفينوس» شعيراً يعيش في شمال أوروبا. إنه الشعب البريطاني الساكن في شبه جزيرة «Cornouailles» أو الشعب الفينيقي في خليج «Morbihan». وهو يتحدث عنهم بهذه العبارات:

«...إنهم يبحرون البحر في مراكبهم. هذه المراكب التي لم تصنع من خشب الصنوبر أو التوب وإنما صنعت من الجلود. ويستغرق الإنسان يومين إذا أراد الذهاب من هناك (Cornouailles) في السفينة حتى الجزيرة المقدسة، كما كانت تسمى قديماً، (وهي على الأرجح إيرلندا) والتي تحمل مساحة كبيرة في البحر وتعبر مقر الشعب الإيسيري. وتقع جزيرة Albions جانباً وهي التي زارها هملكون قديماً لمدة أربعة شهور...».

ويقول «بلينيوس» من جهة أن الفينيقيين وصلوا حتى المحيط الجرماني. أما العالم

«Herren» فيفترض أنهم دخلوا إلى بحر البلطيق. ومؤخراً اكتشف عالم الآثار «Schliemann» فلائد من العبر داخل القبور الفينيقية وأجرى عليها تحاليل لكي يعرف مصدرها فلم تكن سوى عبر البلطيق. وإن هذا العبر الذي انتشر فيما بعد في الشرق وفي شمال أفريقيا حيث يندر وجوده، من المحتمل أن يكون القرطاجيون قد دخلوه إلى هذه المناطق.

### ● رحلة نيمخو البحريّة... ورأس الرجاء الصالح:

يذكر هيرودوت في الفصل الرابع من تاريخه أن أحدهم قد روى له أن بعض البحارة الذين كلفتهم «نيمخو» فرعون مصر في القرن السابع قبل الميلاد بالإبحار حول أفريقيا انطلقوا عبر البحر الأحمر ليدوروا حول الجزء الجنوبي من أفريقيا. هيرودوت نفسه يقول أنه لا يعتقد بهذه الرحلات الشيء لأنها كانت تميل إلى الأساطورة أكثر مما تميل إلى الواقع<sup>(\*)</sup>.

### ● رحلة حنون البحريّة:

تعتبر رحلة حنون القرطاجي في استكشاف غرب أفريقيا حدثاً كبيراً. ورغم أن الأسباب الظاهرية لهذه الرحلة كانت اكتشاف جغرافية السواحل الغربية لأفريقيا، فلا بد أن حنون كان يبحث قبل كل شيء إن كان هناك من سهل للتوصل عن طريق البحر إلى مصادر الذهب الأفريقية. ولذا سوف نعرض إلى رحلة حنون هذه لدى بحثنا في طريق الذهب فيما بعد.

(\*) أغلب الدراسات الحديثة تعتبر أن رحلة الدوران حول أفريقيا كانت حقيقة ومتينة، لا بل أنها ربما كانت عادلة لدى المقارنة مع عملية عبور الأطلسي من قبل الفينيقيين.

انظر: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. فيليب حتى الجزء الأول ص 108 طبعة بيروت 1958. ثم: Karthago (الوارد ذكره في مطلع الفصل الخامس والعشرين) الطبعة الألمانية عن الأصل الفرنسي..... Sergio Pernigotti: Phoenizier und Stuttgart, 1983. P. 235 - 236 وأيضاً...  
Die Phoenizier. P. 528

I Fenici "Mailand" (Hoffmann und Campe) Hamburg, 1988.  
- المحقق - 1988"

## الفصل الثاني والثلاثون

### الحروب البونية

إن موضوع بحثي بالأساس هو تحديد إسهامات الفينيقيين في المضمار الكورنوية وطرق الملاحة الكبيرة التي شفواها في أعلى البحر. ولهذا كنت قد عزمت على الابتعاد عن مجرى الأحداث التاريخية الذي، ويا للأسف.. تيز العارك الحربية أكثر مما يؤكد على المنجزات السلمية. ولكن يدلولي أن الحروب البونية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصيرورة قرطاجة، مما يحتم علينا ألا نهملها.

لقد أشرت بالذكر فيما سبق كيف أن نجاح الرأسماليين وأصحاب السفن في قرطاجة قد جلب عليهم الحسد. وبالتالي فإن حماية مصالحهم، وبالخصوص احتكار المعادن الأساسية، كان يجرهم على الدفاع عن طرق ملاحمهم الساحلية التي كانت دوماً مهددة.

ولأن روما في توسيع دائرة نفوذها أكثر فأكثر كانت تأخذ بالمثل القائل: (الاقتصاد يحادي السياسة)، كما يقال عادة في الخطاب الانتخابية. وكانت روما تشعر بأنها مهددة من قبل القواعد القرطاجية القوية التي تحبط بها من كل الجهات في سردينيا وصقلية ومالطة وعلى طول ساحل أفريقيا الشمالي. ولذلك كانت أهداف الحرب البونية الأولى بالنسبة لروما أن تبعد الأخطر المباشرة التي بدأ متاخمة لها. وعندهما انتهت الحرب البونية الأولى في سنة 241 قبل الميلاد أخرجت روما القرطاجيين بشكل نهائي من سردينيا وصقلية والجزر الإيونية، وكانت بذلك نهاية السيطرة القرطاجية في البحر المتوسط. لكن البونيين احتفظوا بـراكتزم في أندلسيا وأفريقيا. وكان يردهم دائماً بواسطة مرکز قادس القصدير من «Cornouailles» والفضة من ترشيش. إن المعاهدة التي انتهت بمحاجتها الحرب البونية الأولى كانت قد قسمت مناطق النفوذ داخل شبه الجزيرة الإيبيرية. وقبلت قرطاجة بما تحدّد لها من مناطق نفوذ في إسبانيا. إلا أنه بالرغم من هذه الاتفاقية التي وقعت في سنة 219 قبل الميلاد استولى هانين على «Sagonte» وهي مستعمرة هامة في إسبانيا وحلقة لروما.

بعد ذلك بفترة قصيرة (سنة 218) تحركت روما من جديد معلنة الحرب البونية الثانية. وكان ذلك بأن أرسلت إلى قرطاجة وفداً رسمياً من أجل المفاوض. وكان مجلس الشيوخ القرطاجي أثناءها متربداً في اتخاذ قرار، فما كان من رئيس الوفد الروماني المفاوض إلا أن رفع بيده دليل ردائه وصرخ أمام المجلس القرطاجي: «إني أحمل هنا السلام أو الحرب»، فاختاروا أيهما شئتم!...» فأجاب أعضاء المجلس القرطاجي: «اختر أنت!...» فاختار المعمouth الروماني الحرب.

وكانت حملة هانينيل الأسطورية، التي قاوم فيها غارات الإيبيريين والترشيشيين المتواصلة دون أن يكترث بالمناوشات التي كان يواجهها بين الحين والآخر مع جنوده المرتزقة.

لكن «بوبليوس سيبينون Publius Scipion» ومن ثم ولده «كورنيليوس» تمكناً من التقدم في إيبيريا واسترجاع «ساجونت Sagont». وأسر في المعركة هسلروبل برقا أنحو هانينيل<sup>(\*)</sup>. ثم اجتاز الرومان إسبانيا كلها حتى الأطلسي واستولوا على ترشيش ثم على قادس عام 206 قبل الميلاد.

خلال هذه المرحلة من الحروب قام هانينيل بذلك المغامرة الغامضة. إذ أنه في فترة كان الرومان فيها منشغلين بتعزيز احتلالاتهم الجديدة وتنظيم المقاطعات، وبידلاً من أن يدخل قرطاجة كما طلب منه مجلس الشيوخ اجتاز بجيشه (الذى كنا نعتقد أنه هزم وضعف عزيمته) جبال الإيبيريين وبلاد الغال وعبر نهر الرون مع جيشه وفياته فوق الطوقافات، ثم اجتاز هرات جبال الألب ونفذ إلى سهل الدُّبو Po وخاص من سلسلة من المعارك توغل خلالها في إيطاليا باتجاه الجنوب.

(\*) أعتقد أن الأصح هو أن هسلروبل (ويرد أحياناً آزروبل) أتحا هانينيل لم يؤمر بل أنه عندما ثبت له خسارة المعركة قاتل بطريقة انتقامية حتى سقط قتيلاً وسلامه بيده. وهذا ما ورد في مصادر عديدة استندت إلى كتاب رومان.

أنظر على سبيل المثال: Woerterbuch der Antike. P. 275, Stuttgart 1988.  
جورج مصروعة: هانينيل. الجزء الأول ص 521 و 523. 1960 / 1959 .  
فرانساوا ديكريه: قرطاجة أو أمبراطورية البحر:

في الترجمة العربية لـ: عو الدين أحمد عزو. ص 199. الأهالي 1996  
تم المرجع السابق (في مامش الفصل السابق): Die Phoenizier :

Giovanni Brizzi, Hannibals Expedition, P.67.

وتقول هذه المصادر أن الرومان أحضروا رأسه المقطوع وقدفوا به أمام أخيه هانينيل وهو في معسكره بإيطاليا - المحقق -

كانت فكرته كما يبدو هي أن يدخل قرطاجة ليس عن طريق البحر وإنما عن طريق البر، مجتازاً بشكل مباشر إيطاليا كلها، وأن يهزم العدو في عقر داره محتلاً عاصمته.

إن هذه الخطة الخريعة، أو هذا الرهان الذي كان يبدو أنه يتحدى كل القواعد الخريية القدิمة، كان لابد له أن يتحقق، ولكن هناك مدينة «كابوا Capua» ومدناتها، ويرجح أن هانييبل الشرقي قد وجد ولأول مرة بعد سنوات من الحملات العسكرية القاسية البيعة التي كان يتوق إليها<sup>(\*)</sup>.

اتهت هذه الحملة في الواقع بتأثير حقيقة، وهي إبحار جيوشه مع كل عتاده وحيواناته على سفن استطاعت أن تقلع رغم حمولتها من سواحل البلد الذي كان في صراع معه.

أما الرومان الذين كان لديهم الوقت لأن يستردوا أنفاسهم فقد قرروا أن يهاجموا عدوهم فوق أرضه. ودخل «سيبيون الأفريقي» الأراضي القرطاجية. وفي سنة 202 قبل الميلاد انتصر في معركة «زاما» الشهيرة.

هناك أمر بهذا الصدد يدعى إلى الدهشة، ففي نهاية حرب ثانية شديدة الضراوة رأى القرطاجيون الذين هزموا على أرضهم أن الرومان قد تركوا لهم فرصة للبقاء من جديد. إن معاهدة السلام لم تفعل شيئاً سوى أنها أفرت بالانتصارات العسكرية للروماني على إسبانيا وترشيش. وهكذا كان لقرطاجة كل الحق في أن تحافظ على كيانها. أما روما فرغم كل تعهداتها كانت تشجع تمردات القبائل الأفريقية.

لكن بالرغم من هذا الوضع الذي لا يطاق عرفت قرطاجة ولادة جديدة، مبرهنة مرة أخرى عن شدة الأساس.

وفي عام 149 قبل الميلاد تذرعت روما بأول حجة جاءتها لتلقي بنفسها في الحرب البونية الثالثة. وكانت تلك حرب الفتاء التي سجلت فيها قرطاجة صموداً بطوليًّا. كان الجنود الرومان مضطرين للمقاتل في المدينة شارعاً بشارع ومنزلًا منزل. وانتشر الفيلان في قرطاجة وتشتت السكان وولى هانييبل هاريًّا وذلك لم يكن معهوداً بالنسبة

(\*) يخصوص إقامة جيش هانييبل في «كابوا» وتأثيرات هذه الإقامة سليمة على مجرى الحرب يمكن الرجوع إلى جورج مصروحة في كتاب «هانييبل» الجزء الأول ص 436 - 437. ومن المعروف عند الباحثين في تاريخ قرطاجة أن فشل حملة هانييبل الإيطالية له أسباب جوهرية متعددة. ومع ذلك فالإقامة في شاء تلك السنة في كابوا بترت في واجهة تلك الأسباب .. المحقق ..

للتقاليد القرطاجية القديمة التي تجعل الاتجاه العكسي في النار<sup>(٤)</sup>. إن موقفه يدعوه للاعتقاد أن هذا المحارب المشهور، الذي ربما كان دمه غريباً أكثر منه شرقياً، لابد أنه انساق وراء عمل لإرادي، مغربي أكثر منه فنيقي. وبهذا الصدد أود أن أذكر على سبيل المثال بعض رؤساء قبائل الأوراس أو الأطلس الذين فضلوا أثناء الحملات الفرنسية أن يذهبوا ليموتون من الألم والجوع متزعين في كهوف على أن يقبلوا بالهزيمة.

---

(٤) ربما كان الاختصار الشديد لهذا الموضوع الهام وتقديمه بشكل تخفيفي سهلة وسريعة هو الذي سبب بعض الارتباك في المعلومات والاضطراب في التسلسل التاريخي عند المؤلف. فالمعروف من خلال كل المصادر التي ذكرتها في الموسوعة السابقة ومصادر أخرى غيرها أن هانيبل أولاً: لم يول هارباً كما تقول هذه العبارة، وثانياً: لم يكن خروجه من قرطاجة بعد سنة 149 خلال حرب الإيادة هذه، بل أنه كان منذ سنة 195 قبل الميلاد قد غادر قرطاجة إلى سوريا عندما أحسن بأن خصوصه في الدولة القرطاجية نفسها بمحاباه تسليمه للروماني، وفي وقت لاحق غادر سوريا أيضاً وتولع عند ملك «بيشتباه»، ولما أحسن أن الرومان ماصرون في ملاحقة وطلبوا من ملك «بيشتباه» تسليميه أيضاً ففضل الموت بنفسه فتناول سقاً كان يحمله، وذلك في سنة 183، أي قبل احتلال الرومان قرطاجة بأكثر من ثلاثين عاماً. انظر المراجع السابقة .. الحقن ..

## الفصل الثالث والثلاثون

### البقاء أو «بعد زوال قرطاجة»

لقد دمر الرومان قرطاجة تماماً، ولكنهم لم يفلحوا في تحطيم وإزالة الروح البوانية التي عاشت في شمال أفريقيا وبقيت آثارها حتى يومنا هذا متمثلة في أمور عديدة منها اللباس والخليل والحرف والتقنيات الزراعية التي ابتكرها «ماجون» وبعض أشكال السلوك أو بعض المعتقدات أيضاً.

وفي بداية العصر المسيحي وبالرغم من كل الجهود التي بذلها الرومان لإسدال الستار على أولئك المهزومين القدماء (القرطاجيين) فقد استمرت حضارة وشكل من أشكال الفنون بحيث دعامت هذه الفترة بالبوانية الجديدة. وكانت حينذاك لاتزال تقدم القرابين للإلهة تعنيت، ولكن هذه القرابين لم تكن من الأطفال بل من الشيران والطبيور. وتبرهن لنا بعض المسلاط التي اكتشفت في تونس أن البرير الذين كانوا مضطربين لأن يسلّموا بالآلهة الرومان بقوا يتركون أمكنة الصداراة في أعلى المسلاط للإلهة تعنيت وحتى للثالوث الفينيقي أيضاً: بعل - عشتروت - ملقارب. وهذا بعد ثلاث أو أربع مائة سنة من زوال دولة قرطاجة.

وحتى القرن الثالث الميلادي كان الحكم الرومان لشمال أفريقيا (قرطاجة سابقاً) يحملون اللقب الفينيقي (شوفاط) بلفظه اللاتينية «Sufes» أو أي «قاضي قرطاجة». كما كان على القديس أوغسطين، بعد ستة قرون من خراب قرطاجة، أن يلقي مواعظه أو خطبه باللغة البوانية ليوضح للناس ما يريد أن يقول عندما كان يمارس تعليم الدين في منطقة «هيبيون» (Hippon) التي تسمى اليوم «بوبن». وهناك أمور كثيرة أخرى يصعب عدها، فرولا لم تستطع إطلاقاً أن تمحو عند سكان الشمال الأفريقي ذكرى قرطاجة والأفكار التي جاءتهم بها من الشرق وكل أشكال الأعمال الحسنة، والآلهة أيضاً، التي كان لديهم متسع من الوقت لعبادتها. هنا وإن نزعة الخين إلى الوطن بالنسبة للمجتمعات الشرقية تجعلنا ندرك بشكل أفضل مدى السرعة التسيبة التي تقبل فيها المغاربة وخاصة التونسيون الإسلام واستيطان العرب، وفيما بعد استيطان الترك.

## ● وفي القرن العشرين:

خلال هذا القرن الحالي أصبحت تونس، التي تعد خليفة قرطاجة، بلداً اجتمع فيه الدقة الشرقية والعلقانية الفينيقية المغامرة وبأس الأفارقة والتصوف وشعور الإسلام وبعض النرجيلات وبعض الوجوه المشورية (وهذا من التراث التركي)، والكل ممزوج بالثقافة الفرنسية. ومن فرنسيي اللغة هؤلاء كانت تونس الحديثة تريد أن تشكل (دون التخلّي عن اللغة العربية) منتدى عالمياً كبيراً مؤلفاً من مئة وستين مليون عضواً، والكل يتفق حول فكر موحد يقوم على الاستقلالية والتمييز.

إن العثور على آثار قرطاجة في تونس البيضاء والحديثة يشكل متعة كبيرة بالنسبة للباحثين. وفي متحف باردو أول ما يسترعى الانتباه هو تلك المسلاط التي تصور الإلهة تعنیت، وتلك الجواهر المصنوعة من عجينة زجاجية وهي أول شكل من أشكال الخلقي المقلدة. وتتمثل غالباً وجوهاً بشريّة ساخرة أو صوراً هزلية يرجح أنها صور بعض النماذج العادية لسكان قرطاجة، والتي لها أشكال تبعث على الضحك.

ويجدر بنا طبعاً أن نحاول مشاهدة موقع قرطاجة القديمة، فما علينا إلا أن نذهب إلى هناك بالقطار الصغير عند طلوع الفجر، ذلك القطار الصغير الذي ييدو وكأنه يسير فوق البحيرة الشاطئية، مثلما سار المسيح فوق المياه. ولا بد من رؤية الشمس وهي تشرق من وراء الجبل المقدس لدى القرطاجيين، وتذهب - مثلما ذهب تشرشل - ل تستجم في موقع زاما.

هناك جادة عريضة تتجه نحو مركز قرطاجة القديمة الذي كان يحيط به سور يحمي المعابد والقصور وخاصة حي الأعمال «بيرمسا» الذي حول اليوم إلى حدائق وفيلات هادئة. وليس بعيداً عن تونس وفي آخر رأس يون لا بد من مشاهدة تلك المقالع الضخمة التي انتزعت منها حجارة قرطاجة على مر الزمن. وهناك أيضاً «قرقوان» تلك القرية البونية الكبيرة التي اشتهرت بمنازلها ذات الحمامات الإفرادية.

أضف إلى هذا أن تونس اليوم بقيت بلداً قائماً على بورجوازية ريفية متينة يعيش أفرادها في ضياع وليسوا متفرقين في الأرياف. وقد أطلق عبد العزيز إدريس على حضارتهم اسم «حضارة الضياع». وإن كان فينيقيو الغرب قد تركوا لنا دلائل تبين تمسكاً بالأرض ونجاحاً في الزراعة لا يضاهي، كان أحد أسبابه قرب الأرضي الخصبة، فقد ساعدتهم أيضاً في سعيهم وراء الثراء موقعهم الجغرافي الذي أمن لهم الاتصال مع طريق الذهب الأسطوري الذي يعبر الصحاري.

الجزء الرابع

**مع فينيقيي الغرب**

**على طريق الذهب**



## الفصل الرابع والثلاثون

### عبر الصحاري

### طريق الذهب العزي

يبدو أن القرطاجيين سعوا منذ بداية استيطانهم في شمال أفريقيا إلى الاتصال بجنوبها عبر القاطن المؤدية إلى طريق الذهب.

إن كتابات المؤرخين القدماء بالإضافة إلى الشيء المتناقل والتقوش الصخرية في الصحراء تجعلنا نفترض أنه كان يوجد منذ عهود قديمة جداً طريق يمر عبر الصحراء من وإلى أماكن الذهب. والمفترض أيضاً أن عربات تجرها الحيوان كانت تعبّر هذا الطريق، إذ أن ظهور العربات يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد<sup>(\*)</sup>.

#### ● الجرميون:

هذه العربات التي استخدمت في الصحراء كان يقوم بصنعها شعب أسطوري (الأنملق عنه معلومات واضحة) يدعى أفراده بـ «الجرميون». وكان عبارة عن جماعات قبائلية أفريقية جاءت من جنوب إفريقيا طرابلس وكانت قد احتكرت وسائل النقل العابرة لأفريقيا.

كانت خطوط سيرهم تبدأ من ساحل البحر المتوسط وجنوب تونس لتلتقي كما يبدو في «جarama» عاصمة الجرميون وتدعى اليوم «جزما» ولابد أن العربات المنطلقة من «جزما» مجذارة مضائق الـ «تبستي Tibesti» كانت تصل إلى مرتفعات الـ «تسيللي Tassili» خلال أسبوعين.

ومن هناك كانت قواقل الجرميون تسلك طريقين مختلفين: أحدهما باتجاه الصحراء الغربية ونهر السنغال والثاني صوب الجنوب باتجاه بحيرة تشاد والنيل. أما فيما يتعلق باتجاه الثاني فالامر غير مؤكد تماماً لأن التقوش الصخرية التي تشير إلى العربات غير متوفرة في هذا الاتجاه، وعلى العكس فكلما اقتربنا من الغرب كثرت الدلالات على

(\*) لا بل أن العربات كانت معروفة ومستخدمة منذ الألف الثاني. ويكتفي أن نعرف أن المفهوم في أوج قوتها خلال القرن الرابع عشر ق.م. استخدمو العربة القتالية في حروبهم. انظر أيضاً الماشية التالية - الحقق -

وجود العربات. ولابد أنه كان يوجد لجماعات الهرميين فرع هام على حدود الصحراء. وفي هذه المنطقة أيضاً يبدو أنه كان يوجد طريق للعربات باتجاه الجنوب يلتقي بالطريق الآتية من الشرق في أنحاء موريتانيا الحالية وليس بعيداً عن نهر السنغال.

وتظهر لنا العربات منقوشة على الصخور يجرها حصانان أو أربعة، كما هو الحال بالنسبة لعربات الهكسوس<sup>(\*)</sup> أو تلك التي استخدمها الرومان. ولكن يمكن هنا أن نتساءل كيف كانوا يؤمدون الماء لشرب الخيول أثناء عبور الطريق الصحراوي الطويل؟... لو أن هذه المشكلة وجدت في أيامنا هذه لكانت متعددة الحال. ولكن كل الدلائل تشير إلى أنه في ذلك العصر - قبل 3000 سنة - كانت الصحراء الأفريقية أكثر رطوبة وحياة من اليوم. وهذا ما تبين في الدراسات الكثيرة التي قمت خلال السنوات الأخيرة.

إن مجموعة الرسوم والتقوش الصخرية الموجودة في مرتفعات «ناسيلي» بالقرب من «جانيت Djanet» والتي كشفتها للعالم أعمال الباحث «هنري لوت Henri Lotte» تبرهن على أنه في ذلك العصر كانت توجد أنهار ومناطق خضراء ومراع كانت تسرح فيها قطعان هائلة من المواشي. ويدو أن مصادر المياه كانت كثيرة وبالتالي فإن تأمين العلف والماء للخيول لم يكن يعتبر مشكلة.

ويرجح أن هذه العربات كانت تنقل باتجاه الجنوب المنتجات المصنوعة والأقمشة وعجينة الزجاج (أو الأدوات الزجاجية) الآتية من حوض البحر المتوسط. وفي الاتجاه المعاكس كانت العربات تجلب دون شك من أفريقيا السوداء مسحوق الذهب والماعاج وبعض الأخشاب الثمينة والصاغ، وربما أيضاً اليد العاملة من أجل الصناعة وعدا عن ذلك المرتزقة من أجل المزروع.

وللحتمكن من احتكار الاستيراد والتصدير كان على فينيقي قرطاجة أن يبتعوا أقدامهم قدر الإمكان في جنوب تونس وطرابلس حيث وجدت من جهة أخرى آثار واضحة تدل على تلك السياسة التجارية.

### ● طرابلس:

كانت منطقة طرابلس الغرب قدّيماً منطقة وصول القوافل حيث يتم تبادل البضائع

(\*) هذا ينافق مرة أخرى ماذكره المؤلف في مطلع هذا الفصل (الخاشية السابقة) من أن ظهور العربات كان في الألف الأول قبل الميلاد، لأن الهكسوس الذين استخدمو العربات كانت سيطرتهم على مصر ما بين القرنين الثامن عشر والسادس عشر قبل الميلاد.

المستوردة مع البضائع الأفريقية. ففي البلاد نفسها كانت توجد طيور النعام التي كانت تربى من أجل بريضها وريشها. وكان بعض النعام يستعمل في تزيين مداخل البيوت الفينيقية واليونانية. والبيضة نفسها بشكلها الجميل كانت تحفل ومزأة. وقد اعتبروا أن لوجود البعض قرب أبواب المنازل أثره الحسن في إبعاد «العين الشريرة أو الحاسدة». ليس هذا فحسب، وإنما لزيادة الأثر السحري في البعض كان الفينيقيون يرسمون على قشوره صورة عين بواسطة صباغ الحناء والأرجوان<sup>(\*)</sup>.

وفي الكثير من الواقع القرطاجية بمنطقة البحر المتوسط تم العثور على بريض النعام مرسوماً عليه صورة العين التي تطور أسلوبها مع الزمن.

لقد أنشئت المراكز التجارية في طرابلس الغرب على يد القرطاجيين حوالي القرن السادس قبل الميلاد في مناطق يرجع أنه كانت فيها لسفن فينيقي الشرقي موانئ بسيطة قبل ذلك.

كانت هناك ثلاث مناطق متقاربة في تلك الناحية الغربية من شمال أفريقيا وهي: «صبراتا Sabratha» و«ليتيس Leptis» و«أويا Oea».

ويقول الشاعر «سيليوس إيتاليكوس Silius Italicus» أن «صبراتا» و«ليتيس» قد احتلها الصوريون أما «أويا» فقد احتلها المهاجرون القادمون من صقلية والذين انضموا إلى ذلك «إيليميين». وأمام التهديد المتمثل بالإغريق المستوطنين في إقليم «كيرينه Kyrene» كان القرطاجيون مضطرين لتحويل مراكزهم التجارية البسيطة إلى مراكز تجارية/ حربية قوية بشكل فعلي. وقد ثبت ذلك من خلال التحريات الأثرية والأشياء القديمة التي اكتشفت مؤخراً في منطقة «ليتيس ماجنا Leptis Magna» في القبور اليونانية تحت المسرح والتي تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

ولكي يتجنب القرطاجيون في طرابلس حصول أي خلاف أو مواجهة عسكرية مع إغريق إقليم «كيرينه» سعوا إلى إقامة حد بشكل ثابت ونهائي بين مناطق النفوذ الإغريقية والقرطاجية في هذا الجزء من أفريقيا.

وبهذا الصدد تروي قصة غريبة، هي قصة الأحنة «فيليennes Philenes» الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية التحديد وتقسم الأراضي في تلك الناحية الصحراوية الشاسعة

(\*) من المعروف أن معتقدات من هذا النوع لازالت تلاحظ استمراريتها في البلاد السورية عند بعض أولئك الذين تعتبرهم البسطاء من الناس، إذ يلتجأ البعض للكتابة على بيضة مفرغة بقصد إبعاد الشر عن إنسان أو حيوان أو نبات أو غير ذلك - المحقق -

التي تمتد بين طرابلس وكيرينه. وذلك لأن اتفق الطرفان (القرطاجيون والإغريق) على أن يطلق كل منهما عدائين من عاصمه و تكون نقطة تلاقي العدائين الأربع هي المد الفاصل بين منطقتي النفوذ.

وسواء أكان القرطاجيون حاذقين في تنفيذ العملية أو كان الأخوة «فيليته» عدائين أقوياء فإن النتيجة أسفرت عن نقطة التقاء تبعد ثلثي المسافة عن قرطاجة وثلاثها فقط عن «كيرينه» احتاج الإغريق على هذه النتيجة مؤكدين أنه لابد أن يكون هناك خداع في العملية. واقترحوا عند ذلك أنهم يقبلون بالنتيجة وبالخداع الذي وصل إليه القرطاجيون إذا قبل الأخوة «فيليته» بأن يدفنوا أنفسهم أحياء ليبرهنوا على حسن نواياهم ويرأتهم من الخداع.

وقبل الأخوة بذلك على الفور.

اختفى على مر السنين نصب تذكاري كان قد أقيم تخليداً ذكرى تلك الشجاعة والتضحية الوطنية. ولكن الموقع ظل يدعى بعد ذلك «Arae Philenorum» بمعنى - ساحة الأخوة فيليته - وبقي المد الأكبر رسمياً بين طرابلس الغرب وكيرينه.

### ● صبراتا:

في صبراتا وفوق أنقاض المباني القرطاجية قام الرومان ببناء مدينة فسيحة وفخمة. وبعد المسرح بأعمدته البالغة القدم أروع مثال على الفن المعماري الروماني. وكما في كل المدن الأخرى في هذا الجزء من إفريقيا فإن المباني البيزنطية قد طفت على قسم من الطبقات الأثرية الرومانية.

من المدينة القديمة ومن خلال الأعمدة يمكن للمرء أن يرى على بعد حوالي 200 إلى 300 متراً من الشاطئ الرملي سلسلة من الصخور التي تحمل زيد الأمواج يتدفق دائماً في مكان واحد. وبالواقع فإن ذلك ليس صخوراً حقيقة أو طبيعية، وإنما هي بقايا من السد القديم الذي بناه القرطاجيون في مياه البحر ثم أجري الرومان عليه بعض التحسينات. وكانت الغاية منه حماية المرفأ.

أما من جهة الداخل فإن صبراتا ليست بعيدة عن الصحراء المواجهة لها والتي تجتمع أمام أسوار المدينة رمالها المدومة باستمرار.

### ● طرابلس:

لقد أصبحت طرابلس - وهي مدينة (أويا Oea) القديمة - العاصمة الحديثة للدولة

اللبية المعاصرة. وهي مدينة كبيرة مصممة بشكل جيد، وكثيرة النشاط حيث أن فيها خليطاً من السكان متعدد الجنسيات. فنجد رجال أعمال من لندن وبخارية من اليونان ونبلاع إيطاليين وليبيين متعددين من جماعات الجرميين (الذين سبق ذكرهم). هذا وإن عائدات البترول قد ساعدت بشكل جيد على رفع المستوى المادي في هذه الدولة.

### ● «لبيتس ماجنا :Leptis Magna

هي المدينة الأكثر عظمة في ذلك الزمن بين كل المدن الواقعة في أفريقيا الشمالية (طبعاً باستثناء قرطاجة). وكان موقعها المنعزل ما بين الصحراء والبحر يزيد من عظمتها.

وربما كان من أهم أسباب فخامتها أنها مسقط رأس **(سيپتيمیوس سيفیروس Septimius Severus)** الذي حكم الإمبراطورية الرومانية ما بين 193 و 211 ميلادية، وقد أحب هذه المدينة منذ طفولته. وكانت لهذا الإمبراطور زوجة لا تكلم إلا باللغة البوئية (القرطاجية) وأما اللاتينية فكانت تتكلّمها بشكل سيء. ويعرف عنه أن كان فخوراً بأصله وسعياً بعاثاته ذات الطبائع والعادات الشرقية والتي كانت من جمّتها تحس بالإستغراب إزاء النظام الصارم السائد في قصر الإمبراطور الروماني.

في تلك المدينة لاحظت وجود العديد من النقوش القرطاجية، ولكن ما أدهشتني هو فكرة ازدواجية اللغة (اللاتينية إلى جانب القرطاجية)، إذ يشعر المرء رغم الأهمية الخاصة للأحرف اللاتينية أن هناك نوعاً من التنازع من قبل السيطرة الرومانية لمصلحة اللغة البوئية. ومن المعروف أن خراب قرطاجة قد سبق حكم **(سيپتيمیوس سيفیروس)** بعدة قرون. ومع ذلك لم يكن يروق للروماني تعلق الفلاحين الليبيين وهو من أصول بربرية بلغة تلك المدينة الكبيرة التي زالت فيما بعد. وقد تم كشف الرمال عن آثارها في العشرينات من هذا القرن.

### ● تراجع الطريق البري للذهب:

لابد أن الجاف التدريجي لمنطقة الصحراء، الذي كان موضوع جدل في الأوساط العلمية، قد أرداد بشكل فطلي منذ القرن الخامس قبل الميلاد. وهناك ما يدعوه لاعتقاد جازم بأن الجرميين قد واجهوا صعوبات كثيرة في إرسال قوافلهم عبر الصحراء التي كانت قد بدأت تأخذ شكلها الحالي القاحل، وبالتالي فإن أرباحهم وتکاليف النقل كانت ترتفع أكثر فأكثر.

وهذا مدفع بالقرطاجيين إلى البحث عن الذهب عبر الطريق الساحلي المباشر مفتتحين بذلك خط ملاحة حول المغرب وأفريقيا.  
وهناك أيضاً نجد تفسير الاستكشاف الذي قام به حتون القرطاجي. فاعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد أصبح افتتاح طريق الذهب الساحلي والإبقاء عليه ضرورة ملحة بالنسبة لقرطاجة.

ولكن... ماذا كان مصير الجرميين؟...  
الأرجح أنهم تخلوا عن عرباتهم شيئاً فشيئاً. وعندما ظهرت في المغرب أولى الجمال الآتية من الجزيرة العربية قبل ميلاد المسيح يزمن قصیر استائف الجرميون خطوط سيرهم التي لم ينسوها، وباستخدام الجمال خدت هذه الطرق طرق القوافل والهجرات الصحراوية الكبيرة.

## الفصل الخامس والثلاثون

### رحلة حنون البحريّة

حدثت في الربع الأول من القرن الخامس قبل الميلاد مائة دونت في سجلات الاستكشاف البحري تحت عنوان «رحلة حنون البحريّة»<sup>(\*)</sup>.

ومن المفترض أن عائلة حنون ظهرت فيها سلسلة من الشخصيات البارزة شغلت مناصب في الدولة القرطاجية عدا عن الأميرال حنون الذي اشتهر من خلال هذه الرحلة.

كانت أحداث هذه الرحلة قد نقشت في معبد ملقارت في قرطاجة ولكن لسوء الحظ هُدم المعبد مثلما هُدمت قرطاجة نفسها.

والمعلومات التي وصلتنا عن هذه الرحلة مأخوذة بالواقع عن نص يوناني دونه بعض الناسخين اليونان.

ولكن النص اليوناني رغم التفاصيل التي يحتويها يلاحظ فيه بعض الفموض والعبارات المثيرة للتساؤل. وهذا يعود لسبعين: الأول هو أن الفموض في بعض الأماكن قد يكون سببه أخطاء الناسخين. والثاني هو أن نقص الوضوح والتفاصيل قد يكون سببه هو أن التقرير الأصلي الذي قدمه حنون عن رحلته كان معظمها مدوناً في أسرار الدولة لأسباب اقتصادية واستراتيجية، بحيث يمكن القول أن الغايات الفعلية لهذه الرحلة (ألا وهي البحث عن مصادر الذهب) لم يكن من الممكن إعلانها رسمياً، وأن أجزاء التقرير التي دونت في المعبد وال المتعلقة بوصف أحداث الرحلة وأخطارها قد بالغوا فيها من أجل الإيحاء بالرعب وإبعاد المنافسين. وهو أمر عرف عن القرطاجيين في رحلاتهم الأطلسية.

وقد جاءت أخبار الرحلة حسب النص اليوناني مرتبة في فقرات قصيرة ومتسللة على الشكل التالي:

«... إنها قصة الرحلة الطويلة التي قام بها حنون ملك القرطاجيين في بلاد نيبا،

(\*) ولكن أغلب المصادر ترى أن هذه الرحلة كانت في القرن السادس قبل الميلاد وليس الخامس، وتترجم تجديداً سنة 530 ق.م - المحق -

خارج أعمدة هرقل، والتي نقشها على صخرة في معبد كرونوس (الذي هو معبد ملقارب).

1 - قرر القرطاجيون أن يبحرون بعيداً عن أعمدة هرقل ويتوجهون مستعمرات فينيقية - أفريقيا. عندئذ أبحرت سفن ستون سفينة حاملة على ظهرها حوالي ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء ومؤنًا وتجهيزات ضرورية.

2 - وبعد أن أبحروا مدة يومين فيما وراء أعمدة هرقل قام بتأسيس أول مدينة وسميت حينئذ «ثيمياثيريون». وكانت تشرف على سهل واسع.

3 - ولدى إبحارنا باتجاه الغرب وصلنا إلى «سولويس Soloeis» وهو رأس ساحلي في ليبيا مغطى بالأشجار. وقد أنشأنا هناك معبداً باسم الإله «بوسيدون».

4 - وبعد أن أبحروا باتجاه الشرق مدة نصف يوم بلغنا بحيرة تبعد قليلاً عن ساحل البحر ومحاطة بالأعشاب الطويلة التي كانت تتغذى بها بعض الفيلة وحيوانات أخرى متوجضة.

5 - خلال يوم كامل من الإبحار وصلنا إلى ساحل أنشأنا عليه خمس مدن جديدة وهي: «كاريكون تايخوس Karikon - Teichos» - «غيته Gyte» - «أكرا Akra» - «مليتا Melitta» - «أرامبيس Arambys».

6 - ثم تابعنا طريقنا فوصلنا إلى نهر «ليكسوس Lixus» العريض الذي ينبع من ليبيا. وعلى مسافة منه رأينا بعض البدو الرحل الذين يعرفون باسم «ليكسيت Lixites» تقدمهم قطعانهم. مكثنا عندهم بعض الوقت وأصبحت بيننا وبينهم مودة.

7 - في داخل البلاد مناطق مليئة بالحيوانات التوحشة النائمة وفيها جبال شاهقة. ويعيش هناك سكان الليسيون لا يستقبلون الغرباء. ويزعمون أن نهر «ليكسوس» يجري من هذه المنطقة، وأنه في قلب تلك الجبال تسكن جماعات تدعى بالـ «تروغلوديتين Troglodytes» أفرادها لهم أشكال غريبة ويستطيعون - كما روى لنا الليسيون - أن يسابقوا المخرب في الركض.

8 - وبعد أن اصطحبنا معنا بعض المترجمين من بدو الليسيت أبحرنا مدة يومين باتجاه الجنوب بمواجهة ساحل مقفر ولدى إبحارنا يوماً آخر باتجاه الشرق مررنا بجزيرة صغيرة على طرف أحد الخليجان. أقمنا هناك منشأة وأسميناها «كرنة Kerne». وقدرنا لدى رجوعنا إلى خط سير الرحلة أننا أصبحنا بمواجهة قرطاجة، حيث أن الرحلة من

قرطاجة إلى أعمدة هرقل كانت تبدو أنها تقارب الراحلة التي قطعناها من أعمدة هرقل إلى «كرنة» Kerne.

9 - من هنا أبحرنا أمام نهر يدعى «كريتس Chretes» وبلغنا بحيرة توجد فيها ثلاث جزر أكبر مساحة من جزيرة «كرنة».

ولما استأنفنا الإبحار لمنة يوم وصلنا إلى طرف البحيرة التي يشرف عليها جبل شاهق يسكنه أناس متواضعون يرتدون جلود الحيوانات، وقد قذفونا بالحجارة ومنعونا من الاقتراب والرسو.

10 - من هناك تابعنا الإبحار أيضاً فبلغنا نهراً آخر كبيراً ومليناً بالتماسيح وأفواس النهر. عندئذ عدنا إلى جزيرة «كرنة».

11 - ثم أبحرنا باتجاه الجنوب مدة اثنى عشر يوماً بمواجهة الساحل الذي كان مكتظاً بالإثيوبيين. وكانوا يهربون لدى رؤيتنا. ولنفهم غير مفهومة حتى بالنسبة للمترجمين الليكسيتين الذين كانوا معنا.

12 - وفي اليوم الأخير رسونا بالقرب من جبال شامخة مكسوة بأشجار تفوح من أنسابها رائحة زكية.

13 - أبحرنا في تلك الأันحاء مدة يومين فوصلنا إلى خليج كبير كان باستطاعتنا أن نرى على شواطئه عند حلول الظلام نيرانا كبيرة وأخرى أصغر تشتعل في كل الأحياء بالتناوب.

14 - بعد أن أخذنا حاجتنا من المياه أبحرنا عندئذ مدة خمسة أيام بواجهة السواحل حتى بلغنا خليجاً كبيراً كان يسميه مترجمونا «قرن الغرب» وكانت توجد في هذا الخليج جزيرة كبيرة فيها بحيرة مالحة، وفي البحيرة أيضاً جزيرة أخرى صغيرة. خلال النهار لم يكن بإمكاننا أن نرى سوى غابة. لكن عندما أقبل الليل رأينا نيرانا مشتعلة في كل الأحياء وسمعا صياماً عالياً فانتابنا الرعب وقررنا أن نغادر تلك الجزيرة.

15 - عندئذ أبحرنا بسرعة كبيرة ونحن نطوف حول ساحل موحش كانت تبعث منه رائحة البخور. وكانت سيول من النار والحمم تتشعر وتتدلى حتى البحر وكانت هذه البلاد لا يمكن مقاربتها بسبب الحرارة.

16 - وغادرنا هذه المنطقة بسرعة كبيرة ونحن نشعر بالرهبة وأبحرنا أيضاً مدة أربعة

أيام. ثم رأينا منطقة في الليل تشتعل النيران في كل أرجائها وفي الوسط كانت توجد نار أعلى مما حولها من النيران بدت لنا وكأنها تلامس النجوم. وأما في النهار فكنا نرى جبلاً مرتفعاً وعرفنا أنهم يسمونه «عربة الآلهة».

17 - استأنفنا الإبحار مدة ثلاثة أيام مجاذبين ذلك المكان الذي تسيل فيه الحمم الخطيرة. وبلغنا خليجاً يدعونه «قرن الجنوب».

18 - في أقصى هذا الخليج كانت توجد جزيرة أخرى مليئة بالقرود من بينها عدد كبير من الإناث ذات الأجسام المكسوة بشعر كثيف سماها مترجمونا الغوريلات وقد حاولنا للحاق بهذه القرود ولكننا لم نستطع الإمساك بأي قرد ذكر إذ أنهم كانوا معتادين على تسلق الأرض الوعرة. وهرروا وهم يقدروننا بالحجارة كي لا نلحق بهم، ولكننا أمسكنا بثلاث إناث أخذن يدافعن بشراسة عن أنفسهن بالأسنان والأظافر ويحاولن الإفلات. عندئذ قتلناهن وسلمتنا جلودهن وأنحدناها معنا إلى قرطاجة، وكنا حينذاك قد توقفنا عن متابعة الإبحار لتنفيذ مأمورتنا وشرعنا في رحلة العودة...».

إن هذا النص الذي تلوق فيه بلا جدال نكهة مغامرة حقيقة بالرغم من طابعه الأسطوري، قد كان موضوعاً للعديد من التأويلات. وبشكل إجمالي لنقل أنه قد وجدت تأويلات مختصرة وتأويلات موسعة. إن خصوم حنون يعتبرون أنه لم يتجاوز سواحل المغرب. أما المتحمسون له فهم مقتدون بأنه بلغ سواحل الكاميرون. ومعظم الباحثين للنص بشكل عام يرون أنه على كل حال قد بلغ نهر السنغال.

لنجاول أن نحدد النقاط الرئيسية لخط رحلته بالرجوع إلى الافتراضات الأكثر شيوعاً.

في الجهة الجنوبية من مضيق جبل طارق تقع المستعمرة الأولى في المغرب ليس بعيداً عن القنيطرة الحالية، وفي المهدية التي تطل على سهل واسع يدعى سهل الغرب. أما الرأس المسمى «سولوييس Soloëis» - في الفقرة الثالثة - فربما يكون هو الرأس الأبيض الذي تحول اليوم إلى شاطئ صخري مقفر، لكنه كان على الأرجح مكسوباً بالأشجار قديماً.

وأما البحيرة الخاطئة بالأعشاب الطويلة والتي ستكون فيما بعد موضع نقاش فقد تكون إحدى البحيرات الشاطئية الواقعة على الساحل المغربي.

وأما المدن الخامس فلا بد أن تتطابق على المراكز التجارية الموزعة على طول الساحل المغربي وحتى موريطانيا. ويفترض أن إحدى هذه المدن مماثلة للمنشأة التي كانت فوق

جزيرة موغادر والتي كانت بالتأكيد أحد المراكز التجارية البوئية الأكثر نشاطاً على الساحل.

ومن الجدير بالذكر - لأولئك الذين يعرفون المغرب جيداً - أن من بين الأسماء التي ذكرها حنون اسم «أكرا»، ولكن في المغرب عدة مواقع تحمل اسم «أكرا»، أحدها قريب جداً من المناطق التي تعني بحثنا، أي على مقربة من المحيط الأطلسي، وهو مركز يقع بالنشاط، ويعتبر سوقاً للجملان. ويقع قريباً من وادي الدراج ويقصده كبار رعاة المورس. وهذا ما يشجع على الاعتقاد أن النهر المعنى «ليكسوس Lixus» ربما كان هو وادي الدراج وأن الرعاة الـ «ليكسيتين» هم رعاة المورس الذين مازالوا حتى اليوم يحببون تلك الأنحاء. وقد ذكر تقرير حنون حينذاك أن بعضًا من هؤلاء الـ «ليكسيتين» رافقوهم على سفنهما وعملوا كمرشددين لهم ومترجمين. ولاغرابة في ذلك لأن كبار الرعاة الذين كانوا في الصحراء الغربية قد لعبوا دائماً دور الوسطاء بين إفريقيا السوداء وأفريقيا البيضاء.

ولكن من كان يا ترى ساكنو الكهوف هؤلاء، الذين يعيشون في الجبال الغربية من منابع نهر «ليكسوس»؟....

إذا صح أن نهر «ليكسوس» هو بالفعل وادي الدراج الحالي، فإننا نجد في الواقع على المجرى العلوي لهذا النهر وفي المروف الصخري هناك كهوفاً قديمة لا بد أنه كان يسكنها أسلاف البربر.

وبعد إبحار حنون ومن معه على طول تلك السواحل المفترضة دخل في خليج وجد فيه جزيرة صغيرة - في الفقرة 8 - وهناك بالحقيقة ثلاثة جزر يمكن أن تكون إحداها هي الموصوفة: الأولى هي جزيرة «تيدرا Tydra» في جنوب خليج «ليفري Levrier» والثانية جزيرة «سان لويس Saint Louis» الواقعة عند مصب نهر السنغال، والى الجنوب قليلاً جزيرة «غوري Goree» على بعد بضعة مئات من الأمتار عن «داداكار Dakar». وعليه فإن هناك احتمالاً كبيراً أن تكون جزيرة «كرنة Kerne» الواردة عند حنون هي جزيرة «غوري Goree» الحالية الواقعة بين مصب نهر غامبيا ومصب نهر السنغال. ولا بد أن الساحل في ذلك المكان ظهر لهم على شكل خليج واسع.

في هذه المرحلة من الرحلة (أو التقرير) تكون قد بلغنا منطقة أسرار الدولة (كما ذكرنا في بداية الفصل). فإذا مضينا في نهر السنغال المعروف باسم «كريتس Chretes»، وإذا ما أخذنا برواية حنون، فإننا نجد أن ذلك البلد الجبلي ورافد النهر الذي نصادفه في

طريقنا ينطويان على نهر «Pademe» وعلى بلاد «Bambouk» الشهيرة المعروفة ببلاد مناجم الذهب الأسطورية. ومن هنا تستنتج أن هذه البلاد كانت تذخر ثروات هامة، حيث أن حتون يقدم لنا وصفاً للاستقبال الذي لاقاه والذي يمكن أن يُرَهَب كل الذين حاولوا رجها تقليده.

وبعد تلك البلاد يأتي ذكر النهر المليء بالثمامسح وأفراس النهر والذي يتطابق تماماً مع نهر «Gambia».

ثم أنه في الفقرات 12 و 13 و 14 من النص اليوناني نجد أوصافاً مطابقة لشبه جزيرة «Casamance - Cap - Vert» أو لسواحل «Casamance».

لكن المسافات المبينة من خلال ذكر أيام الإبحار ليست مطابقة أبداً وهذا ربما يكون ناتجاً عن تشويه أو تحريف في النص وتحلل تعرض إليه الترتيب الزمني للفقرات. أما بالنسبة لسيول النيران المتدفعقة التي شوهدت وهي تغوص في البحر فقد تكون نيران الأدغال أو صورة مبالغ فيها لوصف المناخ. إن الذين يذهبون إلى خليج «Benin» عندما يخيم الهدوء المطلق وتشتد الحرارة يدركون أن المرء يشعر وكأنه يستنشق النار. أما فيما يتعلق بالجبل المسمى «عربة الآلهة» فقد يكون نسبة إلى البركان الوحيد الشائر في تلك المنطقة والذي يدعى اليوم جبل الكاميرون. وأخيراً، وفي نهاية هذا الوصف، هناك غنيمة الصيد: فماذا عن الغوريلات التي تدافع عن نفسها بهذه الشراسة؟.. لا بد أنها كانت بالنسبة لhtonon ومرافقه البرهان البين عن المخاطر التي تعرضوا لها، وبعيارات أخرى الدليل القاطع على أهمية استكشافهم، وهناك شواهد أخرى تدل على أن الجلود التي جلبها حتون معه قد عرضت في معبد ملقارب (كرتونوس) في قرطاجة.

ويشكل عام هناك أخيراً أمر هام تجدر الإشارة إليه. إذ تقول لنا هذه القصة أن ثلاثة ألفاً من الرجال والنساء من أصل «الليبي - فينيقي» قد أبحروا على سفينتين في بداية الرحلة. والمقصود به «الليبي - الفينيقي» ذلك الجنس البشري المخاص بقرطاجة والذي كان يتألف من أفرادين وشقيقين. إذا لا بد أن يكون هؤلاء الناس (المرافقون في الرحلة) بغالبيتهم من دم ببردي (من قبائل البربر) وإذا ذلك ليس من العجيب أن يندمج أحفادهم شيئاً فشيئاً مع سكان السواحل الشمالية الغربية لأفريقيا حيث كانوا في الواقع من أفرادائهم، وهذا ما يمكن أن يفسر انتشارهم التدريجي على مر الزمن.

## الفصل السادس والثلاثون

### إيبيزا «Ibiza» قاعدة عسكرية قرطاجية

قام فينيقيو المغرب بتأسيس هذه القاعدة العسكرية «إيبيزا Ibiza» بعد مئة وستين عاماً من تأسيس قرطاجة وأعطوها اسم «إيزيم / إيوسيم Ibosim» ثم صار شكل الاسم فيما بعد حسبما دونه الكتاب اليونان الرومان: «إيوسوس Ebusus».

تقع جزيرة «إيبيزا» في أقصى جنوب الباليدار. وقد كتب ديدور الصقلي في تحديد موقعها: «... إنها تبعد ثلاثة أيام بلياليها إبحاراً عن أعمدة هرقل ومسافة يوم عن البحر الإيبيري ومسافة يوم وليلة عن ليبيا - أي أفريقيا ...».

كما يصف ديدور المدينة بمنازلها الكبيرة ذات البناء الجيد وبأسوارها العالية ومينائها.

وتشرف المدينة اليوم على قسم كبير من المبناه الحمي بشكل جيد، وتتصعد طرقاتها على منحدرات هضبة مرتفعة تدخل ضمن مخطط المدينة الفينيقية. ويبدو أن إيبيزا لم تتعرض إطلاقاً لدمار كامل، وبذلك تعتبر مدينة فينيقية حقيقة لم تفت بها الحروب والأحقاد بعكس ماحصل لكل من صور وقرطاجة. ويفترض أن المدينة قد حافظت على معالمها الأساسية الأولى طيلة خمسة وعشرين قرناً دون أن يطرأ عليها تغير ملحوظ. وقد أظهر تشابك الأزقة والسلام والأروقة والطرق المسدودة بيوتاً يرقى معظمها إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي ولكنها دون أدنى شك بيت فوق أنس البيوت الفينيقية القديمة.

ظللت المدينة القديمة محمية بأسوار تعود بقدمها إلى بضعة قرون فقط ولكنها ليست إلا ترميناً لأسوار فينيقية أقدم منها مع زيادة في ارتفاعها. وتلك الأسوار الفينيقية أثبتت فعاليتها خلال الحرب البونية الثانية حيث أن «سيبون» كان قد حاصر المدينة عقب دخول القرطاجيين إلى إسبانيا، دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها.

وفي هذا الصدد يقدم ديدور الصقلي تفاصيل أخرى عما كانت عليه إيبيزا في القرن الثالث قبل الميلاد فيقول:

«... عندما لم يتمكن سبيون من احتلال المدينة قام بهب الحقول والمنازل الريفية، ويقال أن غنائمه من أعمال النهب هذه فاقت غنائمه من قرطاجة...». أما اليوم فقد اختلفت الأحوال بالطبع في حقول إيسيرا... إنها تبدو لنا أقل نضارة مما وصفه ديودور. ومع ذلك نرى فيها عدة موارد من بعض الزراعات والكروم وأشجار الخرنوب والزيتون.

وكانت الزراعة المنظمة لأشجار الزيتون قد دخلت تلك الجزيرة على يد الفينيقيين الذين ابتكرروا تعليم الأشجار البرية كما برع أهل قرطاجة في هذا المجال، ويدعى لهم حوض البحر المتوسط بأكمله بالفضل في هذا النوع منأشجار الزيتون الشديدة الصلابة والمقاومة.

التشرت الزراعة على هضاب كثيرة الأودية وموشأة بمزارع ذات جمال طبيعي بسيط. وقد تصادف هنا وهناك فلاحات وقد ارتدت بنائير على شكل زهرة اللوتس المقلوبة حسب التقاليد الشرقية.

وتزين النساء بذلك الخلي القديمة في أيام الأعياد والأعراس ومناسبات أخرى، وهذه الخلي ذات طابع شرقي قديم عبارة عن لائى وإبريمات مفرغة ومذهبة تعلق بواسطة سلسل صغيرة تقطع الصدر من الكتف إلى الكتف الآخر بشبه واقية فعلية من الذهب. وهذه المجوهرات هي غالباً ذات تصفيح أو طلاء بالذهب. والإبريمات كلها مفرغة وغالباً على شكل مخروط مزدوج. كما توجد قطع أخرى ترسنية على السلسل على خط الفتائل المعدنية وغيرها.

وتتشابه هذه الخلي تماماً مع تلك التي أوجدها ونشرها القرطاجيون في كل أنحاء حوض البحر المتوسط. ومن جهة أخرى فإن هذه العادات من السالميل التي تحملها النساء في جزيرة إيسيرا هذه الأيام تشبه تماماً تلك التي شاهدتها لدى النساء في تونس معلقة على جانبي الوجه. أما الفلاحون المقدمون في السن فتشاهد على رؤوسهم كما في سردينيا قلسسة البحارة الفينيقيين المصنوعة من الصوف والخنيث إلى الأمام أو إلى الجانب.

لقد بقى التأثير الفينيقي خالداً في الجزيرة، إذ نجد أن التجمع الثقافي الأكثر أهمية في إيسيرا أطلقت عليه تسمية «تعنيت»، وهي أعلى مكان في المدينة، وتحديداً في المتحف القديم يوجد في صدر المكان تمثال نصفي يدعى «تعنيت»، ويعتقد أنه في الواقع تمثال للإلهة «ديميتر» يعود تاريخه إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، وهو

العصر الذي كانت فيه عبادة ربة المحاصيل والمزروعات «ديميترو» منتشرة كثيراً في قرطاجة.

وإن هذا التمثال النصفي المصنوع من الطين المشوي هو في الواقع «مبخرة» ويزد من حوافها العليا فوق رأس الإلهة قرن الخصب. كما نجد بالطبع في هذا التحف - وهو أكثر التماثف التي زرتها على الطرق البحرية الفينيقية إثارة - نجدة فيه ذواقيب صنعت من الرجاج وجرار، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة من الطين المشوي يطلق عليها موظفو المتحف بهمجتهم اسم «رجال الثلج». وهي تماثيل صغيرة معمرة تتراوح أطوالها بين 13 و 18 سنتيمتراً وتتمثل بشرأ من الجنسين بأعضاء جنسية بارزة، مما يدفع للإعتقد أن تكون هذه التماثيل قد كرست لعبادة ما يرجح أن لها علاقة بالخصب.

ومن المفروض أن تكون هذه التماثيل من إنجاز فنان محللي، لأنها لأن ظهر علاقة بأي تقليد فني معروف.

ويعتقد أنه كان في «إيبيرا» معبد للإلهة تعنيت. ولكن من المؤكد وجود معبد مخصص للآلهة رشف وملقارب في نفس الوقت. والشيء الذي يثبت ذلك هو وجود لوحة نقش عليه الإهداء (التلتر) عشر عليه في مقارة قرية جداً من إيبيرا. وقد كتب هذا النقش بأحرف فينية تستنتج من خلالها أن تاريخ تأسيس المعبد يعود إلى حوالي القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. ويقول النقش: «إلى سيدنا رشف - ملقارب. هذا المعبد الذي ندره من أمر ابن ي آلس ابن ب رج د ابن إشمون هيل...».

فوق الهضاب القرية من القلعة لم يتم التنقيب بشكل كامل عن المقبرة الكبيرة البوئية التي توجد تحت الأرض<sup>(1)</sup> وبالنظر إلى عدد سراديب الدفن وأهميتها نستطيع القول أن إيبيرا كانت بالتأكيد إحدى أهم المنشآت القرطاجية في البحر المتوسط.

توجّث إقامتى في إيبيرا باختلاطات هامة مشمرة وخاصة مع شباب التجمع الثقافي «تعنيت» الذين كانوا يجتمعون مساءً ليناقشوا الأغاني والألحان القدية في المجزرة. وقد وجدت في بعض هذه الألحان التأكيد على الحنين إلى الشرق. لكن الطابع المسيطر هو طابع القرن الثامن عشر الإسباني.

كما حالفتى الحظ بمقابلة السيد «Isidoro Macabich» وهو عالم إيبيري كبير كما يقول أهل المدينة باحترام.

(1) التل الذي توجد فيه المقبرة يسمى «بوبخ الطواحن» يعني ذلك بوضوح - بالنسبة لللاح من جبال البرية الشرقية - «جبال الطواحن».

وبالنسبة له تعتبر إبيزا «عارضه» القرطاجيين في البحر المتوسط الغربي وقاعدة بحرية  
كان يامكانهم أن يخربوا فيها أسطولاً مهدداً، ونقطة انطلاق للرحلات باتجاه «نوميديا»  
- شمال أفريقيا - أو باتجاه شبه الجزيرة الإيبيرية، بالإضافة إلى كونها ميناء منذ القرن  
الخامس قبل الميلاد على طريق الذهب الذي كانت له محطات أقل أهمية في أندلسيا  
- الأندلس.

## الفصل السابع والثلاثون

### أندلوسيا (الأندلس)

### وجود في كل مكان

في فترة انطلاق القرطاجيين الكبارى بين القرنين السابع وال السادس قبل الميلاد حقق الوجود الفينيقي استقراراً على طول سواحل الأندرس المتوسطية. وقد عُرف عنهم أنهم أقاموا منشأة كل حوالي ثلاثة كيلومترات على هذه السواحل. ولكن التعريات الأثرية حتى الآن لم تؤكد إلا على بعض هذه المنشآت وهي: قرطاجنة و«موجاكار Mojácar» و«ريال دي فيرا Real de Vera» و«المونيكار Almunecar» التي كانت تدحرى في ذلك الوقت «سكنسي Sexy» وأخيراً «كرتيا Carteya» التي تقع على مضيق جبل طارق.

وقد ركزت جهودي في البحث على الموقعين الأقل شهرة وهما «موجاكار» و«كرتيا»، ذلك لأنني اكتشفت فيما الصفحات الأكثر أهمية في كتاب قرطاجة الكبير.

في منتصف الطريق بين قرطاجنة وألميريا Almeria توجد مجموعة من المواقع ذات أهمية خاصة. ولا بد أن تكون هذه المنطقة قد سكنت منذ ما قبل التاريخ، إذ يرى المرء على الشواطئ الصخرية عدداً لا يستهان به من الكهوف. وتظهر مقابر فينيقية على مرتفع صغير وسط السهول. ومن غرائب الصدف أنه على بعد حوالي 200 متر من هذا الموقع تتصبب على الجبل الفيلا التي كان يقيم فيها القائد لويس سيريت Louis Siret الذي كرس جزءاً كبيراً من حياته للماضي الفينيقي في إسبانيا وهو الذي قال لوزير إسباني من هيئة التفتيش:

«سيدي الوزير... إذا رغبت بأجمل متحف في العالم... فما عليك إلا أن تقطعي التسعين كيلومتراً التي تفصل قرطاجنة عن Almeria بسفف كبير...». كان علي فيما بعد أن أثبتت من أن «سيريت» كان محقاً فيما قاله. على الشاطئ القريب من تلك المنطقة كنت قد لاحظت وجود أشكال من الحمم المعدنية. وقد روى لي أحدهم قصة غريبة بهذا الصدد قائلاً:

= كان يوجد سابقاً منجم حديد يستغله القرطاجيون. وكانت سفنهم ترسو على طول الرصيف العائم مما ساعدهم على تحمل المعدن. ولكن ذات يوم كان عليهم أن يغادروا البلاد، ولكن لا يتركوا المنجم عرضة لاستغلال مزاحمين لهم، يقال أنهم أقاموا بعض شعائر اللعنات وحدروا السكان قائلين أن من يقترب من المنجم سيموت حرقاً بنار إله الشمس. واستمر هذا الاعتقاد الموهوم عند الناس طيلة عدة قرون لم يستند خلالها أحد من المنجم إطلاقاً إلى أن جاء اليوم الذي غدت فيه أفكار التطور التقني والصناعي موضع اهتمام وعناية بدفع من «Primo de Rivera» وذلك بين عامي 1925 - 1930. وقد قررت إسبانيا أن تبدأ من جديد وبواسطة الوسائل الحديثة بالاستفادة من منجم القرطاجيين القديم هذا.

في اليوم الذي بدأ فيه تشغيل أهل البلد لوحظت عندهم قلة الحماس للذهاب إلى ذلك المنجم الملعون. ومع ذلك بدأت الحفارات والرافعات والمطارق عملها الصاحب. ولكن ذات يوم، وفي اللحظة التي بلغت فيها إحدى فرق العمل دهليزاً جديداً انفجر من الأرض دفع هائل من السخاف وغمر المنجم على الفور بسيول حارقة من جيب مائي كان قد انفجر من قلب الأرض. وقد هلك الكثير من الرجال في هذه الكارثة =.

و ضمن إطار مأساوي مكون من المواد المهملة والمعارض الملوية، وراء جبال من الحمم المعدنية القديمة، استطاعت أن أرى تلك البحيرة الكبيرة الملونة بلون الصدأ، والتي ترمز إلى انتقام آلهة الفينيقيين. وفي الجهة الأخرى من الوادي الروسي كان يتظاروني اكتشاف أكثر [ثار]: فوق بروز صخري مرتفع يطل على المكان الذي يفترض أنه كان خليجاً فيما مضى، تربض قرية متواضعة تدعى «Mojacar». يترقب أن يكون قد وجد في ذلك المكان مركز للعراقية ويرجع لإعطاء الإشارات وربما أيضاً حصن منيع للقرطاجيين رغم أن التحريات الأثرية لم تثبت ذلك حتى الآن. ولكن موقع هذه القرية بالحقيقة يتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة إذ يشرف على البحر من جهة وعلى داخل البلاد من جهة أخرى.

وما يروى عن هذه القرية جدير بالذكر. إذ يقال أنها بنيت على يد العرب - البربر الذين أقاموا في الأندلس طيلة سبعة قرون. وقد حافظت القرية من جهة أخرى على مظاهرها مثل قرية من قرى البربر التي نصادفها في جبال المغرب، فلها نفس الأبواب المنخفضة ذات المسامير الكبيرة، ونفس الأقواف ونفس مطارق الأبواب ونفس المجردان. وإنما التوسع الإسباني الكبير، عندما احتل من جديد الملك فرديناند والملكة الكاثوليكية إيزابيل في عام 1492 المنطقة وأقاموا معسكراً لهم في «Real de Vera» -

التي يعود أصولها لذلك الحدث التاريخي - أرسل سكان «موجاكار» المسلمين وقدأ  
يطلب البقاء في إسبانيا والسماح لهم بالإقامة في منازلهم محفوظين بأعرافهم مع  
بقائهم أو فياء للدين الإسلامي.

ويقال أن إيزابيل قامت باقتحام فرديناند بقبول ولاء المسلمين مع احترام المطالب التي  
تقدموها بها. وبذلك بقيت «موجاكار» حتى يومنا هذا جزءاً فعلياً من إفريقيا الشمالية  
على الأرض الإسبانية. وغدا سكانها على مر القرون كاثوليكاؤ ولكنهم حافظوا في  
نفس الوقت على التقاليد الإسلامية الأندلسية. وما زالوا ينسجون في الورشات القدية  
أغطية وشالات مغربية وتذهب الفتيات إلى النبع وقد ارتدن تنانير طويلة واسعة  
ووُضعت الواحدة منهم على رأسها متديلاً عوضت على طرفه بستانها فسررت بذلك  
تصف الوجه. وتذكرنا الجرار التي يحملنها على رؤوسهن بالشكل المستدير للجرار  
القرطاجية. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما رأيت على واجهات المنازل رسماً سحرياً  
واقياً مطلياً بالقطران على جوانبه المكلاسة. وهذا الرسم لم يكن إلا رمز الإلاهة تعنيت.  
لقد قادت قرطاجة على أرض الأندلس الرومان ثم العرب وإسبانيا المسيحية.

### ● كرتيا (Cartaya):

في الجهة المواجهة لمدينة طنجة في قلب خليج صغير على ساحل شبه الجزيرة  
الإيبيرية كانت تحمل مدينة «كرتيا» - أو قرطاجة الصغيرة - موقعًا فريدًا في العالم حيث  
تجمعت زوايا الرؤية بين البحر والمحيط وقارتين في آن واحد.

يقال أن هذه المدينة بناها اليونيون. ثم احتلها الرومان خلال تطور الأحداث  
المعروف. ولكن المدينة، التي يعتقد أنها كانت غنية، وجد قسم كبير منها مهدمةً  
 حوالي القرن الرابع الميلادي، وذلك إثر كارثة طبيعية سجلتها المؤرخون الالاتين. إذ يقال  
أن مياه البحر تراجعت وجف الخليج وبعد فترة قصيرة عادت الأمواج من جديد  
وجرفت إعصار شديد كل شيء في طريقه.

وبما أن «كرتيا» كانت قد شيدت على منحدر هضبة فإنه بإمكاننا رغم كل شيء  
أن نرى بقايا الأحياء الأكثر ارتفاعاً.

لقد كان هذا المركز التجاري مزدهراً إلى أن حل به ذلك الحزاب. ويبدو أن المصدر  
الرئيسي من مصادر ثروة هذا المركز كان نوعاً من أنواع الصلصة تعتبر أصلًاً لـ  
«الكتشب Ketchup» المعروف حالياً. وقد رويت لي القصة الطريفة لاكتشاف هذه  
الصلصة كما يلي: بينما كانت مصلحة التنقيبات الأثرية الإسبانية تقوم بالحفر في

إحدى المناطق عثرت على برميل غطته قشرة سميكه من الملتح والرمل، وهي البقايا الملموسة لكارثة الموج العالي، وبعد رفع هذه القشرة ظهرت طبقة متصلبة تشبه الاسفلت، وقد اعتقد البعض بذلك أنهم وصلوا إلى قعر البرميل، وبعثر شديد تم بواسطة المغول كسر قطعة من هذه المادة التي أجري عليها تحليل مبدئي في مدرسة ومن ثم في مخبر خاص في موسكو. وقد بينت نتائج التحليل بوضوح أن محتوى البرميل كان مادة متحجرة مكوناتها الأساسية نباتية وحيوانية. وبمقارنة هذا الاكتشاف مع النصوص القديمة استطاعوا أن يحددوا أن هذه المادة عبارة عن صلصة، كانت حتى العصر الروماني لا زال مطلوبة كثيراً في كل أنحاء البحر المتوسط. وتدعى صلصلة الـ «غاروم» (garum).

وكانت مكونة بشكل أساسي من نوع خاص من السمك أو الصدف (يقال عنه اليوم فاكهة البحر). كان هذا السمك يملح ويطلق بالزيت وبهرس ثم يحضر بأشكال مختلفة ذات تركيز خفيف ومنذق متتنوع ناتج عن مزيج من التوابيل والبهارات وأحياناً من زيت الزيتون والبنادرة.

ويبدو أنه كانت هناك إيرادات كبيرة من هذا الـ «غاروم» الذي كان يباع في جرار مختومة حسب المذاق مع وضع ماركة الصناعة عليها.

ومنذ مدة ليست طويلة تم بالفعل العثور على حطام سفينة حربية شراعية على السواحل الفرنسية الجنوبيّة وكانت فيها حمولة من الجرار المملوحة بهذا الـ «غاروم» تحمل اختاماً ماركة مصنع «كرتيه».

والمنزل الصغير الذي أقيمت فيه حلال هذه المرحلة من أبحاثي والذي يدعى *Venta los Remos* الواقع في الجهة المقابلة تماماً لحقل التنقيبات، كانت صاحبته تصنع كل يوم نفس الوجبة لعائلتها وزلاائفها. وأعترف بأن مذاق تلك الشرائح الريفية التي كانت تعدّها قد أغubiّني. وكانت في معظم الأحيان مرقة بصلصة شهية سمراء محمرة كانت السيدة ترفض البوح بطريقة تحضيرها. وربما كانت تصنع الـ «غاروم» نفسه من دون أن تدري.

## الفصل الثامن والثلاثون المغرب وأرجوان «Getulie»

أشار «غوتير» (Gautier) في كتابه الشهير «ماضي أفريقيا الشمالية» إلى الوصف الغريب لأعمدة هرقل الذي دونه مؤرخ عربي.

في موقع يبدو مطابقاً لموقع طنجة يقال أنه كانت توجد «ثلاثة تماثيل، أحمر وأخضر وأسود» والتي اختفت منذ ذلك الحين، وكان أحدها يحمل على صدره هذا النقش الذي ترويه الأساطير العربية:

«صنبعد أيرهه ذو المنال الحميري لإله الشمس لليل حظوة لديه». ثُرى من كان أيرهه ذو المنال؟... الحميري؟... أو الرجل الأحمر؟... ربما كان مجرد رجل فنيقي، حيث أننا نعرف حسب بعض المصادر العلاقة المبنية التي كانت قائمة بين الحميريين والفينيقيين.

ويحمل أن الفينيقيين وصلوا إلى مناطق محددة من سواحل المغرب في عصر حديث نسبياً، وذلك بين القرنين الثاني عشر والسابع قبل الميلاد، لكن الحميريين الذين قدموا مباشرة من حدود المزيرة العربية والخليج الفارسي<sup>(\*)</sup> ربما كانوا قد سبقوهم. وتتحدث الروايات المتناثلة في كل أنحاء المغرب تقريباً عن هجرات قديمة جداً قدمت من الشرق. وقد توصلت إلى المصادر القديمة لهذه الروايات التي تتحدث عن تعمير المغرب، وتوصلت إلى الأرض المأهولة بالسكان، التي وجدتها في المغرب طليعة البحارة الفينيقيين.

وعلى ضوء الاكتشافات الأثرية والنصوص والروايات المحكمة تظهر لنا بلاد المغرب قديماً كما هي اليوم أرض التلاقي المثالي للشرق والغرب. وفي الواقع تجد في المغرب شواهد هامة تركها أهل الحضارة الأطلسية الذين يمكن أن نسميهم اختصاراً بالأطلسية.

فيما بين الرباط وتيذر في وادي بو ررق، بالموقع المسمى «نخيله»، تم العثور على

(\*) ارجع إلى مذكرة عن هذه المسألة في تقديم الكتاب.

نصيبين تذكاريين رسمت عليهما أشكال نصف دائرة متعاكبة ومترادفة مع خطوط متلوية توحي بأمواج البحر أو بخط سير الأفعى. وهذه الرسوم مألوفة على العديد من الآثار المغربية الأخرى على الهدب الأطلسي الأورو - أفريقي.

إذاً فقد كان المغرب، كما كانت جزر الكناري وبريطانيا وجزر الكورنوي وإيرلندا أرضًا للأطلسة قبل أن يكون أرضًا للشرقيين. لابد أن هذا الجنس البشري كان قليل الأهمية مكوناً من أنساب بسطاء هم من يقي على قيد الحياة من تلك القارة (المجيرة) الأطلسية الأسطورية الشهيرة التي يقال أنها عمرت في الأطلسي وانحضت. وربما لم تكون رواية أفلاطون الطريفة عن الـ «أطلانتيس (Atlantis)» هذه مجرد فكرة أفلاطونية وحسب، بل كان لها على الأرجح أساس من الصحة. وقد تكون إحدى الكوارث الجيولوجية الكبيرة نقطة البداية لهذه القصة الأسطورية.

ويفترض أن مهاجرين جاؤوا من الشرق كانوا قد ساهموا في هذا الإعمار الأول في البلاد المغربية.

ومن يسترعى الاهتمام هو ما يتجده في المغرب، كما هو الحال في كافة أنحاء أفريقيا الشمالية، من تشابك وتكامل مذهل بين النصوص القديمة وروايات المؤرخين العرب والروايات المحلية الشعبية التي حفظها المطلعون. إن من الأمور التي مازالت منتشرة هي الذكرى الحميرية المتعلقة بـ «الرجال الحمر» وال فكرة التي يحملها الكثير من البربر بأنهم متحدرون من الأصل الكتيري. وفي جنوب المغرب يبدو أن أفواجاً بشريّة متعاكبة أتت عبر الطريق الصحراوي القديم قد استقرت وتتجز منها العرق البربرى المغربي، وذلك بعد الإختلاطات الطويلة مع الأطلسة.

لقد كان المحيط الأطلسي المصعد الحقيقي والنهائي من جهة الغرب الذي أجبر القادمين على التوقف عن متابعة السير وراء الشمس. ولذلك يقال أنهم استقروا في كل القسم الجنوبي الغربي من المغرب على منحدرات جبال الأطلس الأعلى وأطلس الداخل. وربما تكون هجرات هؤلاء قد قتلت بهمدوء. وربما يكون بعضها أيضاً قد تم بشكل خطى حثيثة. وقد أبصرت من جهة أخرى أعمالاً مدهشة في أماكن عديدة.

في الجزء الجنوبي من المغرب ماين «تاغونيت» و«محاميد» أتيحت لي الفرصة أن أتحدث مع بعض الرجال الفقهاء الذين كانوا قد حفظوا عبر القرون روايات تتعلق ببعض الجوانب من تاريخ المسيح وداود.

وفي وسط جبال «بني» ييرز مرتفع صخري كلي يطل على «تاغونيت» لازال يسمى «جبل داود». وفوق هضبة مرتفعة وراء تلك الجبال توجد مواقع لم أعرف أكثر منها كآلية. ففي موقع شديد الجفا، حيث يشعر المرء أنه يتبين في مكانه بين حرارة الشمس والحرارة المبعثة من الأرض، توجد الملاحم من القبور التي تبعث على التصور أن كارثة حرارية وقعت هناك. أیكون قد هلك جيش من العطش والتعب فوق هذه الهضبة العالية؟.. لأحد يدري.. ومن الذي هلك يا ترى في هذا الموقع المنعزل الذي لا يرغب أي إنسان بالبقاء فيه؟.. فضلاً عن ذلك كيف يمكن تفسير وجود تلك النماذج من الأشخاص الآسيويين الذين نصادفهم اليوم متشردين في الجنوب الغربي من المغرب؟.. وفي تلك المنطقة الواقعة بين وادي السوس وأطلس الداخل نجد أن من بين كل عشرة أشخاص واحداً يحمل الملامة الآسيوية الشرقية - وجنتان بارزتان وعينان مغوليان - وكذلك كيف يمكننا تفسير وجود فولكلور وأغانٍ شبيهة بتلك التي نسمعها في آذربيجان في الوديان المرتفعة.

إذا لا يوجد في المغرب أصل أو جنس واحد وإنما تنوع كبير من السلالات أساسها العرق البربرى كما دعاه الرومان ثم العرب وبعدهم الفرنسيون. ومن جهة أخرى لو أخذنا أفراداً من هذه الجماعات السكانية المختلفة من الريف والأطلس الأوسط والأطلس الأعلى ووادي السوس، لأدركنا أنهم مختلفون تماماً من الناحية الفيزيولوجية رغم أنهم اكتسبوا بمرور الزمن صفات وسلوكاً اجتماعياً متشابهة تقريباً.

لهذه الأسباب كلها يمكننا أن نسلم بأن الفينيقيين ومن ثم القرطاجيين قد استقروا بالترحيب على السواحل المغربية ولم يعتبروا غرابة وإنما بثابة زوار أصدقاء يجملهم سحر الشرق. وكانوا مثلما كان البربر القدماء يعمدون بروحانية تقوم على عبادتي الشمس والخشب. وقد عثرت عند الحدود الجنوبية للمغرب على عدد كبير من النقوش المتعلقة بالشمس يعود تاريخها إلى ما قبل العهد الفينيقي. كما عثر بالقرب من مصاطب التضمحية في موقع مقدسة مختلفة على نقوش صخرية للبقرىات تثبت أنه في أقدم العصور كان الناس هناك يعتقدون فعلاً بأسطورة الثور مثلما كان الحال في كتعان وجزيرة كربت. إذا فقد وجد الفينيقيون الأوائل مناخاً مناسباً في المغرب. ويمكن أن يكونوا قد صنعوا لأنفسهم دون صعوبة مراقبة مضيق جبل طارق الحالي محكرين بذلك الملاحة في المحيط الأطلسي. ولم يكفل القرطاجيون عن تدحيم منشآتهم على جانب المضيق. وتبعد هذه الواقع على الساحل المغربي باللغة الأهمية.

## ● تطوان:

بالقرب من تطوان البيضاء الحالية وعلى بعد حوالي عشرة كيلومترات من ساحل البحر المتوسط تقع مدينة «تامودا» الصغيرة، وهي القاعدة الاستراتيجية لقرطاجيين، كما أنها تشرف على داخل مدينة طنجة وعلى الريف. ولابد أنها كانت قديماً مرفأً للسفن، حيث يمكن بالواقع أن نتبين بوضوح تعرجات مصب النهر الكبير القريب جداً والذي طمرته بمرور الزمن كومة من الرمال والطمي.

ليست لدينا معلومات كثيرة عن «تامودا» التي أصبحت فيما بعد قلعة رومانية صغيرة قبل أن ترى تطوان الشمس.

لو أتيح لقرطاجي اليوم أن يزور هذه المنطقة فإنه سيشفق حماً بتاريخ تطوان التي يعود تأسيسها إلى نهاية العهد العربي في إسبانيا وإعادة فتحها على يد فرديناند الأول.

خلال الربع الأخير من القرن الخامس عشر غادر مسلمو الأندلس جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية على شكل جماعات لكي يستقروا في المغرب فكانوا بذلك «الاجعي» ذلك العصر أو بمعبر آخر «جماعات المشردين» وربما كان عدد أولئك الذين رحلوا مائين الأربعينة والستمائة ألفاً، استقر عدد كبير منهم في فاس التي كانت في ذلك الوقت مدينة مشهورة واستقر آخرون في الرباط وطنجة. ولكن تطوان استقبلت العدد الأكبر من هؤلاء المهاجرين.

لقد أتوا إلى المغرب حاملين معهم التقاليد الراقية للمحاجة المدنية التي عاشها مسلمو إسبانيا. فقد حمل البناة والرسامون والموسيقيون معهم علمهم وتقاليدهم بالإضافة إلى أدوات العمار التي تسمح لهم بإعادة صنع تحف الحفص المنشوقة والسكنيات المطلية والمصايخ ذات الأشكال الهندسية الأنيقة التي كانت تمثل بهاء الفنون في كل من غرناطة وقرطبة.

وتعذر تطوان بالفعل المعهد الفني الكبير الذي ينبع بذلك الفن العربي وتلك الموسيقا الأندلسية اللذين تمسكت بهما العائلات القدية في تطوان. لقد عرف الفن الشرقي الذي ازدهر في المغرب وإسبانيا أحد أشكاله الأكثر نشاطاً في أقصى الغرب الإسلامي.

وعندما ننظر في خريطة إسبانية ندرك مباشرةً أن المناطق التي استوطن فيها العرب في الأندلس أطول فترة تتطابق إلى حد كبير مع المناطق التي استوطنها وعمرها فيما

سبق الفينيقيون والقرطاجيون. كما كانت توجد في هذه المنطقة من الجنوب الغربي الإيبيري مملكة «ترشيش» الأسطورية التي اتضح سابقاً وجود صلات متينة بينها وبين الشرق. إن الشعور الدائم بالحنين إلى الشرق في جنوب إسبانيا كما في شمال أفريقيا، كان دون شك مما سهل مهمة طارق بن زياد الذي فتح أندلسيا سنة 710 ميلادية على رأس بضعة آلاف من المغاربة. ويحتمل أن السفن التي استخدمها طارق بن زياد كانت شبيهة بذلك التي لايزال يستخدمها الصيادون في أنحاء تطوان. إنها قوارب كبيرة ذات كوثل وجذوچ ضامرين و تستطيع أن تقدم بواسطة شراع صغير مريح الشكل أو بواسطة مجاذيف. وهذه السفن شبيهة أيضاً بذلك التي زرها على المسلاط التذكارية القرطاجية، ليس لها دفة، ويوجهها مجذاف كبير ملتوى شبيه بالمجاذيف التي كان يصنعها الملحون القرطاجيون.

### ● طنجة:

يرتبط تاريخ طنجة بالميثولوجية القديمة التي تقول أنها بنيت على يد هرقل الذي، كما نعرف، لم يكن سوى ملقارت الفينيقي، وهذا يجعلنا ننسب هذه المدينة إلى أصل فينيقي.

إن موقع طنجة الأطلسي والمتوسطي في نفس الوقت ذو أهمية استراتيجية كبيرة. فقد ضمن الفينيقيون لأنفسهم نقطة حيوية للسيطرة على مضيق. وعلى مقربة من طنجة، مقابل الحيط الأطلسي، وفي مكان غير بعيد عن المغارة التي تزعم الأسطورة أن هرقل استراح فيها بعد عمله المضني في بناء الأعمدة (أي أعمدة هرقل)، يوجد المركز الصناعي المسمى «كوتاه Cota». وهو عبارة عن ورشة صناعية مهجورة منذ العهد الروماني كان قد أسسها القرطاجيون. وهذه الورشة (أو العمل) التي حافظت على معالمها بصورة جيدة تتيح لنا أن نتعرف على المراحل العملية في تعليب الأسماك خلال ذلك الزمن ومن المفروض أن عمليات صيد سمك الطون كانت نشطة على جانبي مضيق من جهة الأطلسي.

كان السمك بعد تنظيفه يغطس في أحواض من الماء المالح، ويحفظ على شكل طبقات بعد أن يضاف إليه الملح.

وخلالقة القول أنه قبل خمسة وعشرين أو ثلاثين قرناً من الزمان أسس أحد المعامل الكبيرى لتعليب الأسماك في المغرب الحالى، ربما على يد الفينيقيين، ولكن الأرجح على يد القرطاجيين.

اكتشفت حول مدينة طنجة عدة مقابر كبيرة يعود تاريخها إلى الألف الأول قبل الميلاد، وخلال كتابي لهذه السطور كانوا يكتشفون مقابر جديدة. وباعتقادي أن طنجة تتميز عن كل مدن المغرب الأخرى بأنها احتفظت بالفعل بالروح الفينيقية.

وطنجة، هذه المدينة المنفتحة وشبه المستقلة، كانت عبر القرون، وحتى عندما انطوى المغرب على نفسه، مدينة الانصراف والدبلوماسيين وكان فيها دائماً كثير من الأجانب. وخلال مرحلة الوصاية الفرنسية كان لطنجة موقع دولي، مما سمح لها أن تكون ملجأ للحركات السياسية التي دانت بعد العدة للاستقلال.

ورغم انحراف هذه المدينة في المغرب بعد المستقل فقد بقيت تتميز بالروح الفينيقية.

أما سكان طنجة وقد يرعوا في الأعمال التجارية، فهم لا يكتفون بالأعمال الخالية وحسب، إنما يفكرون على صعيد حوض المتوسط والعالم.

وهم ممّلؤون على درجة ممتازة. ويقال أن واحداً منهم قبل زمن ليس بالبعيد قام بتجهيز ودعم الجيوش الظافرة بقيادة الجنرال فرانكو. وكان بذلك يعيّد إلى الأذهان صورة عن المؤولين القرطاجيين الذين كانوا يمولون مشاريع هائلاً مثل الحرية في إسبانيا. وفيديني أيضاً ذلك السحر الفتان الذي جذب أصحاب المليارات ومتذوقى الجمال الدوليين وجعلهم يبقون في طنجة وينور فيها المساكن الفخمة والقصور التي لا يأتون إليها إلا بضعة أشهر في السنة من أجل الاستجمام والاستمتاع بحماماتهم التي تحمل أبهة الشرق.

### ● ليكسوس (Lixus):

إذا تجاوزنا طنجة باتجاه الجنوب على طريق الساحل الأطلسي للمغرب وعبرنا سلسلة من المرتفعات المكسوة في بعض الأماكن بأشجار بلوط القلين الباقة من الغابة القديمة الواسعة التي كانت تغطي سابقاً أراضي المغرب، وصلنا بعد ذلك إلى وادي «ليكسوس» Lixus وغير بعيد عن مصبه بالقرب من ملاحظات هامة بين الطريق والبحر كانت تقوم مدينة «ليكسوس» الفينيقية بمحاذاة هضبة مرتفعة. هذا المصب الذي ظهر منذ عهد بعيد والذي تتضمن فيه تعرجات الوادي لابد أنه كان في الأزمنة القديمة مصدراً لنهر واسع صالح تماماً للملاحة. كما كانت «ليكسوس» تشتهر بمعابدها التي يتحدث عنها المؤرخون القدماء ومنها معبد يوسيدون ومعبد ملقارب.

وكما هو معروف عند الفينيقيين كانت هذه المعابد تقوم على أماكن مرتفعة، ويُمكن أن نلاحظ فعلاً تحت المستوى الروماني القاعدة الضخمة للمعابد القدية المتوجهة نحو مغرب الشمس تبعاً لتقاليد ذلك الزمن. وقد بنيت هذه القاعدة بحجارة كبيرة منحوتة.

لابد أن هذا المركز التجاري كان يعتمد في موارده بشكل أساسي على الصيد والتمليح. ويمكن استنتاج ذلك من خلال العدد الكبير للأحواض المنتشرة عند سفح الهضبة على طول الطريق.

بعد زوال قرطاجة صارت «ليكسوس» تابعة للحكم الروماني. وتبعد ما هو متظر بحد أن المعابد الفينيقية التي أصبحت رومانية قد نصرت في العهد البيزنطي ثم صُمت إلى الإسلام فيما بعد. وتبعد في الطبقية العليا من الأنقاض بقايا مسجد لاشك أنه هجر منذ عهد بعيد. والمرجح أن «ليكسوس» قد ظلت في طي النسيان حوالي ألف سنة إلى أن جاء عهد الخامة الإسبانية على المنطقة، وأخذ آثاريو مدريد المختصون بالمراكم التجارية والواقع الفينيقية الواقعة جنوب إسبانيا، يوسعون أعمالهم فغزوا بالتدريج على ضواحي مدينة «ليكسوس» القدية التي أصبحت اليوم معروفة تماماً.

ومن أعلى الأكروبول ومن خلال الأعمدة المرتفعة يرى المرء على الضفة الأخرى من النهر مدينة «لاراش» التي عاشت فيها الدوقة «de Guise» مع كونت باريس في معزل عن العالم لسنوات طويلة.

ولذا ماتوغنا في تلك الأرضي المجاورة رأينا على جانبي وادي «ليكسوس» وعلى مد النظر بارات شاسعة من البرتقال.

وإن الذين يتصورون هناك حديقة «Hesperides» الأسطورية بظاهرها الذهبي المشهور لا يدور في أذهانهم أن أشجار البرتقال تلك قد زرعت في القرن العشرين من قبل «روتشيلد».

### ● موغادور (Mogador):

لقد أتيحت لي فرصة جيدة للإطلاع على حقائق موغادور الفينيقية، وذلك بفضل الباحث «Paul Koerbele» الذي نذر نفسه تماماً، ومنذ عدة أعوام، وتحت إشراف «أندريه جودان Andre Jodin» من المركز الوطني للأبحاث العلمية (C.N.R.S) للدراسة والتقييم في جزيرة موغادور.

إن خليج موغادور الطبيعي محمي من الأمواج الصائبة بواسطة جزيرة صخرية

صغيرة يبلغ طولها حوالي 200 مترًا وعرضها حوالي 100 مترًا. وتحتل هذه الجزيرة الصغيرة انحداراً شديداً من إحدى جهاتها، لكن المرء يستطيع أن يرسو على السطح المحمي الذي هو بمواجهة الياضة، بفضل خليج رملي صغير يسمح لابواد القوارب وجعلها تسرع نحو الشاطئ.

وعلى جانبي هذا الشاطئ يوجد الموقع الأثري الذي تمت فيه اكتشافات هامة خلال السنوات الأخيرة.

كان من ذلك عدد هائل من الأواني الفخارية والمزهريات الصغيرة ذات الأطواق التي لها شكل القطر، أي أنها من النموذج الفينيقي. وقد تم العثور عليها في أقدم طبقة توصلت إليها الحفريات. وقدر أن هذه الأشياء بمحملها ترقى إلى القرن السابع قبل الميلاد. وهذا يعني أن وجودها سابق لتوسيع قرطاجة التي كانت في أوج ازدهارها خلال القرن الخامس على وجه التقرير، أي عندما قام حنون برحلته البحرية. وإذا نظرنا إلى أكواخ الأصداف التي عثر عليها في نواحي موغادرور نستتب أن فينيقي الشرق ومن ثم القرطاجيين وأخيراً الرومان كانوا مهتمين كثيراً بصناعة الأرجوان في هذه الجزيرة.

### ● الأرجوان:

من الواضح أن صناعة الأرجوان أعطت شهرة لجزيرة موغادرور حتى جاء وصفها عند «بليني Plinius» بأنها إحدى الجزر الأرجوانية. وقد سمي أرجوان جزر هذه المنطقة بأرجوان «getules» لتمييزه عن أرجوان صور وأرجوان جربة. وكان اسم «getules» يطلق بشكل عام على العشاير التي كانت تستوطن المناطق الساحلية من المغرب بين الأطلس والمقاطعات الرومانية. كما كان يطلق اسم الـ «ليكسيت Lixites» على السكان الذين انتشروا في الجنوب بين الأطلس وأفريقيا السوداء. والواقع أن هناك كل الأسباب التي تجعلنا نعتقد أن هذا النوع من الأرجوان المسمى بأرجوان «getule» كان يصنع على الساحل الأطلسي للمغرب، ورغم أنه أقل شهرة من أرجوان صور إلا أنه كان ذا صيت واسع إذا أخذنا بعين الاعتبار كلمات التحرير التي جاءت عند «هوراس Horac»:

«... لائق وأفعى وعاج ومزهريات إتروورية صنعت من البرونز ولوحات وفضة وملابس فاخرة يلمع عليها أرجوان getule... كل هذه الكتوز... كيف لا تكون لنا!...».

لقد استمرت صناعة الأرجوان في موغادرور بالازدهار على مر العصور. وكانت

تعتمد كما في صور على دراسة صحف المرين الذي كان يدعى في تلك المنطقة **«Purple hemastoma»**.

إن دراسة مختلف الطبقات الأثرية تبين أن إنتاج الصباغ في الجزيرة قد مر بفترات ركود وفترات نشاط. ويبدو أنه قد طرأ عليه تجديد في عهد «جوباء الثاني، ذلك الملك المغربي (بين 50 قبل الميلاد و 23 ميلادية) الذي جعلت منه ثقافته ورحلاته وزواجه من «كليوباترا سيليني» ملكاً ذا نفوذ قوي وصيت واسع في روما. ويقال أن «جوباء» قد نشر صنع الأرجوان إلى ما بعد الساحل المغربي، ذلك أن «بليني Plinus» يوضح قائلاً: «ما نعرفه عن جزر موريانا أن الملك جوبا قد اكتشف البعض منها وأنشا فيها مصانع لأرجوان Getule...».

ترى هل تشتمل الجزر التي وصفها «بليني» بالجزر الأرجوانية فقط على تلك الجزر القرية من الشاطئ؟... أم أيضاً تلك التي تدعى جزر الكناري؟...

يبدو لي نص «بليني» واضحًا تماماً بما أنه يتحدث عن جزر اكتشفها الملك جوبا. إذ هل من الممكن أن يتفاخر ملك باكتشاف جزيرة تقع على مقربة من ساحل بلاده؟... إني أعتقد أن تسمية «الجزر الأرجوانية» كانت عموماً تشمل جزيرة موغادر مع تلك الجزر القرية من الكناري **«Lanzarote»** و **«Fuerteventura»**.

من الصعب أن تصور أن الفينيقيين وظفوا وكلاء وحامية ليتفرغوا فقط لمهمة الصباغة. ولا بد أن مركزهم في موغادر كان يشكل قديماً نقطة وصول القوافل الآتية من أفريقيا عبر الصحراء وممرات جبال الأطلس. وقبل أن يقوم الأميرال حنون بفتح طريق الذهب البحري إلى الجنوب قليلاً يرجح أن موغادر كانت محطة شحن للبضائع الشمينة الآتية من الجنوب. ومن جهة أخرى تم العثور على العاج المزخرف على أرض موغادر نفسها، علماً أن تجارة العاج قديماً كانت مرتبطة دائماً بتجارة الذهب. تعتبر جزيرة موغادر التي أصبحت اليوم مقبرة أرضاً مثالية بالنسبة لعلماء الآثار. وفي الجهة المقابلة تماماً للجزيرة بنيت مدينة موغادر الصغيرة فوق شبه جزيرة. وربما يوجد هناك أيضاً أساس منشأة قديمة، ولا يتوقع أن تكون هناك صعوبات في الشروع بأعمال التنقيب لأن مدينة موغادر هذه منظمة تماماً. وبالواقع فقد بنيت هذه المدينة في القرن الثامن عشر في عهد السلطان سيدني محمد بن عبد الله الذي أصدر سنة 1765 في عاصمتها مراكش أمراً ببناء مركز تجاري مهياً جيداً للمبادلات الخارجية وإيواء السفن، خاصة وأن عاصمتها مراكش الواقعة على بعد 150 كيلومتراً عن الساحل كانت بحاجة إلى ميناء.

## ● لماذا «الصويرة»؟...

هناك قصة طريفة تبين لنا بهذا الصدد، كيف أن موغادر في ذلك الحين أطلق عليها الاسم العربي «الصويرة».

من أجل نجاح الأعمال في بناء المدينة الجديدة تم تكليف مهندس فرنسي من «أفينيون Avignon» يدعى **Theodore Cournut** حيث كان يعتبر بثباته المعونة الفنية بمفهومنا الحالي. وبعد أن حظي هذا المهندس بشقة السلطان وأصبحت في حوزته وسائل كافية قام بوضع تصميم لمجموعة ممتازة من الأسوار المتينة مزخرفة بالأسلوب التركى، وتصميم للأحياء التجارية والسكنية وميناء بحري رائع ومنازل عالية ذات توافد كبيرة، وحصلوا لاستخدام المدافع بشكل مناسب تماماً.

وكان السلطان سيدى محمد بن عبد الله يتبع وهو جالس في قصره براكسنتطور الأعمال باهتمام كبير ويطلب من مستشاريه إحضار الخططات والمصورات التي يصممها «كورنى». وحيث أن هذه المعاينات للمصورات كانت متكررة فقد اصطلح السلطان اسم «الصويرة» على ورشة البناء التي لم يكن يعرفها أو يراها إلا من خلال الصورة، واعتقد أن يطلب رؤية الصويرة، وشيئا فشيئا درج هذا المصطلح في الأحاديث العامة للدلالة على تلك المدينة المستقبلية التي يجري العمل فيها. وبعد أن تم بناؤها وكانت طبق الأصل عن الصور التي رأها السلطان لم يخطر ببال أحد منذ ذلك الحين ليجادل اسم آخر لها غير اسم «الصويرة».

خلال القرن التاسع عشر أدت التسهيلات التي قدمها البناء الجديد إلى اجتناب تجارة مدينة السوس والعديد من يهود المغرب. وفي ظل أسوار المهندس «كورنى» وفوق الموقع الفينيقي القديم تشكلت مجموعة سكانية مزدوجة من المسلمين واليهود عاشت في وفاق تام، وقامت بتصنيع المعادن الثمينة ومارست فوق شبه الجزيرة الصغيرة هذه في أقصى الغرب من المغرب التجارة على نطاق واسع.

وانتشر سكان الصويرة مثل اللبنانيين في كل أنحاء العالم. وأصبح لعائلات بأكملها أحفاد في أمريكا وفرنسا وإنكلترا. وهكذا صادف أن أحد أبناء موغادر ويدعى **«هواري بيليشا Hoare Belisha»** أصبح وزير حرب قبل بضع سنوات في إحدى حكومات مملكة بريطانيا.

## الفصل التاسع والثلاثون

### جزر الكناري

«إن الفينيقيين، أولئك البحارة القدماء المجلدين، كانوا أول من اكتشف جزر الكناري. وقد سموها: أليزوت. وهو اسم من أصل سامي. وأقاموا فيها أحد المراكب التجارية العديدة التي كانوا يحصلون منها على المنتجات الضرورية لشجارتهم. واليوم تشكل جزر الكناري المقاطعة التاسعة في إسبانيا والنابعة لحكومة مدريد المركزية....».

Juan Del Rio Ayala

أثناء فترة إقامتي في جزر الكناري سمحت لي الفرصة بأن أجتمع لمدة طويلة مع Juan Del Rio Ayala، هذا النابغة الكناري، الذي يتميّز على حد تعبيره إلى جماعة الـ «Guanches» القدماء. واستنتجت حينذاك أن أولئك الـ «Guanches» ربما كانوا مثله، أقوياء الشكيمة عيونهم زرقاء غامقة وبشرتهم برونزية وشعرهم أشقر معتبر. في جزيرة كناري الكبيرة أشار لي بشيء من التأثر إلى الوادي السحيق حيث كانت ترتفع جبال الـ «Guanches» المقدسة، وخاصة ذلك الشعف الجبلي الحاد الإرتفاع، حيث يقال أن آخر قادة الـ «Guanches» الذي رفض أن يخضع للإسبان سنة 1483 فضل أن يلقى بنفسه من أعلى هذا الشعف المرتفع على أن يستسلم. وفي الواقع كان الإسبان يتظرون لهذا اليوم منذ سنة 1344 وهي السنة التي قام خلالها البابا كليمنت السادس بتولية ولبي العهد في إسبانيا على الجزر الغربية وأعطاه لقباً جميلاً هو «الأمير السعيد».

ولكن خلال حوالي نصف قرن من الزمن لم يتسم الحظ للأمير السعيد، وقد احتاج إلى مساعدة فارس نورماندي نبيل يدعى «جان دي بيتكورت Jean de Bethencourt» كان سيد منطقة «Grainville»Bethencourt للقيام بعملية عسكرية وسياسية ونفسية في أن واحد انتهت إلى الاحتلال شبه سلمي لأربع من جزر الأرخبيل الكناري السبع وهي: «Gomera» - «Lanzarote» - «Fuerteventura» - «Hierro»، وقد أسر «بيتكورت» الملوك الصغار المحليين بسحره وتأثيره قبل أن يأسرهم بسلاحه وعمد

عاصمتها «سانتا ماريا» باسم «بيتانكوريا». ولكن إن كان الحظ قد ابتسم له في جزر الكناري فإن أحواله ساءت في مناطق نفوذه الأصلية في التورماندي. فكان أن سلم مقاليد الأمور إلى أحد أولاد إخوته، فقام هذا الأخير بتسليم مناطق النفوذ إلى بعض الأرستقراطيين الأنجلسيين الذين أكملوا غزو الأرخبيل محظيين المجزر الثلاث الرئيسية: كناري الكبيرة وبالما (Palma) وتenerife.

بعد ثلاثة أعوام ظهرت سفن كولومبس في الأرخبيل. وكان هذا البحار الكبير قد جاء لكي يمهد طرق اكتشافاته ويدرس أسرار التيارات والرياح في الأطلسي. وأثناء ذلك وقع في حب فتاة جميلة من الجزيرة تدعى «دونا بياتريز Dona Beatriz»، الأمر الذي أطلق خيال الناس في نشر مختلف الأقاويل، منها أن كولومبس تأخر ست سنوات عن اكتشاف أميركا مانحاً الأولوية لحبه. ومن الممكن أن تكون قصة «بياتريز» الشهيرة مجرد خرافات حيث نسب إليها لقب هو «بياتريز دي بوباديلا Beatriz de Bobadilla» الذي يعني بالاسبانية: «الإشاعة». وسواء كان ذلك خرافات أم حقيقة، فيبدو أن جاذبية خاصة كانت في الخل والترحال وفي كل الفرص تعود مراكب كولومبس نحو جزر الكناري، حيث مكث طويلاً في منزل حاكم جزيرة كناري الكبير. وزالت اليوم قاعات هذا المنزل تحمل ذكريات الملاح الكبير في حين يتشر في قناء الدار سرب من البيغaloats التي تترثر مزينة المكان بألوانها البراقة.

ولكن من كان ياترى أولئك الـ «غانش Guanches» الذين كانوا يستوطنون الجزيرة منذ زمن طويل؟... والذين كانوا في عصر النهضة يجهلون البرونز وال الحديد والقوس والسهام ودولاب المخافف والأيجذير؟.. إن المشكلة التي تواجهنا في هذه المسألة تتعلق خاصة بعلوم إنسان ما قبل التاريخ. والحقيقة أنه من الصعب جداً اليوم أن ندرس ميزات الـ «غانش»، ذلك أن دم هذا الشعب قد امتنج تماماً بدم الغرابة. ومن حسن الحظ تم العثور على عدد هائل من المخلفات وعظام الموتى في كهوفهم وفي مختلف المقابر الكبيرة. لقد عاش هؤلاء الناس حتى الغزو الإسباني مستخددين أدوات من الخشب والحجر المصقول. وإن الخيار الذي واجهوه حينذاك بين الإبادة والعبودية قد دفعهم لترك تلك الواقع التي يقيت شبه سليمة حيث يقال أنها محاطة بالغرائب. لقد توجب الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر للتفرغ للدراسة العلمية لحضارة أولئك الغرباء. ويبدو أن المستين من الـ «غانش» الذين كانوا يعانون من أمراض مستعصية قد رحلوا إلى كهف متعزل لكي يقضوا نحبهم هناك وبسرعة بعيداً عن الغرابة.

كانت الطقوس المتعلقة بالموت رسمية. وكانت أجساد الموتى تختبئ بواسطة الراتنج الأحمر ثم توضع في أغلفة مصنوعة من القش وجلود الحيوانات ومصممة بعناية. وقد تم العثور على مزهريات غريبة كانت تصلح على الأرجح للعبادة. وهي ذات شكل كروي ورقبة عريضة. أما المقاييس فذات شكلين وتتمثل أجساماً بشريّة مختلطة. ويعتقد البعض أن هذه المزهريات كانت تُقْدَم في حفظ رفاة الأموات لعائلة ما مع فصل رفاة الذكور عن رفاة الإناث. لقد قادني قدم حضارة الـ «غانش» على الفور إلى طرح سؤال على «خوان ديل ريو أيلا» Juan del Rio Ayala - المذكور آنفاً - وهو: - إذا كان الفينيقيون قد أتوا فعلاً إلى جزر الكناري، فلماذا لم ينشروا على الأقل صناعة وتدالو البرونز والinoxidido؟...

وكان رأيه أن الفينيقين، وعلى التحديد القرطاجيين، قد أنسوا بالتأكيد منشآت بسيطة في الأرخبيل. ويقال أنهم لم يستقرّوا في كل جزر الأرخبيل واكتفوا بالاستيطان في جزيرتي «لانتاروت» Lanzarote و Fuerteventura (القريتين من أفريقيا، حيث تبعدان على الأكثر 80 كيلومتراً عن الساحل).

في بداية العصر المسيحي توجه «جوباء» الثاني الذي سبق ذكره، وهو أول ملك للمغرب ورجل ثقافة كبير في آن واحد، توجه برحّلة نحو جزر الكناري ورسّا في «لانتاروت» Lanzarote.

يسمى «بليني Plinius» هذه الجزر بـ«الجزر الأرجوانية» ويؤكد أنه كان يوجد فيها مبانٍ مهجورة، هي دون شك معامل قدية للأرجوان أسسها الفينيقيون وعلى التحديد القرطاجيون نحو القرن الخامس قبل الميلاد.

وفي الرأس الشمالي الغربي لجزيرة «لانتاروت» رأيت الشاطئ الكبير وذراع البحر الهدئ الذي يفترض أن «جوباء» رسّا فيه بسفنه.

ولأندربي إن كان «جوباء» قد مكث طويلاً في هذه الجزيرة ذات الأرض الكالحة المكونة من الحمم والتي كشف فيها عن آثار حضارة الجماعات الأطلسية التي تختلف أشد الاختلاف عن حضارة الـ «غانش».

إن النصب الذي عثر عليه في إحدى قرى «لانتاروت» في «ازوتزاما» يشتراك مع نصب «نخيلات» في المغرب ومع شواهد قبور Gavrinis، بتلك التقوش المقوسة المتعددة المركز والتي تعود إلى طراز فني موحد. عدا عن كل ذلك يلاحظ أن جزر الكناري كان يعيش فيها قديماً، وفي كل الأحوال، عدد كبير من الكلاب. وقد اشتهرت هذه

الكلاب بمحاجمة البحارة والمسافرين وارتبط اسمها باسم الجزرية (Canis Canaries). ومن جهة أخرى مايزال الكلب عبر العصور يحتل مكانة كبيرة في حياة سكان الكناري. إذ نجده في شعارات الجزرية، أو منقوشاً على البرونز في الأماكن العامة، أو منحوتاً على الحجر في أطراف مازاريب المنازل القديمة. كما نجده في كل مكان من الريف تقريباً، حيث ترى سلالة من الكلاب خاصة بجزر الكناري ومرغوبة كثيراً للصيد. وقد اعتقدت في البداية أن الحافلات في كناري الكبير قد سميت «واه.. واه...» احتراماً للكلب الكناري. ولكن «جان ديل ريو أيالا» - المذكور سابقاً - أوضاع لي أن هذا الإسم قد أخذ عن كوبا حيث يطلقونه هناك على الحافلات. كما أتوا مؤخراً من كوبا بالاختصاصي الكبير في صناعة تبغ «La Havane» الذي لديه سر صناعة سجائر وينسقون ترشل الشهيرة. وفي جزر الكناري ذات الطابع الفيبيقي القديم وللتتصفه بالهدافة والثراء الفاسح في هذا العصر، يزرع التبغ، ولكن بشكل أكثر يزرع الموز الذي تنمو أشجاره بصورة ممتازة. وتقوم شركات تجارية دولية في ظل نظام ضريبي منازل بشراء وتسويق الإنتاج بسرعة في كل أنحاء العالم. والسياحة في الكناري منظمة تنظيمأً جيداً وعلمياً. والملايين التي ترد من السياح يتم إنفاقها على قوالب الأسمنت والفولاذ والزجاج لثبات الفنادق الحديثة. لقد جاء أعضاء هذا الدين الجديد (السياحة) أيضاً متبعين الشمس فوق هذه الجزء التي سُلد موقعها هومير «في طرف العالم» وسميت حينذاك بحقول الـ «Elysion» حيث يعيش الناس في سلام ويستنشقون النسيم العليل المنبعث من المحيط.

## الفصل الأربعون

### موريتانيا

### نهاية طريق العربات

في الجغرافيا السياسية الحديثة تعتبر موريتانيا دولة مستقلة. وهي جمهورية موريتانيا الإسلامية الواقعة ما بين السنغال ومالي والصحراء الجزائرية وريو دي أورو المسماة رسمياً بالصحراء الإسبانية.

قد يسأل كاتب موريتانيا - أي بلاد المورين - مناطق ليست لها حدود إلى أن جاء الوقت الذي أطلق الرومان فيه هذه التسمية على أراضيهم الواقعة في شمال أفريقيا.

وأما بالنسبة للجغرافيا البشرية فإن موريتانيا هي مجموع أراضٍ واسعة بما فيها الصحراء الغربية التي يعيش فيها حوالي سبعمائة ألف موري حياة البداوة معتمدين على تربية الماشي والمبادلات التجارية. وهم يتقلون دوماً في هذه المناطق المترامية الأطراف التي تكبر مساحة فرنسا بخمس مرات. وهي أيضاً بلاد أولئك الرجال والنساء المتخلفون بأردية زرقاء. وفي تلك البوادي الواسعة التي تخللها بعض الارتفاعات الصخرية المتكلسة بفعل الشمس، والتي تكتسحها العواصف الرملية، يتنقل الموريون المتلقعون بالأزرق، يخيمهم الكبيرة الهادئة وقطعان جمالهم. والقطعان هو ميراث العائلة ومتلكاتها. وهو بثابة حساب لها في المصرف يجب على الدوام أن يبقى تحت رقابة مالكه.

إنبقاء القطعان على قيد الحياة يفرض على أصحابها ضرورة التنقل وفي الواقع أن هناك مراء مدهشة في هذه الصحراء ليست دوماً سراياً، لأن تلك الأرضي المعنتي بها قد حافظت على حيوتها، بحيث يكفي أن تحدث عاصفة وتهطل زخة مطر غزيرة حتى ترى بعد بضع ساعات، ويفضل أشعة الشمس، ظهور أعشاب صغيرة خضراء وناعمة. أما فيما يتعلق بأصل المورين - سكان موريتانيا - فقد طرحت آراء عديدة مختلفة.

فالبعض اعتقد أنهم يتحولون من أولئك الذين شاركوا في رحلة حتون البحري،

وعلى ذلك فهم «أفرو - فينيقيون» من قرطاجة. أما بعض أصحاب الاختصاص من العلماء فيعتبرونهم عرباً أقلياء، أتوا على شكل موجات متفرقة من قلب بلاد العرب وشكلوا عرقاً خاصاً بهم بعد احتلاطهم مع البربر الصحراوين الذين كانوا هناك قبلهم.

وإذا رجعنا إلى وصف رحلة حنون البحريـة - الذي ورد فيما سبق - وجدنا أن موريتانيا تتطابق مع ما سمي هناك بلاد الـ «ليكسية» الذين قدموا لحنون مترجمون رافقوه في استكشافه لأفريقيا السوداء التي كانت غاية رحلته. ويفترض أن هؤلاء الـ «ليكسية»، جماعة من البربر كان القرطاجيون، كما يقال، يطلقون عليهم صفة «ماهور»، وكانت هذه الكلمة تطلق على ببر الغرب.

وعلى كل حال فإن لم يكن الموريتانيون قرطاجيين بالأصل فإن الاسم الذي يحملونه قد ورثه لهم قرطاجة.

الواقع أنه لم تكتشف في أراضي موريتانيا أدلة أثرية قاطعة على وجود القرطاجيين. ولكن لا بد مع ذلك من الإشارة بعناية إلى عدد من الحقائق:

يجب ألا ننسى أن موريتانيا الحالية تقع على تخوم بلد الذهب. ويدو أن طريق الذهب البري - أي طريق العربات - كان يؤدي إلى موريتانيا، وكذلك الطريق الشرقي الآتي من مناطق الحمرمين والطريق الآتي من الشمال. وقد تم العثور في موريتانيا على نقش صخري لعربات القلع كان قد كشف عنها كل من «R. Mauny» و «Th. Monod» و «J. Gabus». كما أن هناك أماكن عديدة اشتقت أسماؤها من اللغة البونية. وحتى أن أحمل شاطئ على السواحل الموريتانية، يقع في مكان يسمى «تعنيت». وليس مستبعداً أن يكون قد وجد قدماً في هذا المكان معبد مكرس لإلهة قرطاجة «تعنيت».

ثم إذا مانظرنا إلى الزينة وال المحلي عند نساء موريتانيا وجدنا كثرة استخدام اللائئ المصنوعة من عجينة الرجاج، يضعنها حول أعناقهن أو يجذلنها مع صفائر شعرهن بكثير من الأنفاق. ومن المؤكد أن عادة استخدام هذه اللائئ المصنوعة من عجينة الرجاج هي تذكرة من قرطاجة. كما أن ما يلاحظ أخيراً أن الموريتانيين تجذل بارعون ولديهم مهارة كبيرة في مجال تصنيع المعادن. كما كان الموريتانيون دوماً الوسطاء في مجال التجارة والعلاقات الإنسانية بين البيض والسود.

يعتقد استناداً لما تقدم أنه في عصر قرطاجة كان أجداد الموريتانيين على تخوم بلاد السود هم بثابة المراسلين والعملاء ومستودري البضائع ومودعها لكل الذين كانوا يريدون القيام بصفقات في الجنوب. وبهذه الطريقة تعرفوا على الأفرو - فينيقيين أهل قرطاجة وأبناء عمهم البربرين، حيث أنهم أنفسهم كانوا متخلرين من اختلاط البربر مع الجماعات القادمة من قلب الجزيرة العربية. ولهذا السبب يمكن أن نتصور أن موريتاني اليوم الذين احتفظوا بأصولتهم عبر القرون لا بد أن صفاتهم الجسدية شبيهة جداً بصفات القرطاجيين.

إن ارتباط الموريتانيين الكبير بالصحراء وما تتلزمه من تنقلات واسعة يذكر بحركات الملاحة الواسعة والدائمة في البحار، التي كانت محور حياة الفينيقيين. كما أن الروحية المقددة والمعنويات العالية لدى الفينيقيين والمشحدة مع ذهنهم الواقعي تذكّر أيضاً بالتراثات البعيدة لرجال كل من صور وقرطاجة. ومن جهة أخرى تعدّ الحكمة الواقعية الصفة الرئيسية التي تميز جمهورية موريتانيا الإسلامية الحديثة، التي ترتفع في عاصمتها «نواكشوط» على بعد بضعة كيلومترات فقط عن ساحل الأطلسي، الأبنية الشامخة في قلب البيئة الصحراوية.

وتحرص الدولة الموريتانية على وضع ميزانية معتدلة بشكل مثير للإعجاب، وذلك بالاعتماد فقط على مواردها الخاصة التي أهمها الحديد الموجود في موقع «Fort Gouraud». ولكن هناك دائماً تساؤل، إن كان هذا المنجم الهام مع المناجم الأخرى التي يتم إيجادها تستطيع مستقبلاً أن تؤمن العمل والدخل لكل العائلات الموريتانية وتتيح لها الاستقرار التدريجي؟...

لأعتقد أن ذلك ممكن لأسباب أخرى، هي أن الموريتانيين المتمسكون بجريتهم إلى أبعد الحدود يفضلون القسوة في الترحال والعمل على العيش برباعي بين جدران منزل محدود.

ولكن هناك شكلاً آخر للإستقرار يختلف عن الاستقرار الصناعي: فإذا كان أولئك «الرجال الورق» في موريتانيا قبل كل شيء رعاة وتجاراً فإن بإمكانهم أيضاً أن يصبحوا مزارعين جيدين. فالفينيقيون الذين عانوا في البداية من مشكلة مشابهة، أي الرغبة في الاستقرار والإرتباط بالأرض، تمكنوا فيما بعد من الاستقرار ووجدوا أرضاً خصبة مناسبة في أرياف تونس الغربية تساعد على نجاح الزراعة.

وهنا يجب الاستعاضة عن الصحراء ومراعيها (التي تعد معجزة) ببراع منظمة تسمح بالتربيبة المعقولة للمواشي، وشيئاً فشيئاً بالزراعة. ومايلزم في هذه الحال إذاً هو الماء. وما كان يبدو وهماً قبل ربع قرن من الزمن يمكن الآن أن يكون حقيقة. والطاقة اللازمة لاستخراج المياه الجوفية المتوفرة في كل مكان، على وشك أن تصبح سهلة الاستغلال وبكلفة بسيطة. ويحاول العلماء جاهدين استغلال الطاقة الشمسية التي ستغير وجه هذه المنطقة. إن كهنة بعل و«بوقرنين» وواحة سيوه والمحمرين لم يكن في تصورهم أنه سيأتي يوم يفكر فيه الإنسان بتعبيدة إلههم، إله الشمس.

## الفصل الحادي والأربعون ذهب وأبنوس السنغال

«... أنا أمير الشمال والجنوب... والشمس التي تشرق والشمس التي  
تعجب... السهل المفتوح على ألف فتح... القالب الذي تذوب فيه المعادن  
الشمينة... من أرضي استخرج الذهب الأحمر والإنسان الأحمر...  
ملك الذهب، الذي له إشراقة الظهر وعذوبة الليل الأنثوية...»

—Senghor. S.L.

من بين شعوب البحر المتوسط المتحضرة كان فينيقيو الغرب السابقين إلى الاحتكاك  
بصورة فعلية مع العالم الأسود، هذا العالم الذي ظل طويلاً يجهل أهمية الذهب  
الأسطورية.

كان هذا المعدن الشمين موجوداً قديماً في السنغال، كما وجد في مناطق أخرى من  
أفريقيا. ومن المؤكد أن القرطاجيين قد أقاموا مراكز تجارية هناك حيث يمكنهم مقايضة  
بضائعهم المستوردة بالذهب الأفريقي.

الواقع أن التحريرات الأثرية لم تعر على أدلة مادية تثبت تواجد القرطاجيين في  
أفريقيا السوداء، لكن هناك مجموعة من النقاط المترابطة التي تساعدنا على التأكيد من  
وجود دلائل على حضورهم واقامتهم المنشآت في أفريقيا. نعم مرة أخرى إلى وصف  
رحلة حنون البحرية، حيث تحدث عن جزيرة «كيزن» الصغيرة الواقعة حتماً في مياه  
السنغال الإقليمية، سواء كانت جزيرة واقعة على مصب نهر، أم كانت هي نفسها  
(Goree). هناك أيضاً الذهب المتوفّر في منطقة «يمبوك»، في ذلك المثلث الواقع بين نهر  
السنغال ورأفده «La Faleme».

ومن الممكن أن تتضمن الطريقة التي كان التجار القرطاجيون يتبعونها في تعاملهم  
مع الأفارقة وشراء الذهب منهم برجوعنا إلى نص المؤرخ والمغرافي المعروف ياقوت  
الحموي، حيث أن الأساليب التجارية لم تكن قد تقدمت كثيراً بين عصره وعصر  
قرطاجة:

«.... عندما كان سكان بلاد الذهب السود يسمعون صوت العطيل، كانوا

يخرجون من مخايمهم ويستظرون على بعد مسافة معينة بلا حراك... أما التجار فكانوا يفرغون بضائعهم ثم يبتعدون... عندئذ يقترب السود ويضعون كمية محددة من حبيبات الذهب ثم يتراجعون. بعدئذ يعود التجار ويأخذ كل منهم الذهب الموجود قرب بضاعته ويعودون من حيث أتوا وهم يضربون الطبل لإعلان رحيلهم....

ويروي هيرودوت من جانبه أن القرطاجيين كانوا يبحرون إلى ما بعد أعمدة هرقل لكي يقايضوا متاجفهم بالذهب.

ويفترض أن يكون القرطاجيون قد رزوا في جزيرة «Goree» الصغيرة على مسافة قصيرة من «داكار» في الجهة المقابلة لـ «Cap - Vert» ففي هذه الجزيرة بالواقع ما كان البحارة القرطاجيون يبحثون عنه، وهو شاطئ رملي ناعم لرسو السفن، ونقط صخرية مرتفعة لرؤية الجهات المجاورة وممارسة طقوس العبادة، إضافة إلى أنها قرية من ساحل بلاد مأهولة تسمح بالنجاز الصفقات التجارية بسهولة. هذه الجزيرة التي لا يتجاوز طولها 900 مترًا وعرضها 300 مترًا كان قد اكتشفها البرتغاليون في القرن الخامس عشر. إلا أن الهولنديين حلوا محل البرتغاليين بشرائهم لجزيرة «Goree» في سنة 1617. وكان الرئيس المحلي قد قبل بذلك لقاء حصوله على بعض سبائك الحديد.

كان لصورة هذه المقايضة أثراً سيءً الذي انعكس في كلمات «Jean - F. Brierre» الشاعر والكاتب المسرحي الهايتي ومؤلف نصوص «العرض المسرحي الأشاد في جزيرة Goree»<sup>(1)</sup> التي أوجحت بالترنيمة الفريدة لأصوات الضمير. ومن ذلك:

«... حديد يا.. Denga Mafai... حديد لأجلك..  
يامن عشت دائمًا في عصر الأخشاب...  
ماذا ستفعل بهذا المعدن الغريب؟...»

إذا فقد كانت جزيرة «غوري» على رقعة شطرين الدول العظمى بيدقًا يتخاطفه تباعًا الهولنديون والإانكلتراز ثم الهولنديون من جديد، وبعدها الفرنسيون والإإنكلتراز. وأبتداءً من سنة 1785 أصبحت الجزيرة فرنسيّة وأنجذت شكل «مدينة ريفية صغيرة تحت المدارات». وكان المحاكم «بوفلير Boufflers» الأرستقراطي المتحرر وصديقه

<sup>(1)</sup> نظم بمناسبة المهرجان العالمي الأول للقرنون عام 1966 في السنغال.

فولتير أول من أقام علاقات مع الأفارقة تقوم على أسس إنسانية جديدة. وكان مع فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين الرائد الحقيقي لحركة إلغاء العبودية، وفي الواقع كانت جزيرة غوري هي تلك الأثناء تعتبر مستودعاً للعبيد. وكانت تعقد صفقات تجارية راجحة بوجه خاص بين أوروبا وغرب أفريقيا وأميركا، وكانت المنتجات الصناعية والشحنات الأوروبية المجانية ترسل إلى جزيرة غوري ومناطق أخرى من طرب أفريقيا مقابل عدد من الرقيق. وكانت حمولات من خشب الأبنوس ترسل إلى جزر الأنتيل أو إلى تورينانا مقابل السكر ومشتقات قصب السكر. وكان القباطنة يحقّقون ثلاثة عمليات تجارية في رحلة واحدة.

وفي هذه الأيام مازلنا نرى في غوري محلات تجمع العبيد سابقًا وقد أصبحت مكاناً للتزلّه يوم العطلة الأسبوعية بالنسبة للبعض ومتاراً بالنسبة للبعض الآخر. أما بالنسبة للجميع فهو باعث ألم التأمل.

بعد إلغاء العبودية خمد نشاط جزيرة «غوري» شيئاً فشيئاً، وبعد أن كانت مقر الحكومة لأعوام عديدة خلال القرن التاسع عشر تركت مكانها لـ «داكار Dakar» منذ أن ظهرت الآلة البخارية، حيث أنه لم يكن يوجد في «غوري» مكان متسع لتخزين الفحوم.

على الساحل المقابل لجزيرة «غوري» تقع شبه الجزيرة المسماة (Cap - Vert) - أي الرأس الأخضر - ومدينة داكار عاصمة جمهورية السنغال، بأبيتها الكبيرة والحديثة وشوارعها المظللة بالأشجار ومينائها الكبير وأصوات السنغاليين الصادحة لدى مرور الملكة.

ومن المعروف أن هناك الكثير من اللبنانيين، لا بل عدة آلاف منهم، في مدينة داكار يعملون في تجارة الأقمشة وتحويل المنتجات الزراعية. فهل وجدوا ياتري في هذه المدينة صدقة؟.. أم كان لهم فيها أسلاف؟.. ويعيش هؤلاء اللبنانيون في وفاق تام مع السكان المحليين ويدفعون الضرائب ويعرفون كيف يبقون مفيدين في المجتمع. ويمكن تشبيه وضعهم بوضع تاجر «بوزولي Puzzoli» الصورين إذ عاش هؤلاء على مر القرون في إيطاليا بعد دخول عصر المسيحية.

إن وجود هؤلاء اللبنانيين في داكار اليوم، ليخلد في القرن العشرين الرواية التي ابتدأها حنون القرطاجي قبل خمسة وعشرين قرناً.

لقد ظلل الناس في السنغال متمسكين بفكرة الذهب. وإن بعض الخلي الذي مازال

يصورها أرباب الحرف في داكار وسان لويس يذكرون شكلها بالحلي التي عثر عليها في أماكن مختلفة من الطرق الساحلية الفينيقية. وهذه الحلي صنعت على شكل فتيلة معدنية مقرعة. وتعتمد أشكالها بصورة رئيسية على تنسيق من الأشكال المخروطية والنصف كروية. وكل هذه الأشكال قرية جداً من كرات الخصوبة تلك التي تشبه الثدي في استطالتها الخفيفة والتي كانت تزين تماثيل آلهات الآلهة في الشرق، والتي مازلت نجدها في سردنيا وإيبيريا وفي تونس.

هل وصل فينيقيو الغرب حقاً إلى السواحل الغربية لأفريقيا؟...

لقد قلنا سابقاً أنه من المحتمل أن يكونوا قد بلغوا الكاميرون، وأنهم شاهدوا البركان الذي يتطابق تماماً مع الوصف الذي قدمه حنون عما يسمى «عربة الآلهة». ويعتقد بعض الكتاب أن كلمة «كاميرون» مركبة من كلمتين هما: «كامار + ايون» بمعنى - عربة الآلهة - من المحتمل جداً أن يكون الفينيقيون قد أدخلوا إلى أفريقيا السوداء فن صناعة البرونز. ولاغرابة إذا افترضنا أنه كان هناك طريق للقصد البري في أفريقيا، إذ أنه يوجد في نيجيريا على هضبة «باوتشي Baoutchi» مناجم للقصد البري استمرت قبل زمن بعيد.

يمكن في النهاية أن نقول، بما لا يقبل الجدل، أن فينيقيي الغرب قد مهدوا قبل خمسة وعشرين قرناً للحوار الإسلامي بين الإنسان الأبيض والإنسان الأسود. وقد كان لانتصارات روما العسكرية تأثيرها المشؤوم في قطع تيار هذا التفاعل الإنساني المتبادل الذي كان يبدو أنه يسير في منهج جيد.

ووجب على الناس انتظار الاكتشافات البرتغالية الأولى بعد حوالي ألفي عام من الاكتشافات القرطاجية لكي يعود إلى الحياة ذلك الاحتلال ولكنّي تعود من جديد أفريقيا التي تعطي وتأخذ، الصخورة بنفسها، المتمسكة بالسمات الزئجية والمفتوحة في الوقت نفسه على ثقافات وتقنيات وصداقات العالم.

## خاتمة

هل حاول فينيقيو الغرب بدورهم عبور المحيط الأطلسي انتلاناً من جزيرة «غوري Goree» وجزر (Cap - Vert) - الرأس الأخضر - أم عن طريق جزر الكناري؟...  
لقد قادت التيارات (بومبار Bombard) فوق فلك تملوء بالهواء المضغوط إلى الـ (بارباد Barbade)...

والواقع أن احتمال وصول الفينيقيين لأميركا لا يمكننا استبعاده، فقد وجدت في أماكن مختلفة من أميركا الجنوبيّة وخاصة البرازيل، نقوش تبدو فينيقية على الأغلب، وأهم ما يمكن ذكره هو «صخرة ديفتون». وبالقرب من «ريو Rio» يمكننا أن نرى ما يشير إلى الفينيقيين.

إن الأسماء التي أطلقت على عدد كبير من جزر الأنديز قد تكون من أصول سامية.

وفي أماكن مختلفة من الجزر، وخاصة في هايتي، مازال البعض من الطاعونين في السن يتذكرون أساطير غريبة عن قبليهم، تجده فيها دائمًا خراقة الآلهة الكبيرة البيضاء والملتحية، التي أتت من الشرق وظهرت ذات صباح جميل مت高峰期 فوق السفن في بريق الشمس الساطعة. ومن جهة أخرى، فإن قدموم الفينيقيين إلى أميركا، والقرطاجيين على الأرجح، قد ورد على شكل حدث لاجدال فيه في الكتاب الشهير المسمى Constance Irwin (Fair Gods and Stony Faces) للباحث (كونستانس إيرون) الذي ظهر سنة 1963 (الناشر: St. Martins). وبعد بضعة أعوام قام باحث أميركي ب تقديم فرضية مشيرة حول الصلالات الفريدة التي كانت توجد بين الزخارف المنشورة على المسلة رقم 5 من آثار المايا (Maya)<sup>(1)</sup> والقصة الأسطورية القديمة للكناعين/ الفينيقيين.

---

(1) فيما يخص النصب (المسلة) رقم 5 من (Izapa) في (تشياباس Chiapas) بالمكسيك، انظر مجموعة (Wells Jakeman) في قسم الآثار بجامعة Brigham young - الولايات المتحدة.

فضلاً عن ذلك، إن البيانات عن الأحجار أو الألواح التي تحمل نقوشاً منسوبة للقينيين آخذة في الازدياد يوماً بعد يوم.

وسواء كان المقصود هو النص المنقوش على حجر بارابيا في البرازيل<sup>(\*)</sup> أم نصوص «Grave Creek» في الولايات المتحدة الأميركية، فإن المرء يجد نفسه أمام خاتمة الكتابة المشابهة تارة للكتابة الشرقية وتارة أخرى لكتابات قرطاجة، أو حتى لكتابات الأفريقيين البربر وأحياناً لكتابات القينيين القدماء كما هو الحال في صخرة «Metcalf الشهيرة». كان ذلك في سنة 1966، في جورجيا بمنطقة «أندروود Underwood» عندما كان شخص يدعى (منفريد ميتكلالف Manfred Metcalf) يبحث عن صفائع معدنية لصنع مشواة. فوقع بصره صدفة على صخرة منقوشة، بين أنقاض طاحونة قدية بنيت بالتأكيد قبل عام 1900، في زمن استبعدت فيه تماماً فكرة التزوير لأن علم تفسير النصوص القديمة كان حينئذ شبه معذوم.

ويحتمل أن الأمر يتعلق بكتابات هنود الـ «يوشي Yuchi» الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة حتى عام 1836. وما أعتقد هو أن تلك النقوش لم تكن رموزها قد فكّت بعد. وهي ترتبط بالأشكال الخطية «A» و «B» للكتابة الكريتية. وبشكل عام، سواء قدم لنا ذلك تلك الرموز معلومات قيمة أو لم يقدم، فذلك لا يهم كثيراً لأن هذا الاكتشاف يشكل بحد ذاته برهاناً إضافياً على العلاقات القديمة جداً ما بين القارات.

من جهة أخرى قام العديد من العلماء بتدوين الصلات الوثيقة التي توجد بين كتابات الـ «مايا» والكتابات الكريتية، أمثل: «Pierre Honore» والبروجي «Stein Magnus Crodys» حيث وجداً تشابهات غريبة بين الرموز الأزيتية التي قاماً بدراستها في المكسيك وبين الأشكال الخطية المرسومة على إحدى اللوحات التي يرقى تاريخها إلى متتصف الألف الثاني قبل الميلاد، والتي تم العثور عليها في «فايستوس Phaistos» بجزيرة كريت.

من أكثر الأمور إثارة هو ذلك الخبر الذي جاء في الصحافة الكندية مؤخراً عن اكتشاف هام:

فقد أعلن شخص يدعى «باري فيل Barry Fell» - وهو باحث في جامعة

(\*) كان نص «بارابيا Paraiba» بالواقع أكثر نص أقام الأوساط العلمية وأقدمها على جانبي الكرة الأرضية في الربع الأخير من القرن الماضي وما زال موضع دراسة حتى الآن. انظر: القينيون وأمريكا - فصول شغلت العالم - د. عبد الله الحلو. طبعة بيروت 1991.

هارفارد Harvard - أنه قد انتهى من ذلك رموز النقوش الغامضة الموجودة على صخرتين كان قد جاء بهما سنة 1910 شخص يدعى «سوكي L. Soucy» إلى متحف المدرسة الإكليركية في «شيربروك Sherbrooke» حيث مازالتا موجودتين حتى الآن. وكان قد تم العثور على هاتين الصخرتين بالقرب من جروف نهر «سان فرانسوا Saint Francois» عند أسفل نهر «شيربروك» في مدينة «كييك Quebec». وثبت أنهاهما بالأصل صخرة واحدة وزنها حوالي 400 كيلوغرام تحطم إلى قطعتين.

وقد توصل الباحث المذكور «باري فيل» باستناد لمعلوماته في علم النقوش إلى التفسير التالي:

- 1 - «حملة تجسس عباب البحر تحت إمرة السيد حiram لاحتلال بعض الأراضي...».
- 2 - «مارك دي هاتا Marque de Hata» الذي بلغ ذلك الحد من النهر وأرسى سفينته ونقش تلك الصخرة...».

تبعد هذه الترجمة لأول وهلة، بالنسبة لكل من خبر بالرسلات الفينيقية، تماماً متطابقة مع نسمة النصوص الفينيقية شكلاً ومضموناً. لكن ما حصل أيضاً بهذا الصدد أن بريداً أرسله إلى الأستاذ «توماس لي Thomas E. Lee» الذي كان على مايدو يشكك في قدرات الباحث «باري فيل» الذي ذلك رموز هذا النقش. وبذلك يطرح للنقاش من جديد ترجمة هذه العبارات. وسواء كان ما حصل هو فعلًا تشكيك علمي دقيق، أو من قبل التنافس بين جماعات الباحثين (حيث أن توماس لي كان مدرساً بجامعة لافال ومديراً لمركز الدراسات الشمالية) فيجب أشير بالذكر إلى الحيرة التي وقعت فيها بعد ذلك، خاصة وأنه أرافق بعنابة صور الصخرة التي زودني بها مراسل صحفي من كندا. لقد ذكرني أسلوب الكتابة بتلك النصوص التي أتيح لي أن أشاهدها في المغرب وفي تونس على الرسلات أو حتى على اللوحات التذكارية المزدوجة اللغة في ليبيا مثل «دوغا Dougga» و«ليبيس Leptis» و«ماخنا Magna».

مهما تكون نتيجة المجادلة حول هذا النقش وغيره فإن الشيء الذي يبقى لا جدال فيه هو الامتداد العالمي للفينيقى الشرق وفينيقى أفريقيا. أما قدومهم إلى القارة الأميركية فلم يتزعزع شيئاً من فضل كريستوف كولومبوس الذي كان أول من استطاع العودة وأول من قدم بياناً برحلته.

إن كون معظم النقوش تبدو متتممة للكتابة الأفريقية القديمة المشتقة من الفينيقية، هو مما يساهم في إثبات فرضيتي حول إعمار أميركا قبل زمن كريستوف كولومبوس على أيدي السود الذين يفترض أنهم كانوا يشكلون قسماً لا يأس به،

وربما الجموعات الأساسية من العاملين على السفن القرطاجية<sup>(1)</sup>. وبعيداً عن تلك الاعتبارات حول البعد الجغرافي لتوسيعهم، فما لا شك فيه هو الأثر الكبير الذي تركه الفينيقيون في الحضارة العالمية.

لقد ذكرت في بداية كتابي هذا تصريحاً رسمياً للأستاذ «ساباتينو موسكاني» الذي حدد العصر الذهبي الفينيقي بشكل خاص فيما بين القرنين العاشر والثالث قبل الميلاد. ولكن يمكن القول أيضاً أنه منذ ما قبل القرن الثالث يزمن غير قصير وحتى أيامنا هذه بقيت الروح الفينيقية المرتكزة بصورة أساسية على الواقعية والعلاقات الإنسانية الحسنة والتتوسع السلمي. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما كتب فينيقير «بوزولي Puzzoli» في عام 174 بعد الميلاد ذلك الخطاب الشهير إلى صور:

«أيتها الحاضرة المقدسة... المنيعة والمستقلة عن فينيقيا وعن المدن الأخرى... والمدينة الأولى المشرفة على البحر...».

بعد مرور خمسة سنتين على الانهيار المزعوم بقيت صور الهلنستية فخورة بنفسها تشعر أنها فينيقية وأول مدينة على البحر. وبالرغم من أن الفينيقيين قد تعايشوا إلى درجة الإختلاط مع اليونان والرومان ثم البيزنطيين، فقد رأينا أنهم حافظوا على جوهر حضارتهم وأصالتها. إن آلهة الفينيقيين، ولغة قرطاجة التي مازالت آثارها موجودة في أفريقيا الشمالية، كانت تهزاً بانتصارات الرومان العسكرية بعد عدة قرون من تخريب قرطاجة.

ويبدو أخيراً أن الفينيقيين قد حملوا للعالم رسالتين أساستين: فهم الذين أوجدوا تلك الروح التي نسميها تبعاً للأوساط والعصور: الواقعية أو الوضعيّة أو الحس العملي أو الذرائعي... هذه الميزات التي تعد الكتابة المبسطة رمزاً لها قد تتج عندها كما رأينا مانفذه خطأ «الفكر الغربي».

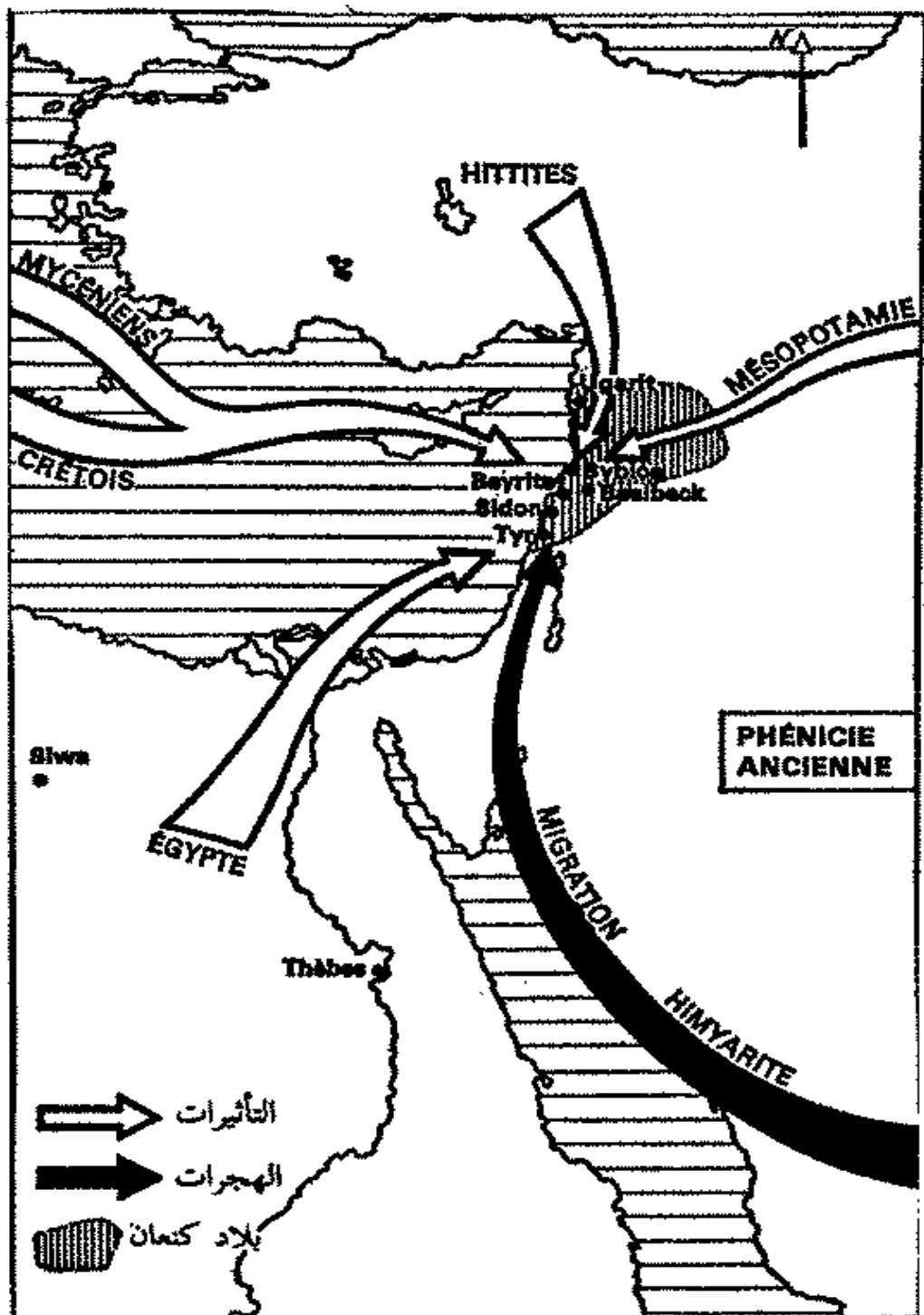
لكن إلى جانب هذه العقلانية نقل الفينيقيون إلى العالم رسالة أخرى وهي الأسيقية المتنوحة للروحانية ولكن بشكل مبسط أيضاً.

وقد تركت هذه الروحانية على الشمس، الإله القوي المنبع المشع الموجود في كل مكان. وإن هذه القوة العظيمة الخارقة والمرتبطة بالحبين إلى الشرق قد مهدت على نحو رائع سبيل الوحدانيات الكبيرة في المسيحية والإسلام بشكل خاص.

---

(1) انظر بهذا الخصوص نفس المؤلف ونفس المجموعة: *Présence du monde noir* (ed Robert Laffont 333 pages).

## **الصور والمحطّمات**



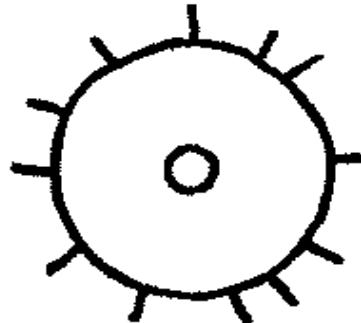
مخطط لفينيقيا القديمة وتأثيرات العالم القديم

عشتروت تحمل فرس الشمس.



نصب من المعبد الفينيقي في (Sulcis) بسردينيا ( حوالي القرن الثامن ق.م.).

**الأشكال التي ترمز للشمس والتي وجدت على مختلف طرق  
القويمين الساحلية:**



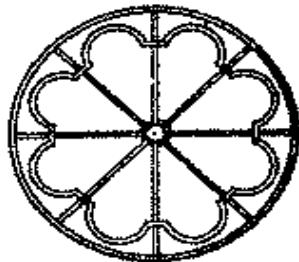
نموذج من الرموز الشمسية المقوشة  
على صخر عالي في المغرب.  
ولازالت تستخدم في أيامنا هذه  
في زخرفة المنازل وبعض المنسوجات.



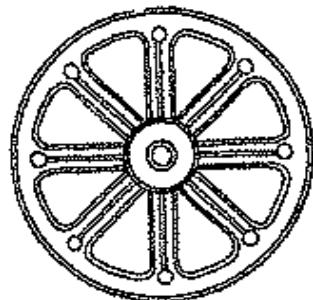
إشارة شمسية واقية لإنزال مستخدمة  
في الصحراء وسلسل جبال الأطلس.



من الرموز الموجودة على الخزف والخلي  
في قبرص وريمة حوض المتوسط. ما بين  
القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد.  
(محفوظة في المتحف الوطني بيروت).



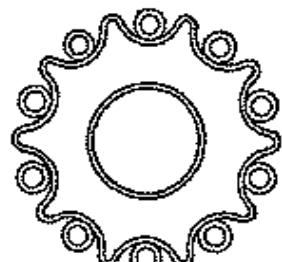
على نصب يرمز لأحد قرائن الأطفال.  
من قرطاجة، القرن الثامن قبل الميلاد  
(متحف باردو).



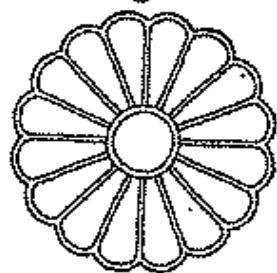
نموج زخرفي رئيسي للنسيج الذهبي المسمى «Jugurtha» من القرن الثاني قبل الميلاد.  
(متحف باردو - تونس).



من الحللي المستخدمة اليوم عند البرير.



أحد النصب كما يedo من أعلاه (وجد في غرفة). من العصر البوتي الحديث، القرن الثاني الميلادي  
(متحف باردو - تونس).

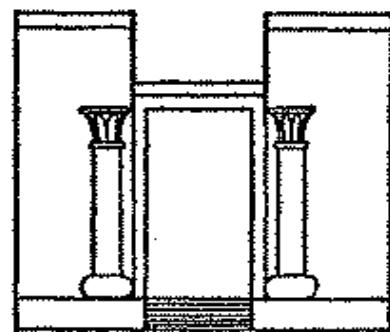
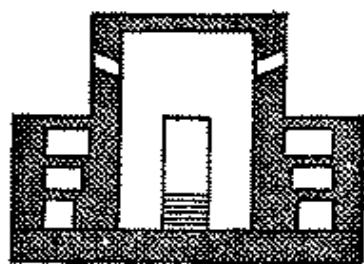
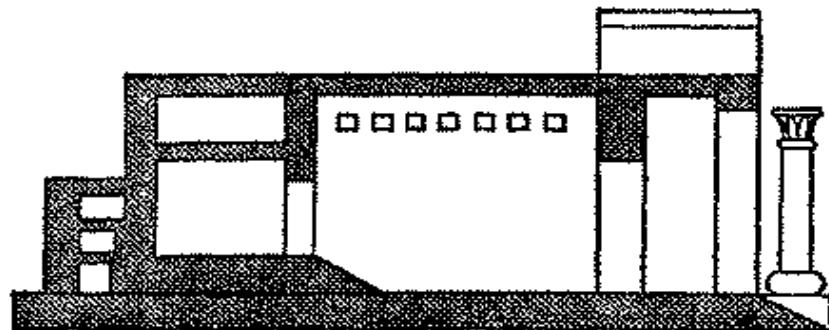
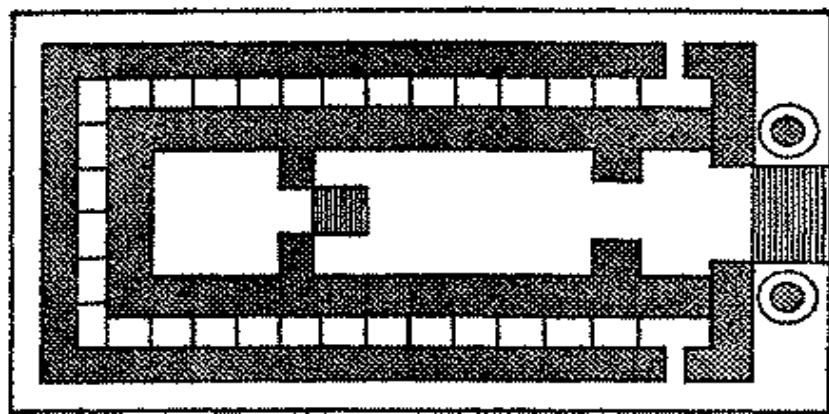


زخرفة مركزية على قدرقيني من قبرص.  
القرن السابع قبل الميلاد.  
(المتحف البريطاني - لندن).

بعض حروف الأبجدية الفينيقية. مع بيان تطورها وصلاتها مع  
الأبجديات الأفريقية القديمة.

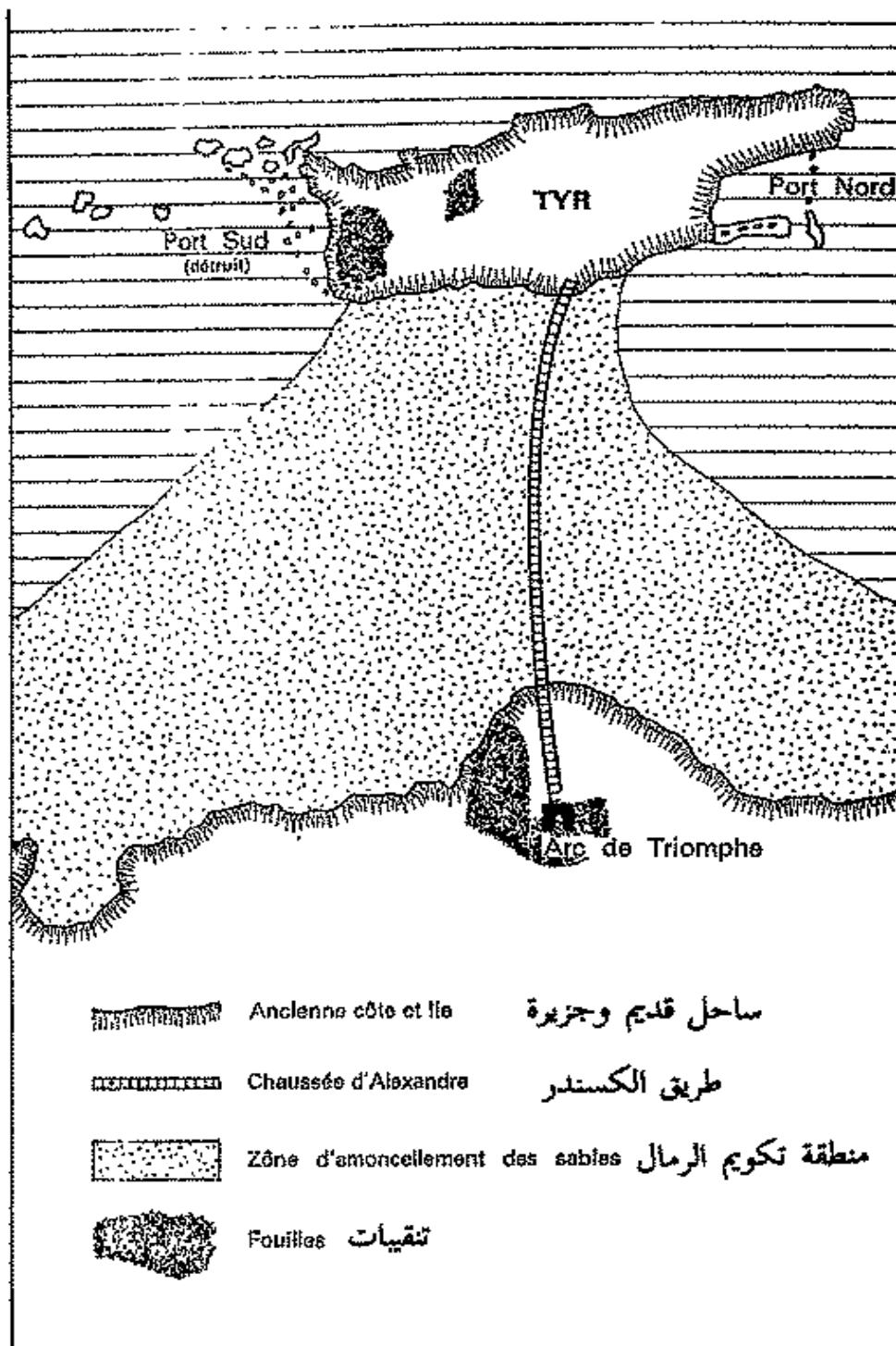
VALEUR	PHENICIEN XII <sup>e</sup> /X <sup>e</sup> av. J.-C.	PUNIQUE VIII <sup>e</sup> /V <sup>e</sup> av. J.-C.	GREC	LATIN	TIFINAGH	LIBYQUE
a	𐤀	𐤁	Α	Α	•	•—
g	𐤂	𐤂	Β	Β	☶	□○○
d	𐤃	𐤂	Γ	Γ	☒	☒
e	𐤄	𐤅	Δ	Δ	ߡ	ߡ
w	𐤆	𐤇		Ϝ	••	=
l	𐤈	𐤉	Λ	Λ		
m	𐤊	߂	Μ	Μ	߂	߂
n	߂	߂	Ν	Ν	߂	߂
o	߂	߂	Ο	Ο		
r	߂	߂	Ρ	Ρ	□○	□○
qk	߂	߂	Φ	Φ	߂߂	߂߂
r	߂	߂	Q	Q		
s	߂	߂	Σ	Σ	߂߂	߂߂
t	߂	߂	Τ	Τ	߂	߂

مخطط معبد أورشليم، بناء مهندسون ومقاتلون من صور.





الإله بعل. من حفريات أوغاريت (متحف اللوفر).

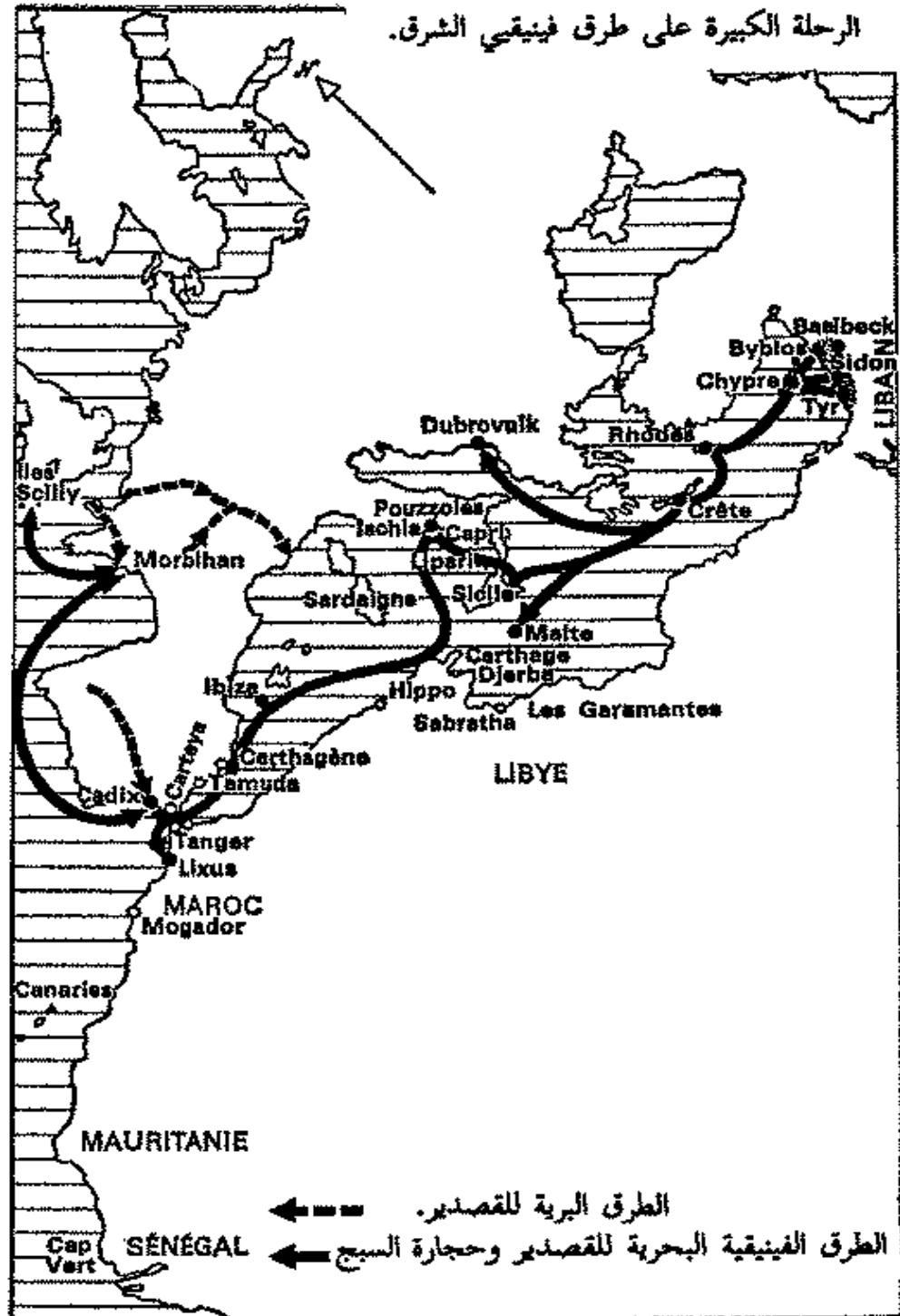




التابوت الحجري للملك أحيرام من القرن الثامن قبل الميلاد، وجد في المقبرة الملكية الكبيرة في جبيل. وهو نموذج حقيقي عن الفن الفينيقي.  
(المتحف الوطني - بيروت).

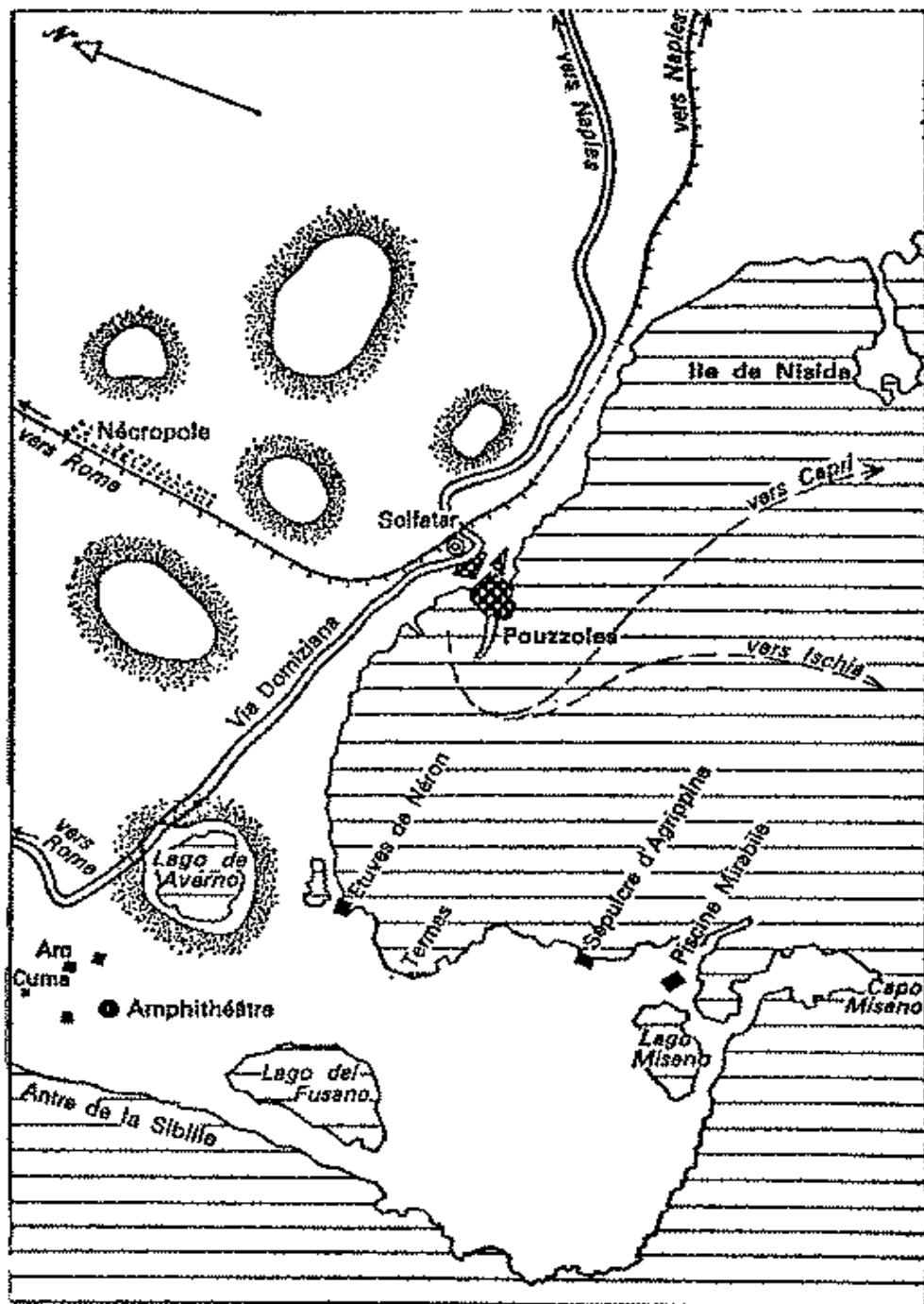
في الأسفل: على محيط الغطاء تجسيد لـ «آب الكتابة» حيث أن النص المنصфор يعد أقدم نموذج للأبجديات الصوتية التي نشأت عنها كافة الأبجديات الحديدة.

الرحلة الكبيرة على طرق فينيقي الشرق.





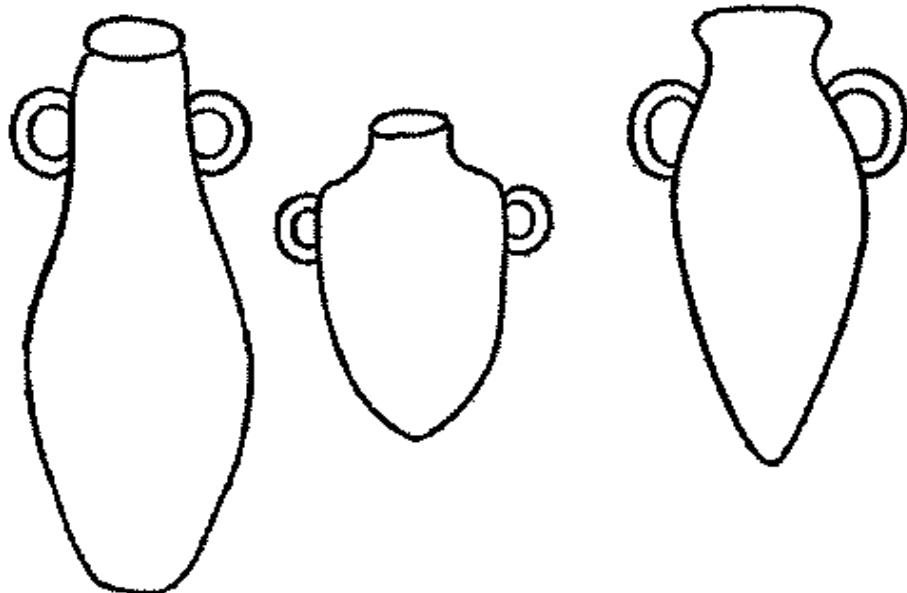
جرة قبرصية من الفترة ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد. تتميز بشكلها المتتفاخ و عنقها الواسع، وهما من خواص الفن القبصي. الصف المزدوج من الدوائر الشمسية الذي كان يشكل الزخارف الرئيسية يبرهن أيضاً على الصلات الروحانية العميقه التي كانت توحد بين قبرص وفينيقيا.



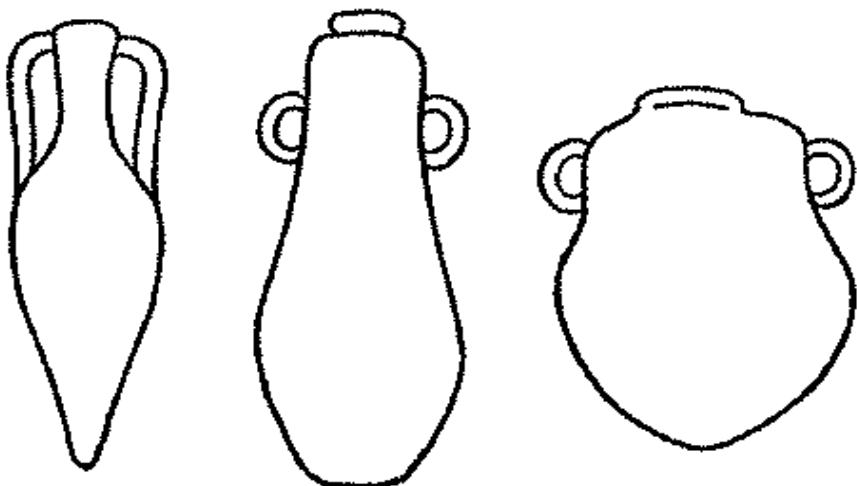


هل تقابل الفينيقيون قبل 3000 سنة مع الأطلسية؟

إن شواهد الحضارة الأطلسية القديمة تتضمن على الهدب الغربي للقارتين الأفرو - أوروبية. وترادها من الشمال معابد (Stonehenge) وجثوات (Cornouailles) وجزر (Scilly) وصفوف الكرنك ومسلات (Cavrinis) المنقوشة، ودلنات (Galice) وأنصاب الـ «نخيلة» في المغرب وزونزاما (Zonzam) في جزر الكناري و (Kaffrine) في السنغال، وإن الآف المواقع التي تم اكتشافها تدل على حضارة خاصة بحوض الأطلسي الشمالي،



- نماذج خزفية - وثائق قدمها وبكل ود متحف المرافق القدية في  
مرسيليا بإشراف الأستاذ بينواں (Benoist). في الأعلى: من  
اليسار: فينيقية، من اليمن: إتروسكية.



من اليسار: رودسية، الوسط: فينيقية من قرطاجة، من اليمين قرطاجية.



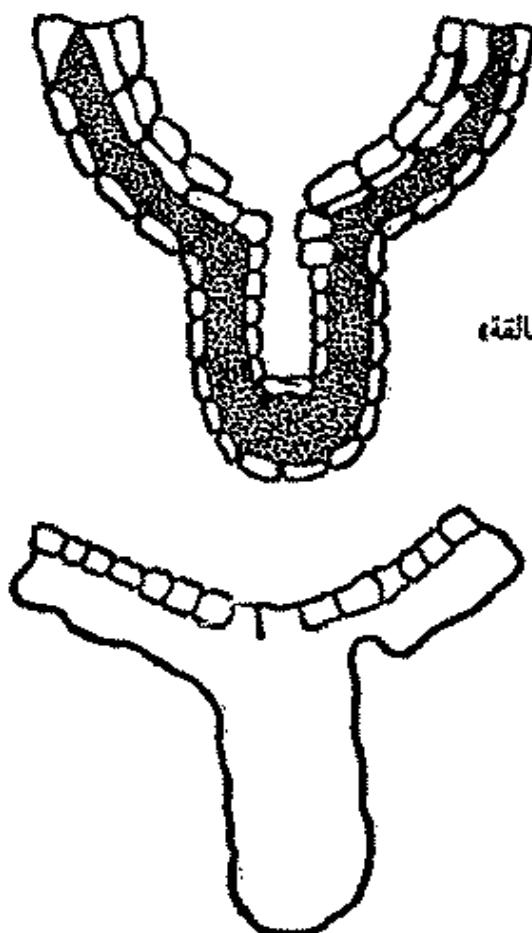
تابوت حجري صيدوني وجد في قادس. وهذا الوجه العجوز ذو اللحية الذي نراه هنا يعبر عن شخصية مرمومة. فربما كان متذوباً لصور في المستعمرة الكبرى في المحيط الأطلسي!... أو ربما كان أميراً للأساطيل البوئية!... أو ربما الملك «أرجانتونيوس» الذي حكم ترشيش، تلك المملكة الأسطورية التي اختفت؟... (محفوظ في المتحف الأنثري في قادس).

سردينيا. تحت رمز الثور.

رأس ثور وجد في بئر مقدس:  
العصر السرديني البليسي.  
 حوالي القرن العاشر قبل الميلاد.



مجموعتان من أضرحة «عمالقة»  
يوحى شكلهما برأس ثور.





ضریع من العصر الیونی الحديث یدعى «Douggas».

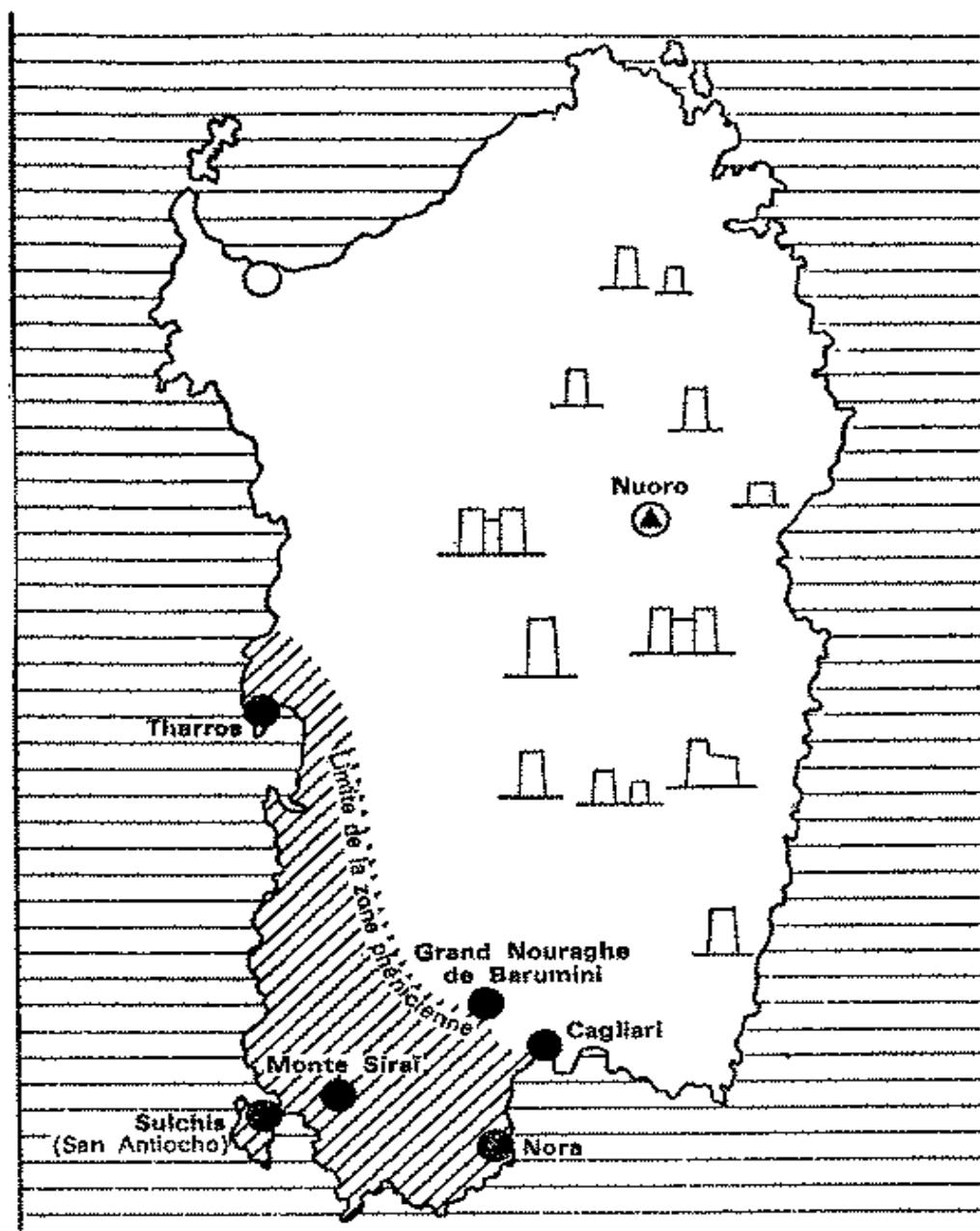
هذا ضریع الذي يحتمل أنه أقيم في القرن الأول أو الثاني الميلادي يكشف لنا من خلال هندسته المعمارية تأثیراً إفريقياً - رومانيا ويرهن من خلال طرازه المخاص إلى أي درجة كان لازال التأثیر في إفريقيا الشمالية حيّاً بعد 300 سنة من إقام = *delenda est Carthago* = إزالة قرطاجة.

كان ضریع «Douggas» يتمیز خاصیة بلوحات تذکاریة تدل على إنشائه. وقد نقلها إلى إنگلترا في منتصف القرن التاسع عشر قصل بريطاني شدید الحماس لذلك. والتصویص التي توجد على هذه اللوحات هي التصویص الوحيدة المزدوجة اللغة (یونیة وبربریة) الموجودة في العالم.



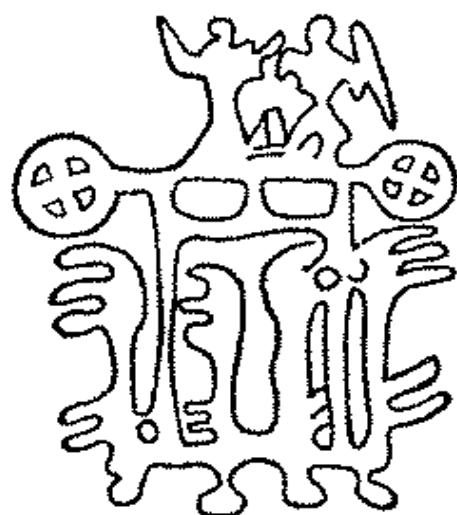
سردينيا.

كان الإله «بَسْ» Bess يُعتبر مجسداً لقوى الشر. تُسب إلى المصريين، وعرف أيضاً تحت اسم «مولوخ». وهو منشأ الأساطير المختلفة عن ما يدعى «الغول» التي ترهب الأطفال في الشرق والغرب على السواء.



سردينيا والمحقبة البوئية - الفينيقيون وحضارة النوراج

الطرق الصحراوية للعربات.



رسم لواحدة من عربات الحرميين. وادي زكرا - فزان.



عربة مرسومة بالقلم. من عصر الحرميين. في موقع يدعى «فريت Frit».

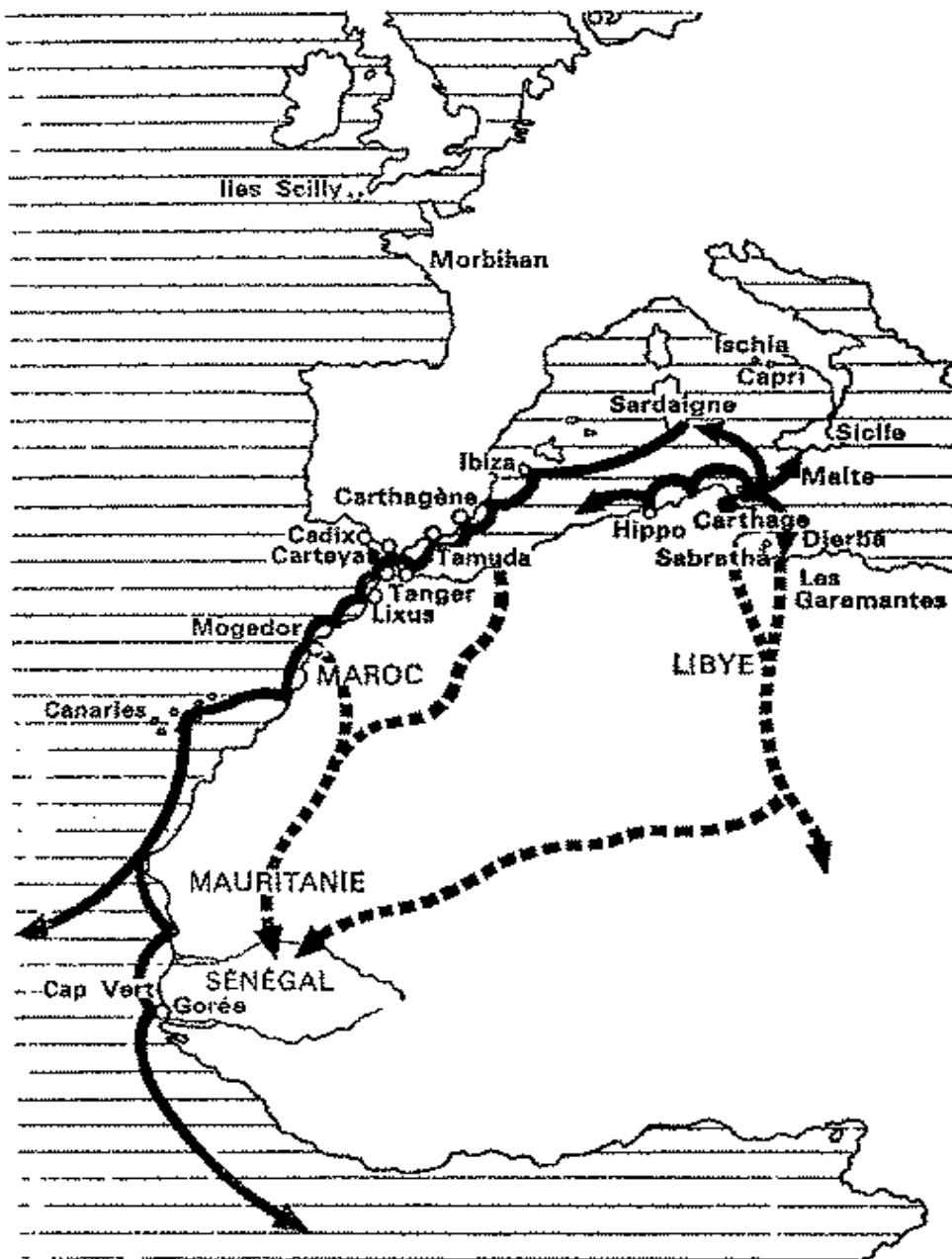


عربة (أمازماز) من عصر الحجرين. من موقع أدرار - موريتانيا.



العربة المسماة Kedama. من عصر الحجرين.

توسيع فينيقي الغرب.



- طرق القرطاجيين البحريين من أجل الذهب والمالح.

- طرق العربات الصحراوية.



«تماثيل الثلج». وهذه التماثيل التي عثر عليها في إيزرا هي نموذج من الفن البوبي الذي طبع بتأثير محلبي قوي. ويمكن الافتراض أنها كانت تمثل عبادات الخصب. (محفوظة في متحف إيزرا).

## مراجع البحث

### نصوص وكتاب قديمة

La Bible, spécialement le Livre des Rois et Ezéchiel.  
Tablettes de la Bibliothèque royale assyrienne de ninive (British Museum).

### الكتاب الإغريق

Homère (VIII<sup>e</sup> - VII<sup>e</sup> siècle av. J.C.).  
Herodote - Thucydide - Pindrae (V<sup>e</sup> siècle av. J.C.).  
Platon - Timée (IV<sup>e</sup> siècle av. J.C.).  
Polybe (II<sup>e</sup> siècle av. J.C.).  
Diodore de Sicile (I<sup>e</sup> siècle av. J.C.).  
Strabon (I<sup>e</sup> siècle av. J.C.).  
Plutarque (I<sup>e</sup> siècle av. J.C.).

### الكتاب اللاتين

Avienus  
César: Commentaires de la Gaules.  
Horace.  
Plaute: Le Carthaginois.  
Pline l'Ancien.  
Procopé.

### المؤرخون العرب

Yacout.  
Ibn Khaldoun  
El - Bekri.

### مراجع فرعية خاصة

- Victor Bérard: Les Phéniciens et l'Odyssée, Ed. A. Colin 1927.  
Les Navigations d'Ulysse, T.IV, Ed. A. Colin, 1929.
- La Colonisation grecque de l'Italie méridionale et de la Sicile dans l'Antiquité, Ed. de Broccard 1914.
- Qui a été le premier à suivre à la trace les Phéniciens et Cadoms.
- Stephane Gsell: Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette, 1918.
- E.F. GAUTHIER: Le Passé de l'Afrique du Nord, Payot, 1952.
- Qui ont été les premiers à souligner les contributions capitales des Phéniciens à la civilisation du Maghreb. Donald B. HARDEN; pour son remarquable ouvrage de synthèse:  
The Phoenicians. Thames and Hudson. Londres 1962.
- Alfred Murr: El, Yahve et Jésus, Editions CADMUS, Beyrouth, 1966.
- Joseph M. Cahmi: De la Phénicie, Librairie du Liban, Beyrouth, 1967.
- Max - Pol Fouchet: L'Art à Carthage, Editions Georges SALL, Paris, 1962.

### مراجع عامة

- Aboussouan (Camille): Festival de Baalbeck, Albums Programmes.
- AUTRAN (C): Les Phéniciens.
- BARADEZ (J): Nouvelles recherches sur les ports antiques de Carthage, Karthago IX.
- BARAMKI (Dimitri): Phoenicia and the Phoenicians, Ed. Khaytas, Beyrouth.
- BARRAT (Denise): Liban, escale du temps, Ed. du Centurion, 1967.
- BERNABO, BREA: Sicilia prima dei Greci, Ed. Ame, 1961.
- BERTHEROY (J): Le Colosse de Rhodes. P. Ollendorf, Paris, 1909.

- BIBI (Heoffrey): Le Millénaire retrouvé, Plon, 1962. 1963.
- BORLASE (William): Observations on the ancient and present state of the Islands of Scilly, Oxford, 1756.
- BOSSERT (Helmut Th): Alt Syrien, Ed. Ernst Wasmuth Tubingen.
- BOVILL (E.W): The Golden of the Moors, London, 1958.
- BRIGAUD (Félix): Notice historique sur Gorée, C.R.D.S. Saint - Louis du Sénégal - Archives.
- CARCOPINO (J): Le Maroc antique, Paris, 1943.
- CARPENTER (R): The phoenicians in the west, Amer. J. Archaeol 1958.
- CHAMPAULT (ph): Phéniciens et Grecs en Italie, d'après l'Odyssée, ED. E. Leroux, 1906.
- CHAMPDOR (Albert): Baalbeck, Librairie de l'Humanisme, Beyrouth. 1959.
- CHARLES - PICARD (G. et C): Le Monde de Carthage.
- La Vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal, III<sup>e</sup> Siècle av. J.C. Hachette 1958.
- Guide du musée Alaoui à Tunis.
- Les Religions de l'Afrique antique, Paris, 1954.
- CONTENAU (C): La Civilisation phénicienne, 1939.
- CORM (Charles): L'Art phénicien, Ed. "La Revue phénicienne", Beyrouth.
- Le Liban, du Cénacle. Beyrouth.
- DAVIS: Carthago and her remains.
- DESJACQUES Jean et KOEBERLE Paul: Mogador et les îles purpuraires, Hesperiis 1955.
- DERVEN (Claude): Rhodes, Horizons de France.
- Driss (Abdelaziz): Trésors du Musée national du Bardo. - S.T.D. Tunis, 1966.
- Dunand (Maurice): Byblos, Librairie Maiaonneuve. Encyclopédie de la Bible (Mot: Phenicie).
- Dussaud (R.): Laphrodite cypriote, Ed. E. Leroux, 1916.

- L'Art phénicien de II millénaire , Paris, 1949. Les Religions des Hittites et des Hourites, des Phéniciens et des Syriens, Paris, 1945.
- Forbes (R.J): Essays in ancient technology, Hollsnde, 1957.
- FUSTE (Miguel): Estudio antropológico de los esqueletos, inhumados en Tumbas de la región de Galdar (Gran Canaria), Las Palmas, 1961 - 1962.
- GARCIA y Bellido (A.): Fenicios y Cartagineses in Occidente, Madrid 1942.
- GAUDIO Attilio: les Empires de la mer, Julliard 1968.
- GAUTHIER (E. F.): Le Passé de l'Afrique du Nord, Payot 1952.
- GRIMAL (Pierre): Dictionnaire de la Mythologie, Presses universitaires de France 1951.
- GROLLENBERG (Luc H.): Atlas de la Bible, Ed. Elsevier.
- GSELL (S.): Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette 1913.
- HARDEN (D. B.): The Phoenicians, Thames and Hudson, Londres 1968.
- Punic Urns from Precinct of Tanit at Carthage, Amer. J. Archaeol.
- HAYNES (D. E. L.): The Antiquities of Tripolitania, Archives of Tripoli, Lybia 1965.
- HOUSSEMAINE: "Turquoises et callais", Bulletin de la société polymathique du Morbihan, Vannes 1939.
- HOZ (Augustin de la): Lanzarote, Madred 1962.
- HUBAC (Pierre): Carthage, Ed, Bellenand 1952.
- JODIN (André): Mogador, comptoir phénicien du Marco atlantique. Ed Marocaines, Tanger 1966.
- JULIEN (Ch. A.): Histoire de l'Afrique du Nord, T. I, Payot, Paris 1952.
- KUKAHN (E.): Anthrope sarkophage in Beyrouth, Berlin 1955.
- LAC H. SZIRMA (W. S.): History of Penzance, St. Michael's Mount, St. Ives, London 1878.

- LAGRANGE (M. J.): Etudes sur les religions sémitiques, 1905.
- LENORMAND (F.): La Légende de Cadmos et les établissements phéniciens en Grèce, Ed. Lévy 1867.
- LESCHI (Louis): Les Origines d'Alger, Conférence du 16 juin 1941. (Document d'Archives).
- LHOTE (Henri): A la découverte des fresques du Tassili, Arthaud, Paris 1958.
- La station de chars graves de l'oued l'Ar'ar.
- LILLIU (Giovanni): La Civitita, dei Sardi dal neolotico all'eat,a dei Nuraghi, Ed. Rai, Milano, 1963.
- "Rapporti fra la civilità nuragica e la civiltà fenicio punica in Sardegna" Studi Etruschi XVIII, 1944.
- LISSNER (Ivar): Civilisations mystérieuses, Laffont, 1964.
- MAIURI et HACOPI: Calara Rhodos, Rodi Istituto archeologico, 1928 - 1931.
- MANA DE ANGULO (J.M.): Guia del Museo archeologico de Ibiza, Ibiza, 1957.
- MAQUET (J.): Afrique, les civilisations noires, Horizons, Hachette 1905.
- MASPERO: Histoire ancienne des peuples de l'Orient, Hachette 1905.
- MEIRAT (Jean): Marines antiques de la Méditerranée Fayard.
- MOSCATI (Asbatino): Communication. Congrès de Palerme, 1964.
- PADILLA (Simon Bentez): Una breve excursion científica por Gran Canaria Las Palmas, 1961 - 1962.
- PARROT (André): "Scènes maritimes des salles du palais de Sargon à Khorsabad", Revue Sumer. VI, 1950.
- PERROT (Georges) et CHIPIEZ (Charles): Histoire de l'Art dans l'Antiquité, T.II, Hachette, 1885.
- Tome VII, LA Grèce de l'épopée à la Grèce archaïque Hachette 1899.
- PESCE (G): Nora: Guida agli Savi Bologna 1957.

- PHILLIPPE (Joseph): Initiation a l'histoire du verre, Liege, 1964.
- PIGGOT (Michel): The Dawn of civilization, Thames and Hudson, London, 1961.
- PONSICH (Michel) et TARRADELL (Miguel): Garum et industries antiques de salaison dans la Mediterranee occidentale, Presses universitaires de France 1965.
- POULSEN (F.): Der Orient und die Fruhgriechische Kunst, Leipzig 1912.
- DEL RIO AYALA (Juan): Documents d'archives.
- RODINSON (Maxime): Encyclopédia de l'Islam, (mot: char).
- ROMAN Y CALVET: Los Nombres et Importancia Arqueol de las Islas Pythiusas, Barcelona 1906.
- SAUMAGNE (Ch.): "Le Port antique de Carthage", Historia, 1931, vol. II.
- Le "Longomare" de la Carthage romaine.
- SCHAEFFER (C. F.): The Cuneiform Texts of Ras shamra-Ougarit, Brit. Acad. Schweich Lectures, London 1939.
- SIRET (Louis): Villaricos y Herrerias, R. Acad. Hist. Madred, Memorias, Madred 1909.
- TRAMELLI (A.): La necropoli punica... a Cagliari, Monumenti Antichi, XXI, 1912.
- TERISSE (A.): L'Afrique de l'Ouest, berceau de l'art nègre, Nathan 1966.
- THORON (Onffroy Vte de): Les Phéniciens a l'ile d'Haiti et sur le continent américain, Louvain 1889.
- TUSA (V.): Scavi a Solunto, Oriens Antiquus III, 1964.
- VOINOVITCH (L. Cte de): Histoire de Dalmatie, Hachette 1934.
- ZAMMIT (Professeur J.): The Copper Age Temples of Tarxien Malta, Malta 1966.
- ZVI (Herman): Peuples, Mers, Navires, Ed. Presses et Métiers graphique, Paris.



## تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية

في جولاته البرية والبحرية قطع الباحث في التاريخ الفينيقي «جان مازيل» خمسة وخمسمائة ألف كيلومتر، وهو يقرى خطى الفينيقيين كي يكتب هذا الكتاب، فإذا بالراواكب الفينيقية - التي كانت قلب العالم القديم كما كانت بابل دماغه - تتلاطم على طريق القصدير الذي اختطه فينيقيو الشرق من حبيل (حاضرة الكتابة) وصيدون (حاضرة الفكر) وسواهما، إلى قبرص واليونان وإنكلترا وأمريكا، فلتدرك أن الرحلة الفينيقية ترتفع إلى أربعة آلاف سنة.

إلى ذلك يقرى هذا الكتاب طريق الذهب (البرية والبحرية) التي اختطها فينيقيو الغرب من نيويورك العالم القديم: قرطاجة، إلى جربة وطرابلس وصبراتا والسنغال وتطوان وطنجة وصقلية وسردانيا والأندلس وجزر الكاريبي وسواها.

فمن هم أولاء الذين اجتروا تلك المعجزات؟ ما هو أصل الفينيقيين؟ وكيف كانت حياتهم الدينية والاجتماعية والفنية والاقتصادية؟ ما هي ابتكاراتهم وحرفهم وتأثيراتهم وأساطيرهم؟

بالإجابة العلمية على هذه الأسئلة بحملنا هذا الكتاب في جولاته . مغامراته في الزمان والمكان، و يجعلنا نقرأ تاريخ الحضارة الفينيقية (الكنعانية) فتحياها من جديد.



**To: www.al-mostafa.com**